

التَّائِيحُ الْإِسْمِيَّةُ

مَوَاقِفَ وَعَبَر

١٠

الخلفاء السُّنِّيَّة

المجلد الثاني

تأليف

دكتور عبد الغني بن عبد الله المحمدي

الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى

دار النشر والنزيع

للنشر والنزيع

جدة

دار النشر والنزيع

للطبع والنشر والنزيع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

رقم الإيداع : ١٩٩٧/٥٦٣٢

الترقيم الدولي

977 - 253 - 151 - 8

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

١ شارع منشأ - محرم بك - الإسكندرية

ت : ٤٩٠١٩١٤ - فاكس : ٥٩٥١٦٩٥

مكتب توزيع القاهرة ت : ٣٨٣٢٧٤٧

دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع

حي السلامة - شارع عبد الرحمن السديري - مركز الزومان التجاري

ص.ب : ٤٢٣٤٠ - جدة : ٢١٥٤١ هاتف / فاكس : ٦٨٢٥٢٠٩

المملكة العربية السعودية

مواقف وعبد

في خلافة أمير المؤمنين

عمر بن الخطاب رضي الله عنه

- مكاتبات بين أمير المؤمنين عمر وأبي عبيدة ومعاذ -

كان أول خطاب وصل إلى الشام من الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحمل نبأ وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وتولية أبي عبيدة على الشام وقد جاء فيه : أما بعد فإن أبا بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ قد توفي فإننا لله وإنا إليه راجعون ، ورحمة الله وبركاته على أبي بكر الصديق العامل بالحق ، والآخذ بالعرف ، اللين الستير الوداع ، السهل القريب الحكيم ، ونحتسب مصيبتنا فيه ومصيبة المسلمين عامة عند الله تعالى ، وأرغب إلى الله في العصمة بالتقى في مرحمته ، والعمل بطاعته ما أحيانا ، والحلول في جنته إذا توفانا ، فإنه على كل شيء قدير ، وقد بلغنا حصاركم لأهل دمشق ، وقد وليتك جماعة المسلمين ، فابث سراياك في نواحي أهل حمص ودمشق وما سواها من أرض الشام ، وانظر في ذلك برأيك ومن حضرك من المسلمين ، ولا يحملنك قلبي هذا على أن تعري عسكري عسكرك فيطمع فيك عدوك ، ولكن من استغنيت عنه فسيره ، ومن احتجت إليه في حصارك فاحتبسه ، وليكن فيمن تحتبس خالد بن الوليد فإنه لا غنى بك عنه ^(١).

ففي هذا الكتاب يذكر أمير المؤمنين عمر خبر وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ويثني عليه ذلك الثناء العاطر ، ثم يذكر تولية أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه على الشام ، وهذا هو الظاهر أن عمر كتب إلى أبي عبيدة بتوليته وعزل خالد والمسلمون محاصرو أعدائهم في دمشق خلافا لما ذهب إليه سيف بن عمر واعتمده الطبري من أن كتاب عمر

(١) تاريخ دمشق ٢/ ١٢٥ .

وصل والمسلمون يواجهون أعداءهم في اليرموك وذلك بناء على مذهب إليه من أن اليرموك كانت في الشهور الأولى من العام الثالث عشر^(١).

وما كان عمر وهو الخبير بمصائر الحروب الشفيق بالأمة . . ما كان ليربك المسلمين بعزل خالد وتولية أبي عبيدة وهم يواجهون أضخم معركة خاضوها في حياتهم ، تلك المعركة التي كانت أعصاب المسلمين فيها جيمعاً مشدودة نحو الشام ، وقلوبهم واجفة ، وألسنتهم تلهج بالدعاء للمسلمين بالنصر وعلى رأسهم عمر رضي الله عنه .

وسيتبين لنا عند استعراض مواقف هذه المعركة كيف أن إنقاذ المسلمين ثم بإذن الله تعالى على يد خالد بن الوليد ، حينما طلب من أبي عبيدة لما تأزم الموقف أن يوليه القيادة العامة للجيش الإسلامية ، فتنازل له أبو عبيدة راضياً مختاراً مؤملاً أن يتم النصر على يد سيف الله المصوب على الكافرين .

وجاء في رواية الأزدي : قالوا : فلم يُسمع من أبي عبيدة شيء يتنفع به مقيم ولا طاعن . فدعا أبو عبيدة معاذ بن جبل ، فأقرأه الكتاب ، فالتفت معاذ إلى الرسول فقال : رحمة الله ورضوانه على أبي بكر ، ويح غيرك ، ما فعل المسلمون ؟

قال : استخلف أبو بكر - رضي الله عنه - عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

فقال معاذ : الحمد لله ، وفقوا وأصابوا .

وقال أبو عبيدة : ما منعني عن مسألته منذ قرأت الكتاب إلا مخافة

(١) انظر تحقيق هذا الموضوع في معركة اليرموك .

أن يستقبلني ، فيخبرني أن الوالي غير عمر .

فقال الرسول : يا أبا عبيدة ، إن عمر يقول لك أخبرني عن حال الناس ، وعن خالد بن الوليد ، أي رجل هو ؟ ، وأخبرني عن يزيد بن أبي سفيان ، وعن عمرو بن العاص ، وكيف هما في حالهما وهيئتهما ، ونصحهما للمسلمين .

فقال أبو عبيدة : أما خالد فخير أمير ، أنصحه لأهل الإسلام ، وأشدّه شفقة عليهم ، وأحسنه نظراً لهم ، وأشدّه على عدوهم من الكفار ، فجزاه الله عنهم خيراً ، ويزيد وعمرو في نصحهما وحدّهما ونظرهما للمسلمين وشفقتهم عليهم كما يحب عمر أن يكونا عليه ، وكما أحبّ .

قال : فأخبرني عن أخويك سعيد بن زيد ، ومعاذ بن جبل .

فقال : هما كما عهدت ، إلا أن يكون السن زادهما في الدنيا زهداً ، وفي الآخرة رغبة .

قال : ثم إن الرسول وثب لينصرف فقال أبو عبيدة : سبحان الله ، انتظر نكتب معك .

فكتب إليه أبو عبيدة ومعاذ بن جبل كتاباً واحداً :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب ، سلام عليكم ، فإننا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإننا عهدناك وأمر نفسك لك مهمّ ، وإنك يا عمر ، أصبحت وقد وليت أمر أمة محمد ، أحمرها وأسودها ، يقعد بين يديك العدو والصديق ، والشريف والوضيع ، والشديد والضعيف ، ولكل

عليك حقّ وحصة من العدل ، فانظر كيف تكون يا عمر ، وإنا نذكرك يوماً تُبلى فيه السرائر ، وتكشف فيه العورات ، وتظهر فيه المخبّات ، وتَعْنُو فيه الوجوه لملك قاهر ، قهرهم بجبروته ، والناس له داخرون ، ينتظرون قضاءه ، ويخافون عقابه ، ويرجون رحمته ، وإنه بلغنا أنه يكون في هذه الأمة رجالٌ إخوان العلانية أعداء السريرة ، وإنا نعوذ بالله من ذلك ، فلا ينزل كتابنا من قلبك بغير المنزلة التي أنزلناها من أنفسنا ، والسلام عليك ورحمة الله .

فمضى رسوله بالكتاب إليه ، وقال أبو عبيدة لمعاذ : والله ما أمرنا عمر أن يظهر وفاة أبي بكر رضي الله عنه للناس ، وأن ننعه إليهم ، وما أريد أن أذكر من ذلك شيئاً دون أن يكون هو يذكره .

قال له معاذ : فإنك نعم ما رأيت .

فمضى رسوله بالكتاب إليه ، وسكتا فلم يذكرهما للناس شيئاً ، ولم يلبثا إلا مقدار ما قدم رسول عمر عليه حتى بعث إليهما عمر رضي الله عنه بجواب كتابهما ، وبعهد أبي عبيدة ، وأمر أبا عبيدة أن يعظ الناس .

وجاء بالكتاب شداد بن أوس بن ثابت ابن أخي حسان بن ثابت الأنصاري .

وكان جواب كتابهما إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة بن الجراح ، ومعاذ بن جبل ، سلام الله عليكما ، فإني أحمد إليكما الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإني أوصيكما بتقوى الله ، فإنه رضا

ربكما ، وحظ أنفسكما ، وغنيمة الأكياس ^(١) لأنفسهم عند تفريط العجزة ، وقد بلغني كتابكما تذكيران أنكما عهدتاني وأمر نفسي لي بهم ، فما يدريكما ، وهذه تزكية منكما لي ، وتذكيران أنني وليت أمر هذه الأمة ، يقعد بين يدي الشريف والوضيع ، والعدو والصديق ، والقوي والضعيف ، ولكل حصته من العدل ، وتسألاني كيف أنا عند ذلك ، وإنه لا حول ولا قوة إلا بالله .

وكتبتما تخوفاني يومًا هوأت ، وذلك باختلاف الليل والنهار ، فإنهما يُبليان كل جديد ، ويقربان كل بعيد ، ويأتیان بكل موعود ، حتى يأتيا بيوم القيامة ، يوم تُبلى السرائر ، وتُكشف العورات ، وتعنف فيه الوجوه لعزة ملك قهرهم بجبروته ، فالناس له داخرون ، يخافون عقابه ، ويتظرون قضاءه ، ويرجون رحمته .

وذكرتما أنه بلغكما أنه يكون في هذه الأمة رجال يكونون إخوان العلانية ، أعداء السريرة ، فليس هذا بزمان ذلك ، فإن ذلك يكون في آخر الزمان إذا كانت الرغبة والرغبة ، رغبة الناس ورهبتهم ، بعضهم إلى بعض . والله عز وجل قد ولاني أمركم ، وإنني أسأل الله أن يعينني عليه وأن يحرسني عنه كما حرسني عن غيره ، وإنني امرؤ مسلم وعبد ضعيف ، إلا ما أعان الله عز وجل ، ولن يغير الذي وكيت من خلافتكم من خلقي شيئًا إن شاء الله ، وإنما العظة لله عز وجل ، وليس للعباد منها شيء ، فلا يقولن أحد منكم إن عمر قد تغير منذ وكي ، وإنني أعقل الحق من نفسي وأتقدم ، وأبين لكم أمري ، فأيا رجل كانت له حاجة ، أو ظلم مظلمة ، أو عتب علينا في خلق فليؤدني ، فإنا أنا رجل منكم ،

(١) جمع كَيْسٍ بتشديد الياء وكسرهما ، وهو النبيه الفطن .

ليس بيني وبين أحد من المسلمين هوادة ، وأنا حبيب إليّ صلاحكم ، عزيز عليّ عتبكم ، وأنا مسئول عن أمانتي وما أنا فيه ، ومطلع على ما يضيرني بنفسي إن شاء الله ، لا أكله إلى أحد ، ولا استطيع مابعد ذلك إلا بالأمناء ، وأهل النصح منكم للعامة ، ولست أجعل أمانتي إلى أحد سواهم ، إن شاء الله .

وما سلطان الدنيا وإمارتها ! فإن كل ما تريان يصير إلى زوال ، وإنّا نحن إخوان ، فأينا أمّ أخاه ، أو كان عليه أميراً لم يضره ذلك في دينه ولا في دنياه ، بل لعل الوالي أن يكون أقربهما إلى الفتنة وأوقعهما بالخطيئة إلا من عصم الله ، وقليل ما هم ^(١) .

هذا وقد تباطأ أبو عبيدة في ابلاغ خالد والمسلمين نبأ وفاة أبي بكر وتولية أبي عبيدة على إمرة الشام كله رجاء أن يتم فتح دمشق على يد خالد بناء على الخطة الحربية التي كان وضعها لذلك .

وعلم عمر رضي الله عنه بذلك وهو يعلم أخلاق أبي عبيدة المجبولة على الزهد في الدنيا والبعد عن الجاه ، فكتب له كتاباً آخر يقول فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة بن الجراح سلام عليك ، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو ، وأصلي على نبيه محمد ﷺ .

وبعد : فقد وليتك أمور المسلمين فلا تستحيي فإن الله لا يستحيي من الحق ، وإنني أوصيك بتقوى الله الذي أخرجك من الكفر إلى الإيمان ومن الضلال إلى الهدى ، وقد استعملتك على جند خالد ، فاقبض جنده

(١) فتوح الشام / ٩٩ - ١٠٢ .

واعزله عن إمارته ، ولا تُنفذ المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة ، ولا تنفذ سرية إلى جيش كبير ، وغض عن الدنيا عينيك ، وأله عنها قلبك ، وإياك أن تهلك كما هلك من كان قبلك ، فقد رأيت مصارعهم ، وخبرت سرائرهم ، وإن بينك وبين الآخرة ستر الخمار ، وكأني بك منتظر سفراً من دار قد مضت نضارتها ، وذهبت زهرتها ، وأحزم الناس من يكون زاده التقوى .

أخرجه الأزدي قال : حدثني يزيد بن أبي يزيد بن جابر عن أبي أمامة رضي الله عنه ^(١) .

وهكذا أمر عمر أبا عبيدة أمراً مؤكداً بالبت في هذا الأمر وإعلانه ، ومع اهتمامه البالغ بأمور الحكم والجهاد ، لم يُغفل الموعظة بالتذكير بالآخرة والتزهيد في الدنيا ، مما يدل على أن هذا الأمر الكبير كان ماثلاً أمام أعين هؤلاء الصحابة ، وأنه لا يشغلهم عنه أي شاغل ، لأن بتذكره دائماً تستقيم أمور الحياة الدنيا .

وفي هذه الأخبار مواقف منها :

أولاً : ما قام به أبو عبيدة من كتمان خبر وفاة أبي بكر أول الأمر كي لا يؤثر ذلك على المسلمين في جهادهم ، ولقد كان تعبير الراوي عن ذلك بليغاً حينما قال : فلم يُسمع من أبي عبيدة شيء ينتفع به مقيم ولا ظاعن . وهذه السريّة المبنية على الحكمة والتفكير المتأمل كان لها دور مؤثر في تماسك مجتمع المسلمين آنذاك .

ثانياً : كان في حسّ أبي عبيدة ومعاذ أن أصلح المسلمين للخلافة بعد

(١) فتوح الشام / ١٠٢ .

أبي بكر عمر ، وكان من شدة إشفاق أبي عبيدة من أن يتولى غيره أنه لم يسأل رسول عمر عن الخليفة بعد أبي بكر ، وحينما سأله معاذ حمداً لله على ذلك .

وهكذا التقت أفكار هؤلاء العظماء أبي بكر وأبي عبيدة ومعاذ والذين وافقوا أبا بكر على أقدمية عمر في ذلك حينما استشارهم . . .
إلتقت أفكار هؤلاء العظماء على أن أصلح الأمة للخلافة بعد أبي بكر عمر .

ولقد أثبت الواقع أنه لم يأت بعد عمر مثله في إقرار العدل ، ودعم الجهاد ، وإعزاز الدين ، وتوسيع الدولة الإسلامية وتقويتها ، وإرساء قواعد الحضارة الإسلامية الوثابة التي اتسعت وعظمت حتى هيمنت على حضارات الأمم والتهمتها ، وصاغت بالصياغة الإسلامية .

ثالثاً : ثناء أبي عبيدة البليغ على خالد - مع أنه قد خلفه في الإمارة ، ومع أن الذي طلب تقيمه أمير المؤمنين عمر - يدل على عظمة أبي عبيدة وعمق يقينه ورجاحة عقله ، فلم يُغَطَّ على محاسن خالد مداراةً لعمر الذي ولاه وعزل خالدًا ، ولا خضوعاً لهوى منحرف .

رابعاً : في الموعدة البليغة التي وجهها أبو عبيدة ومعاذ إلى أمير المؤمنين عمر دلالة على اهتمام الصحابة رضي الله عنهم بأمر الآخرة ، وتمحيص النفوس من كل ما قد يعلق فيها من شوائب حتى تصبح صفحة بيضاء ، فلم يدُرْ بخلد أبي عبيدة ومعاذ أن عمر القوي الإيمان الراسخ العلم ليس بحاجة إلى مواعظ ، بل فضلاً النظر في نجاته من عواقب المسؤولية على النظر في عظمته وتفوقه في مجالات الورع والتقوى وكبح

جماح النفس ، فوجَّها له تلك الموعظة .

خامساً : في جواب عمر لأبي عبيدة ومعاذ حكَّم بالغة وفوائد جَمَّة ، فقد بدأ بتذكيرهما بتقوى الله تعالى ، والتقوى حماية للنفس وحارس أمين لها يحميها من بُنَيَّات الطريق ومنعطفات الخطيرة ، وقد وصف المتقين بالفطنة ووصف المقصرين بالعجز ، وإنه لوصف صادق ، فما أعظم فطنة من نظر إلى نجاته وسعادته في حياة الخلود وما أرجح عقله !! وما أعجز من ضيَّع ذلك وأضعف عقله !!

وذكرهما بما ذكرَّاه به من يوم الحساب وتلقَّى الكتاب الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، يوم يتمنى الإنسان أن يكون قدَّم من العمل الصالح أفضل مما قدم وأن يكون برئ من كل عمل سيء ، وإنَّ تبادل هذه الموعظة بين الصحابة دليل على عظمة تذكُّرهم للأخرة وشدة فزعهم من هولها وشوقهم إلى نعيمها .

ويُذكرُّ عمر أبا عبيدة ومعاذًا وغيرهما بأن الولاية لن تغير من خلقه المعروف شيئًا ، وأنه قد نصب نفسه للعدالة بين الناس من غير محاباة لقوي ولا هضم لضعيف .

حوار بين خالد وأبي عبيدة :

علم خالد بأمر عزله فأقبل حتى دخل على أبي عبيدة فقال : يغفر الله لك ، أذاك كتاب أمير المؤمنين بالولاية فلم تعلمني وأنت تصلي خلفي والسلطان سلطانك ؟ ، فقال أبو عبيدة : وأنت يغفر الله لك ماكنت لأعلمك ذلك حتى تعلمه من عند غيري ، وماكنت لأكسر عليك حربك حتى ينقضي ذلك كله ، ثم قد كنت أعلمك إن شاء الله ،

وما سلطان الدنيا أريد ، وما للدنيا أعمل ، وإن ما ترى سيصير إلى زوال وانقطاع ، وإنما نحن إخوان وقُومَ بأمر الله عز وجل ، وما يضر الرجل أن يلي عليه أخوه ، في دينه ولادنياه ، بل يعلم الوالي أنه يكاد أن يكون أدناهما إلى الفتنة وأوقعهما في الخطيئة لما يعرض له من الهلكة ، إلا من عصم الله عز وجل وقليل ما هم .

ودفع أبو عبيدة كتاب عمر إلى خالد (١) .

وهكذا نعود مرة أخرى إلى هذين العملاقين لتتعلم منهما دروساً بالغة الأهمية في حياتنا العملية .

فهذا أبو عبيدة يؤثره عمر بالولاية العامة في الشام فيزهد بها ويتأخر في إبلاغ خالد بذلك إشاراً للمصلحة العامة حتى تنقضي المهمة التي خطط لها خالد ، ثم يعرض الأمر وهو يفهم حقيقة الولاية فهماً تاماً ، فهي مغرم وليست بمغنم ، والسعيد من لم يُبتَلَ بها ، لكن من ابتلي بها فعدل ونصح فهي خير في الدنيا وثواب جزيل في الآخرة .

وخالد يلوم أخاه أبا عبيدة أن أسرف في نفسه هذا التكليف ولم يبلغه إياه في حينه ، وهو لا يريد أن يتقدم أبا عبيدة بشيء إلا أن يكون ذلك تكليفاً من قبل الخليفة فالطاعة إذاً واجبة على الجميع .

وهنا تبدو لنا روح الطاعة والتجرد من حظ النفس لدى هؤلاء الأماجد الكرام ، فقد وجه أبو بكر خالداً لأعنف حروب الردة ، فتوجه لها طائعاً مختاراً ، وكان كذلك في حروب العراق ، حتى إذا كان من فتح المدائن قاب قوسين أو أدنى صدر التوجيه له إلى الشام فسلم طائعاً مختاراً .

(١) تاريخ دمشق / ٢ / ١٢٦ .

وأبو عبيدة بعد أن كان أمير الشام وقائد جيوشها يصبح قائد جيش واحد فيُسَلَّم الأمر لخالد طائعاً مختاراً ، ثم يرجع بعد ذلك أميراً عاماً فلا يزيد شيئاً أمام نفسه ، بل يتقبل التكليف ببطء ويعلن زهده في الدنيا ومناصبها ، ويشير إلى خطورة المسؤولية إلا على من عصمه الله ، ثم يعود خالد جندياً مطيعاً لأبي عبيدة يتوجه حينما وجهه .

وأمر آخر في غاية الأهمية وهو أن خالداً بقي عند أبي عبيدة في أعلى مكانة فكان لا يتقدم خطوة إلا بمشورة خالد ، حتى كأن خالداً لم يفقد شيئاً من سلطته الأولى ، وخالد لم ييخل بخالص الرأي والمشورة على أبي عبيدة ، فكان وضعهما الإداري طيلة عملهما في أعلى وضع يمكن أن يتصوره الإنسان من مكارم الأخلاق .

وما هذه إلا لمحات موجزة عن تشخيص السمو الأخلاقي الذي بلغه هذان العملاقان ، ولو تعمق الدارس في طريقة العمل بينهما لخرج بنتائج باهرة ، تعتبر مثلاً عالية للأسوة الحسنة .

ولو أن هذه التصرفات من تثبيت أمير ثم عزله وتثبيت آخر ثم تكليف الأول بالمسؤولية . . لو أن ذلك تم بين أبناء الدنيا وطلاب الجاه لوجدنا الغيرة تبرز قرونها والحسد يرسل لهيبه فيحرق الأخضر واليابس ، ولسادت الفوضى وعم الفساد ، لأن القائد الأخير سيتكبر عن استشارة القائد الأول ، والقائد الأول سيكتفم خبرته ومواهبه حتى لا تكون سبباً في نجاح القائد الثاني ، والنتيجة تكون في انحدار مستوى العمل وخسارة الأمة .

وقد وقعت الأمة الإسلامية في كثير من أطوار تاريخها ضحيةً لمثل

هذه الأمراض الخلقية ، منذ أن ذهب ذلك الرعيل الأول الذي تغذى
بغذاء الإيمان ، وأثر الآخرة على الدنيا .

لقد حمى الإسلام سياج الأخوة الإسلامية بتوجيهات سامية نحو
الأخلاق النبيلة ، فإيثار المصلحة العامة للمسلمين ، والتجرد من حظ
النفس ، من أعظم الأخلاق الكريمة أثراً في حفظ الأخوة ورعايتها
فالمجتمع الذي يسود فيه الإيثار ، وحب المصلحة العامة ، ونسيان الذات
في سبيل مصلحة الأمة ، هو المجتمع الذي تترعرع فيه الأخوة الإسلامية
وتزدهر ، لأنه مجتمع تُبذل فيه النصيحة وتُعقد المشورة بين أفرادهِ ، حتى
في الأمور الصغيرة ، فيستفيد الفرد من عقول الآخرين وتجاربهم في
الحياة ، فإذا تبدل المسئول بمسئول آخر مثلاً استفاد هذا الأخير من تجارب
الأول ولم ييخل الأول بإسداء نصيحته ومشورته للأخير ، لأنهما أخوان
في الله ، وهدفهما واحد هو إعزاز الإسلام والمسلمين .

وإذا استحكمت الأخوة الإسلامية في النفوس ظهرت آثارها
الحميدة في بناء المجتمع الصالح ، وحمايته من أسباب الانهيار ، وما هذه
المواقف الإسلامية التي نشيد بها إلا أثر من آثار تمكن الأخوة الإسلامية
في قلوب الصحابة رضي الله عنهم .

* * *

مواقف وعبد

فى فتوح الشام الثانية

(ما قبل اليرموك)

١ - معركة فحل (١) -

ظل أبو عبيدة عامر بن الجراح محاصراً دمشق ومعه من القادة خالد ابن الوليد ويزيد بن أبي سفيان رضي الله عنهم ، وكان في جنوب الشام جيش بقيادة عمرو بن العاص ومعه شرحبيل بن حسنة رضي الله عنهما . وقد جاءت الأنباء إلى أبي عبيدة أن جيشاً كبيراً للروم قادم نحو المسلمين ، وعلم أنهم اتجهوا نحو فلسطين ، ولعلهم أرادوا أن يكرروا محاولتهم الأولى يوم أجنادين حيث وجهوا قوتين كبيرتين لجيشين منفصلين عن الجيش الإسلامي الرئيس ، وقد علمنا سابقاً أن خالد بن الوليد قضى على محاولتهم تلك بجمع الجيوش الإسلامية والاتجاه بها إلى أجنادين وكانت النتيجة نصراً مؤزراً للمسلمين .

وفي هذه المرة بعد مشاورة بين أبي عبيدة وخالد قرر أبو عبيدة إبقاء جيش حول دمشق بقيادة يزيد بن أبي سفيان ثم التوجه ببقية الجيش جنوباً لمواجهة جيش الروم . وخوفاً من أن يدرك جيش الروم جيش المسلمين في فلسطين فقد قدم أبو عبيدة خالداً في خمسمائة وألف من الفرسان .

ومعروف أن خالداً وحده يكفي مع مئاة من الفرسان لإرهاب جيش كبير ، وقد سار يسابق الريح حتى أدرك مؤخرة جيش الروم وقد دخل أوائلهم عسكرهم ، فهاجم عليهم وقتل منهم كثيرين ، وغنم من أموالهم ، وأفلت من أفلت منهم منهزمين حتى دخلوا معسكرهم (٢) .

(١) كانت هذه المعركة في ٢٨ ذي القعدة عام ثلاثة عشر للهجرة - انظر « الطريق إلى دمشق »

لأحمد عادل كمال / ٣١٤ .

(٢) فتوح الشام للأزدي / ١١٠ .

وواصل خالد سيره حتى لقي عمرو بن العاص فعسكر قريباً منهم .
وفي هجوم خالد هذا على مؤخرة جيش مكون من عشرين ألفاً ما
يكشف لنا عن قوة المسلمين واستهانتهم بأرواحهم إلى جانب خور الروم
وجبنهم ، وضياح المسئولية فيهم .

فلو أن فرقة من جيش الكفار هجمت على جيش المسلمين لكانت
النتيجة أن يطوقها الجيش ويبيد جميع أفرادها .

ولقد كانت فرصة للروم أن يتخلصوا من أبرز قواد جيش المسلمين
الذي دوخهم وشتت أفكارهم ، ولكن الشيء الذي كان يهيمن عليهم
عند اللقاء أن يخلصوا أنفسهم من هجوم المسلمين الصاعق ، فكان أقرب
تفكير يراودهم أن يفروا عند اللقاء .

بين يدي المعركة :

قال أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي في سياق هذه المعركة :
وكان المسلمون حيث نزلوا بهم ليس شيء أحب إليهم من معاجلتهم ،
وكانت الروم ليس شيء أحب إليهم من مطاولة المسلمين رجاء المدد من
صاحبهم ، ولأن المسلمين لم يكونوا في مثل ما فيه الروم من الخصب
والكفاية .

وأقبل المشركون يُفجّرون المياه بينهم وبين المسلمين ليطاولوهم لما
وجدوا من صبر المسلمين وجدّهم ، ونَصُرَ الله إياهم ، فهم يخافون إن
هم عاجلوهم أن يقعوا منهم في شدة شديدة ، أو ينهزموا هزيمة قبيحة ،
فهم يدافعون ويطاولون ما استطاعوا .

وأقبل المسلمون يخوضون إليهم مافجّروا عليهم ، ويمشون في

الوحد ، فلمسا رأى ذلك الروم منهم ، وأنهم لا يمنعهم منهم [الماء]
خرجوا ، فعسكروا ووطنوا نفوسهم على القتال ، وكانوا في كل يوم
يزدادون ، ويأتيهم المدد من الرساتيق والقرى ، ومن كان على دينهم .

وأمر أبو عبيدة حين بلغه ذلك فقال للمسلمين : أغيروا عليهم ،
وأغيروا على أهل القرى والسواد والرساتيق ، ففعلوا ذلك ، فقطعوا
عنهم المدد والميرة ^(١) .

وهكذا نجد أولئك الصحابة رضي الله عنهم عزائمهم قوية ، فالذي
يعتبره الأعداء عوائق دون الزحف والتقدم لا يكون كذلك عند أولئك
المجاهدين ، لأنهم قد ألفوا حياة الخشونة والصبر على الشدائد .

وإذا كان الأعداء قد عزموا على المطاولة والتأخير لتصل إليهم
الأمداد فإنهم أمام أناس قد تدثروا بالحزم الشديد ، وتلبسوا بالعزم الأكيد
على المناجزة واغتنام الفرص ، فقد حالوا بين أعدائهم ووصول أي مدد
بالغارات السريعة المفاجئة التي شكلت طوقا حول الأعداء .

ومن أمثلة هذه الغارات ما ذكره الأزدي في سياق روايته قال :
فخرج صفوان بن المعطل الخزاعي ، ومعن بن يزيد بن الأحنس السلمي
يوماً في خيل لهم ، فأغاروا ، فغنما غنائم كثيرة ، فلما انصرفا عرضت
لهما الروم ، فقاتلوهم قتالاً شديداً .

ولما كانا جميعاً في نحو من مائة فارس ، وخرج الدرّنجار ^(٢) في

(١) فتوح الشام / ١١٢ .

(٢) يعني قائد الروم .

خمسة آلاف خيل ، فطاردوهم ، وصبروا لهم ، واحتسبوا في قتالهم ،
ثم إن الروم غلبوهم على غنيمتهم .

ثم إن حابس بن سعيد الطائي جاء في نحو من مائة رجل من طيء ،
فحمل عليهم ، فزالوا غير بعيد ، ثم حملوا عليه ، فردّوه وأصحابه حتى
ألحقوهم بالمسلمين ، ثم انصرفوا ، وقد بغوا ، وهم يظنون أن هذا ظفر
منهم ، ولم يقتلوا أحداً ، ولم يهزموا جمعاً^(١) .

وهذا مثل من شدة جلد المسلمين آنذاك وقوة صبرهم وشجاعتهم ،
حيث صبر مائة لخمسة آلاف وقاوموهم ولم يستطع الأعداء رغم كثرتهم
أن يقتلوا مسلماً واحداً ، ثم لما جاء المائة الآخرون كشفوا الأعداء
وأزالوهم ، وقد رضي الأعداء من الغنيمة أن يعودوا سالمين قد أحرزوا
أموالهم ، وكانهم قد يتسوا من قتال المسلمين .

قال الأزدي في سياق روايته : فلما انصرفوا إلى رحالهم وعسكرهم
أرسلوا إلى أبي عبيدة أن أخرج أنت ومن معك من أصحابك ، وأهل
دينك من بلادنا التي تُنبت الحنطة والشعير ، والفواكه والأعشاب والشمار
فلستم لها بأهل ، وارجعوا إلى بلادكم ، بلاد البؤس والشقاء ، وإلا
أتيناكم فيما لا قبل لكم به ، ثم لم ننصرف عنكم وفيكم عين تطرف .

فردّ عليه أبو عبيدة فقال : أما قولكم ، اخرجوا من بلادنا ، فلستم
لها ولما تُنبت بأهل ، فلعمري ما كنا لنخرج منها ، وقد أذلّكم الله بنا
فيها ، وأورثناها ، ونزعها من أيديكم ، وصيرّها لنا ، وإنما البلاد بلاد
الله ، والعباد عباد الله ، والله مالك الملك يؤتي الملك من يشاء ، ويعزّ من

(١) فتوح الشام / ١١٣ .

يشاء ، ويدل من يشاء ، وأما قولكم في بلادنا أنها بلاد البؤس والشقاء فصدقتم ، وما نجعل ماقلتم ، إنها لكذلك ، وقد أبدلنا الله بها بلاد العيش الرفيع ، والسعر الرخيص ، والأنهار الجارية ، والثمار الكثيرة فلا تحسبوننا تاركيها ، ولا منصرفين عنها حتى نفنيكم ونخرجكم عنها ، فأقيموا ، فوالله لا نجشمكم إن أنتم لم تأتونا أن نأتيكم ، وإن أنتم أقمتم لنا فلا نبرح حتى نبيد خضراءكم ، ونستأصل شأفتكم إن شاء الله (١) .

وهكذا كان رد أبي عبيدة رد العالم الموقن ، فالأرض ليست ملكاً للبشر وإنما هي ملك لرب البشر جل جلاله ، فهو يورثها من يشاء من عباده ، وقد علم الصحابة رضي الله عنهم بمقتضى بشارات النبي ﷺ أن الله تعالى سيورث المسلمين ديار الفرس والروم ، فحروب المسلمين ليست كحروب سائر الأمم التي تحارب لتأكل الضعفاء وتوسع ملكها ، بل هي حروب ذات هدف أعلى ومقصد أسمى ، هو إعلاء كلمة الله تعالى وإقامة دولة الإسلام التي هي أحق بوراثنة الأرض من جميع الأمم التي لاتدين بالإسلام .

محاورة معاذ مع زعماء الروم :

قال محمد بن عبد الله الأزدي في سياق روايته : فأرسلوا إلى أبي عبيدة أن أرسل إلينا رجلا من صلحائكم نسأله عما تريدون ، وما تسألون وما تدعون إليه ، ونخبره بذات أنفسنا ، وندعوكم إلى حظكم إن قبلتم . فأرسل إليهم أبو عبيدة معاذ بن جبل ، فأثاهم على فرس له ، فلما دنا منهم نزل عن فرسه ، وأخذ بلجامه ثم أقبل إليهم يقود فرسه ، فقالوا لبعض غلمانهم : انطلق إليه فأمسك له فرسه .

(١) فتوح الشام / ١١٣ - ١١٤ .

فجاء الغلام ليمسك له دابته ، فقال معاذ : أنا أمسك فرسي ، لا أريد أن يمسه أحد غيري ، فأقبل يمشي إليهم ، فإذا هم على فُرش وبُسط وغمارق^(١) تكاد الأبصار أن تغشى منها .

فلما دنا من تلك الثياب قام قائماً^(٢) ، فقال له رجل : أعطني دابتك ، أمسكها لك ، وادُنْ أنت فاجلس مع هؤلاء الملوك في مجالسهم ، فإنه ليس كل أحد يقدر أن يجلس معهم ، وقد بلغهم صلاح وفضل عند من أنت منهم ، فهم يكرهون أن يكلموك جلوساً ، وأنت قائم ، فاجلس معهم .

فقال معاذ للترجمان : إن نبينا ﷺ أمرنا أن لا نقوم لأحد من خلق الله ، ولا يكون قيامنا إلا لله في الصلاة والعبادة ، والرغبة إليه ، فليس قيامي هذا لكم ، ولكني قمت إعظاماً للمشى على هذا البسط والجلوس على هذه النمارق التي استأثرت بها على ضعفائكم وأهل ملئتكم ، وإنما هي من زينة الدنيا وغرورها ، وقد زهد الله في الدنيا وذمها ، ونهى عن البغي والسرف فيها ، فأنا أجلس ها هنا على الأرض ، وكلموني أنتم بحاجتكم منْ ثمَّ ، وأقيموا الترجمان بيني وبينكم ، فليفهمني ماتقولون ، ليفهمكم ما أقول .

ثم أمسك برأس فرسه ، وجلس على الأرض عند طرف البساط ، فقالوا له : لو دنوت فجلست معنا كان أكرم لك ، إن جلوسك مع هذه الملوك على هذه المجالس مكرمة لك ، وإن جلوسك على الأرض منتحياً صنيع العبد بنفسه فلا تراك إلا قد أزريت بنفسك .

(١) جمع غمرقة ، وهي الوسادة الصغيرة .

(٢) أي وقف ولم يجلس ، والمراد بالثياب الفرش .

فأخبره الترجمان بمقالهم : فجثا معاذ على ركبتيه ، واستقبل القوم بوجهه ، وقال للترجمان : قل لهم إن كانت هذه المكرمة التي يدعونني إليها استأثرت بها على من هو مثلكم ، إنما هي للدنيا التي زهد الله فيها ، فهي عندكم مكرمة في الدنيا ، فهذه المكرمة لكم ، ولا حاجة لنا في شرف الدنيا ولا في فخرها ، ولا في شيء يباعدنا من ربنا ، وإن زعمتم أن هذه المجالس والدنيا التي في أيدي عظمائكم - فأنتم بها مستأثرون على ضعفائكم - مكرمة لمن كانت في يديه منكم عند الله ، فهذا خطأ من قولكم ، وجور من فعلكم ، وإنه لا يدرك ما عند الله بالخطأ ، ولا بخلاف ما جاءت به الأنبياء صلوات الله عليهم عن الله من الزهادة في الدنيا ، وأما قولكم ، إن جلوسي على الأرض متحيا صنيع العبد بنفسه ، ألا فصنيع العبد بنفسه صنعتُ ، وأنا عبد من عبيد الله جلست على بساط الله ، ولا استأثر شيء من مال الله على إخواني من أولياء الله ، وأما قولكم أنني أزريت بنفسي ، فإن كان ذلك فإنما هو عندكم وليس ذلك عند الله كذلك ، فلست أبالي كيف كانت منزلتي عندكم إذا كانت عند الله على غير ذلك ، وإن قلتم إنما دخل على ذلك عباد الله فقد أخطأتم خطأ بينا لأن أحبَّ عباد الله إليه المتواضعون لله ، القريبون من عباد الله الذين لا يشغلون أنفسهم بالدنيا ، ولا يدعون التماس نصيبهم من الآخرة .

قال ، فلما فسر هذا الترجمان لهم نظر بعضهم إلى بعض ، وتعجبوا مما سمعوا منه ، وقالوا لترجمانهم : قل له ، أنت أفضل أصحابك؟

فقال معاذ : عند الله معاذ الله أن أقول ذلك ، وليتني لا أكون

شرهم .

قال : فسكتوا عنه ساعة ، لا يكلمونه ، وهم يتكلمون فيما بينهم ،
فلما احتبسوا عنه لا يكلمونه قال لترجمانهم : قل لهم إن كانت لهم
حاجة في كلامي ، وإلا انصرف عنهم .

فقال لهم الترجمان ذلك ، فأقبلوا عليه ، فقالوا للترجمان : قل له ،
أخبرونا ما تطلبون ، وإلى ما تدعون إليه ، وما أدخلكم بلادنا وتركتم
أرض الحبشة ، وليسوا منكم ببعيد ، وتركتم أرض فارس ، وقد هلك
ملك فارس ، وهلك ابنه ، وإنما تملكهم اليوم النساء ، ونحن ملكنا
حيّ ، وجنودنا عظيمة كثيرة ، وإن افتتحتم من مدائننا مدينة أو من قرانا
قرية ، أو من حصوننا حصنا ، أو هزمتم لنا عسكريا ، أظنتم أنكم قد
ظفرتم بجماعتنا ، وأنكم قد قطعتم حربنا عنكم ، أو فرغتم مما وراءنا منّا
ونحن عدد السماء وحصى الأرض ؟ ، وأخبرونا لم تستحلّون قتالنا
وأنتم تؤمنون بنبيّنا وكتابنا ؟

فلما قالوا هذا القول ، وفسّره الترجمان لمعاذ سكتوا ، فقال معاذ
لترجمان : قد فرغوا ؟ قال له : نعم .

قال : فأفهمهم عني أن أول ما أنا ذاكر حمد الله الذي لا إله إلا هو ،
والصلاة على محمد نبيه ﷺ وأن أول ما أدعوكم إلى الله أن تؤمنوا بالله
وحده ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم ، وأن تصلّوا صلاتنا ، وتستقبلوا
قبلتنا ، وأن تستنّوا بسنة نبيّنا ﷺ وتكسروا الصليب ، وتجتنبوا شرب
الخمير ، وأكل لحم الخنزير ، ثم أنتم منا ونحن منكم ، وأنتم إخواننا في
ديننا ، لكم ما لنا ، وعليكم ما علينا ، وإن أبيتم فأدّوا الجزية إلينا في كل
عام وأنتم صاغرون ، ونكفّ عنكم ، وإن أنتم أبيتم هاتين الخصلتين

فليس شيء مما خلق الله عز وجل نحن قابلوه منكم ، فابرزوا إلينا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ، فهذا ما نأمركم به ، وما ندعوكم إليه .

وأما قولكم ما أدخلكم بلادنا وتركتم أرض الحبشة وليسوا منكم ببعيد ، وتركتم أرض فارس وقد هلك ملكهم ، فإني أخبركم عن ذلك ، ما بدأنا بقتالكم إلا أنكم أقرب إلينا منهم ، وأنكم عندنا جميعاً بالسواء ، وما جاءنا كتابنا بالكف عنهم ، ولكن الله عز وجل أنزل في كتابه على نبينا ﷺ ، فقال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ ^(١) وكنتم أقرب إلينا منهم ، فبدأنا بكم لذلك ، وقد أتاهم طائفة منا وهو يقاتلونهم ، وأرجو أن يظفرهم الله ويفتح عليهم وينصرهم .

وأما قولكم إن ملكنا حي وأن جنودنا عظيمة ، وأنا عدد نجوم السماء وحصى الأرض وتؤيسوننا من الظهور عليكم فإن الأمر في ذلك ليس إليكم ، وإنما الأمور كلها إلى الله ، وكل شيء في قبضته ، فإذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، وإن يكن ملككم هرقل فإن ملكنا الله عز وجل الذي خلقنا ، وأميرنا رجل منا ، إن عمل فينا بكتاب ديننا وسنة نبينا ﷺ أقررناه علينا ، وإن عمل بغير ذلك عزلناه عنا ، وإن هو سرق قطعنا يده ، وإن زنا جلدناه ، وإن شتم رجلاً منا شتمه كما شتمه ، وإن جرحه أقاده من نفسه ، ولا يحتجب منا ، ولا يتكبر علينا ولا يستأثر علينا في فيثنا الذي أفاء الله علينا ، وهو كر رجل منا .

(١) سورة التوبة الآية ١٢٣ .

وأما قولكم جنودنا كثيرة ، فإنها وإن عظمت وكثرت حتى تكون أكثر من نجوم السماء وحصى الأرض فإننا لانتق بها ولانتكل عليها ولا نرجو النصر على عدونا بها ^(١) ، ولكننا نتبرأ من الحول والقوة ، ونتوكل على الله عز وجل ، ونثق بربنا ، فكم من فئة قليلة قد أعزها الله ونصرها وأغناها وغلبت فئة كثيرة بإذن الله ، وكم من فئة كثيرة قد أذلها الله وأهانها وقال تبارك وتعالى ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ^(٢) .

وأما قولكم ، كيف تستحلون قتالنا وأنتم تؤمنون بنبينا وكتابنا ، فأنا أخبركم عن ذلك ، نحن نؤمن بنبينا ، ونشهد أنه عبد من عبيد الله ، وأنه رسول من رسل الله ، وأن مثله عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ثم قال له : كُنْ ، فيكون ، ولانقول إنه الله ، ولانقول إنه ثاني اثنين ولا ثالث ثلاثة ، ولا أن له صاحبة ولا ولدا ، ولا أن معه آلهة أخرى ، لا إله إلا هو ، تعالى عما تقولون علوا كبيرا ، وأنتم تقولون في عيسى قولا عظيما ، فلو أنكم قلتم في عيسى كما نقول ، وآمنتم بنبوة نبينا ﷺ كما تجدونه في كتابكم ، وكما نؤمن نحن بنبينا ، وأقررتم بما جاء به من عند الله ، ووحدتم الله ما قاتلناكم ، بل كنا نسالكم ونواليكم ونقاتل معكم عدوكم .

قال : فلما فرغ معاذ من خطابه قالوا له : ما نرى ما بيننا وبينك إلا متباعدة وقد بقيت خصلة نحن نعرضها عليكم ، فإن قبلتموها منا فهو خير لكم وإن أبيتم فهو شر لكم ، نعطيكم البلقاء وما إلى أرضكم من سواد الأرض وتنحوا عن بقية أرضنا وعن مدائننا ، ونكتب عليكم كتاباً

(١) يعني إن كنتم تعتمدون على كثرة الجنود فلسنا كذلك .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٤٩ .

نسَمَّى فيه خياركم وصلحاءكم ، ونأخذ عهدكم ومواثيقكم على ألا تطلبوا من أرضنا غير ما صالحناكم عليه ، وعليكم بأهل فارس فقاتلوهم ونحن معكم نعينكم عليهم حتى تقتلوهم وتظهروا عليهم .

فقال معاذ : هذا الذي عرضتم علينا وتعطونا كله في أيدينا ، ولو أعطيتمونا جميع ما في أيديكم مما لم نظهر عليه ، ومنعتمونا خصلة من الخصال الثلاث التي وصفت لكم مافعلنا .

فغضبوا عند ذلك ، وقالوا نتقرب إليك وتتباعد عنا ؟ اذهب إلى أصحابك ، فوالله إنا لنرجو أن نفرقكم في الجبال غداً .

فقال معاذ : أما الجبال فلا ، ولكن والله لتقتلنا عن آخرنا أو لنخرجنكم من أرضكم أذلة وأنتم صاغرون .

وانصرف معاذ إلى أبي عبيدة ، فأخبره بما قالوا وبما رد عليهم ^(١) .

فهذه المحاورة فيها مواقف عالية منها : وقوف معاذ رضي الله عنه من مظاهر الترف والخيلاء موقف العزة والإباء حيث أبى أن يجلس معهم في مجالسهم الوثيرة التي تكاد تخلب الأبصار بمنظرها الباهر ، واعتبر تلك الفرش من الإسراف والخيلاء اللذين جاء النهي عنهما في الإسلام ، إضافة إلى أن تلك المظاهر الغالية الثمن مما استأثر به كبراء الروم على ضعفائهم ، فاختص بهذه المظاهر طبقات معينة على حساب الضعفاء الذين أرهقتهم الضرائب من أجل رفاهية تلك الطبقات ، ولقد كانت هذه الإشارة من معاذ كافية لإثارة العامة الذين سلبت حقوقهم من أجل تحقيق مستوى أعلى من الرفاهية لفئة معينة من الناس .

(١) فتوح الشام / ١١٥ - ١٢١ .

وحينما وصفوه بأنه قد احتقر نفسه لما جلس على الأرض أبان لهم بأن رفعة الإنسان إنما تكون بارتفاع منزلته عند الله تعالى ، وليس عند البشر المنحرفين عن منهج الله جل وعلا .

لقد قالوا هذا الكلام وعقلاؤهم يفهمون سر عظمة المسلمين ، وأن سبب جرأتهم على الأم الكبرى وتفوقهم عليهم في القتال راجع إلى تحليلهم جميعاً بمكارم الأخلاق ونظرهم إلى معالي الأمور ، من الزهد بمتاع الدنيا ، والتواضع والعفة ، والكرم والعدل في الحكم والورع عن حقوق الناس ، وفوق ذلك صلتهم القوية بالله تعالى وقربهم منه واعتصامهم به ، ولقد سبق بيان اعتراف بعض كبارهم بذلك للمسلمين ويأسهم من الانتصار عليهم لتفوقهم عليهم في مجال الأخلاق .

ومن أفضل ما بين معاذ لزعماء الروم أنهم إذا كانوا يعتزون بملكهم وبما له من القوة والرفعة فإن ملك المسلمين هو الله عز وجل الذي يملك السموات والأرضين ومن فيهن ، فهو جل وعلا الذي يعظمه المسلمون ويقدسونه وحده ، فأما أميرهم فإنه كرجل منهم له ما للمسلمين وعليه ماعليهم ، وهو مثلهم محكوم بشريعة الإسلام لا يمكن أن يتجاوزها .

وكذلك رده على اعتزازهم بكثرة جنودهم حيث أبان لهم أن العبرة ليست بكثرة العدد ولا بقوة العدد وإنما العبرة بمقدار ما تُحظى به الأمة من الصلة بالله تعالى والتوكل عليه .

ومن أروع ما أجابهم به بيان أن المؤمنين لا يفرون أبداً من المعركة ، فإما أن يقتلوا عن آخرهم أو يستصروا على أعدائهم ويذلّوهم ، وفي هذا تهديد بليغ لهم يجعلهم ينهزمون نفسياً قبل دخول المعركة .

وهنا انتهت هذه المحاوراة الشَّيْقَة التي أظهر بها معاذ رضي الله عنه
عزة الإسلام والمسلمين ، وبين أنهم ليسوا طلاب دنيا حتى يقبلوا
بأنصاف الحلول ، وإنما قَدَّمُوا الهدف واضح بيَّنه لهم نبينهم ﷺ وبين لهم
المنهج الذي يسرون عليه للوصول إلى هذا الهدف ، فهم ملتزمون به
لا يحيدون عنه في أي مكان وزمان ، في حال القوة أو في حال الضعف ،
وأنهم مستعدون لأن يموتوا جميعاً في سبيله .

محاورة أبي عبيدة مع رسول الروم :

قال أبو إسماعيل محمد الأزدي في سياق روايته : فإنهم كذلك إذ
بعثوا إلى أبي عبيدة رجلاً يخبره عنهم ، قالوا : إنك بعثت إلينا رجلاً
لا يقبل النِّصْف ، ولا يريد الصلح ولا ندري أعن رأيك ذلك أم لا ، وإنا
نريد أن نبعث إليك رجلاً منا يعرض عليك النصف ، ويدعوك إلى
الصلح ، فإن قبلت ذلك منه فلعل ذلك يكون خيراً لك ولنا ، وإن أبيت
فلا نراه إلا شراً لك .

فقال أبو عبيدة : فابعثوا من شئتم .

فبعثوا إليه رجلاً طويلاً أحمر ، أزرق (العينين) فأقبل حتى أتى أبا
عبيدة ، فلما دنا من المسلمين لم يعرف أبا عبيدة من أصحابه ، ولم يدر
أفيهم هو أم لا ، ولم يُرْهبه مكان أمير^(١) ، فقال لهم : يامعشر العرب ،
أين أميركم ؟

فقالوا : ها هو ذا ، فنظر فإذا هو بأبي عبيدة جالس على الأرض
وهو مُتَنَكِّب القوس ، وفي يده أسهم ، وهو يقلبها .

(١) أي لم ير مظاهر الإمارة التي تبعث على الرهبة .

فقال له الرسول : أنت أمير هؤلاء القوم ؟ قال : نعم .

قال : فما يجلسك على الأرض ؟ أرايت لو كنت جالساً على وسادة أو كان تحتك بساط ، أو كان ذلك واضعك عند الله أو مانعك من الإحسان ؟

قال أبو عبيدة : إن الله لا يستحي من الحق ، ولأصْدُقُنَّك عما قلت ، ما أصبحت أملك ديناراً ولا درهماً وما أملك إلا فرسي وسلاحي وسيفي ، ولقد احتجت أمس إلى نفقة فلم يكن عندي حتى استقرضت من أخي هذا نفقة كانت عنده - يعني معاذاً - فأقرضنيها ، ولو كان عندي أيضاً بساط أو وسادة ما كنت لأجلس عليه دون إخواني وأصحابي ، وأجلس أخي المسلم الذي لا أدري لعله عند الله خير مني على الأرض ، ونحن عباد الله نمشي على الأرض ، ونجلس على الأرض ، ونأكل على الأرض ، ونضطجع على الأرض ، وليس ذلك بناقصنا عند الله شيئاً ، بل يعظم الله به أجورنا ، ويرفع درجاتنا ، ونتواضع بذلك لربنا ، هات حاجتك التي جئت بها .

فقال له الرومي : إنه ليس شيء أحب إلى الله من الإصلاح ، ولا شيء أبغض إليه من البغي والفساد ، وإنكم قد دخلتم بلادنا فظهر منكم فيها الفساد والبغي ، ويقال ، ما بغى قوم وأفسدوا في الأرض إلا أهتمهم الله بهلاك ، وأنا أعرض عليكم أمراً لكم فيه حظ إن قبلتموه ، نحن نعطيكم دينارين ، وثوباً ثوباً ، ونعطيك أنت ألف دينار ، ونعطي الأمير الذي فوقك يعنون عمر ألفي دينار ، وتنصرفون عنا ، وإن شئتم أعطيناكم أرض البلقاء ، وما والى أرضكم من سواد الأردن ، وخرجتم من مدائننا وأرضنا وبلادنا ، وكتبنا فيما بيننا وبينكم كتاباً يستوثق فيه بعضنا من بعض بالآيمان المغلظة ، ليقومون به وليقين بما عاهد الله عليه .

قال : فحمد الله أبو عبيدة ، وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على النبي ﷺ ثم قال : إن الله بعث فينا رسولا نبيا ، وأنزل عليه كتابا حكيمًا ، وأمره أن يدعو الناس إلى عبادة ربهم ، رحمة منه للعالمين ، وقال لهم : فإن الله إله واحد ، عزيز حكيم ، عليّ مجيد ، وهو خالق كل شيء ، وليس كمثله شيء ، وأمرهم أن يوحدوا الله الذي لا إله إلا هو ، ولا يتخذوا له صاحبة ولا ولدا ، ولا يتخذوا معه آلهة أخرى ، وأن كل شيء يعبده الناس دونه فهو خلقه ، وأمرنا ﷺ ، فقال : إذا أتيتم المشركين فدعوهم إلى الإيمان بالله وبرسوله ، وبالإقرار بما جاء من عند الله عز وجل ، فمن آمن وصدق فهو أخوكم في دينكم ، له مالكم وعليه ما عليكم ، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية حتى يؤدوها عن يد وهم صاغرون ، فإن أبوا أن يؤمنوا أو يؤدوا الجزية فاقتلوهم وقاتلوهم فإن قتلكم المحتسب بنفسه شهيد عند الله ، وهو في جنات النعيم ، وقتل عدوكم في النار .

فإن قبلتم ما سمعتم مني فهو لكم ، وإن أبيتم ذلك فابرزوا إلينا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين .

فقال الرومي : قد أبيتم إلا هذا ؟ فقال له أبو عبيدة : نعم ، فقال له الرومي : أما والله على ذلك ، إني لأراكم تتمنون أنكم قبلتم منا دون ما عرضنا عليكم .

فانصرف الرومي وهو رافع يديه إلى السماء ، وهو يقول : اللهم إنا قد أنصفناهم ، فأبوا علينا ، اللهم فانصرنا عليهم ^(١) .

(١) فتوح الشام / ١٢٢ - ١٢٤ .

وبعد : فإن في هذه المحاوراة البليغة مواقف عالية : منها ما قام به أبو عبيدة عامر بن الجراح من بيان جملة من مكارم الأخلاق لذلك الرومي الموفد إليهم ، وذلك حينما اعترض على جلوسه على الأرض وهو أمير ، فأبان له أبو عبيدة أن من مظاهر السمو الأخلاقي عند الإنسان أن يتصف بالتواضع والعفة والمواساة ، وأن هذه الأخلاق لا تتنافى مع الإمارة ، بل هي من دعائم قوتها وثباتها ، ومن الدلائل على رجاحة عقل المتصف بها وسداد رأيه .

ومنها جوابه على عروض المساومة التي تقدم بها مندوب الروم ، حيث بين له الهدف الأعلى الذي بعث الله تعالى به نبيه محمداً ﷺ وهو أن يعبد الناس ربهم جلا وعلا وحده لا شريك له فإن وحدوا الله تعالى ودخلوا في الإسلام فهم إخوة للمسلمين وإن أبوا فليدفعوا الجزية التي تعني خضوعهم للمسلمين مقابل تمتعهم بحماية دولة الإسلام ، فإن أبوا فلا بد من قتالهم ، على أن مما يقوي المسلم ويسلّيه أنه من قُتل فهو إلى جنات النعيم ، ومما يضعف الكافر ويحسرّه أنه إن قُتل فإلى الجحيم ، فكيف يرضي عاقل لنفسه بالحرمان من الجنة والخلود في النار .

ومع هذا الوضوح الذي بينه أبو عبيدة فإن ذلك الرومي لم يستخدم شيئاً من عقله وفكره ليَزن به كلام أبي عبيدة فيعرف هل هو حق أم باطل ، وإنما الذي كان مهيمناً عليه هو بيان المهمة التي جاء من أجلها وهي الدعوة إلى الصلح أولاً ثم التهديد بقوة الروم ثانياً إن لم ينجح الصلح .

وهكذا تكون عبودية البشر للبشر حيث يلغي الأتباع عقولهم ، ويحصرّون تفكيرهم على النجاح في أداء المهمة التي كلفهم بها سادتهم .

وصف المعركة :

لما انتهت مفاوضات الروم قال أبو عبيدة : أصبحوا أيها المسلمون وأنتم تحت راياتكم وعلى مصافكم .

وزحف المسلمون إليهم ، وتعرض فرسان المسلمين للروم ولكن الروم ظلوا في معسكرهم ذلك اليوم ، ولا يستطيع المسلمون الوصول إليهم من أجل الوحل الذي صنعوه بينهم وبين المسلمين .

ثم خرج إليهم فرسان المسلمين بقيادة خالد وبقي المشاة مع أبي عبيدة في فحل وقد أخرج الروم فرسانهم فأمر خالد قيس بن هبيرة في مجموعة من فرسان المسلمين بأن يهاجموهم فهاجمهم قيس فهزمهم وفرقهم . ثم أخرج الروم طائفة أخرى من الفرسان فأمر خالد ميسرة بن مسروق بالخروج إليهم فخرج في مجموعة أخرى فهزمهم .

ولما رأى الروم ذلك أخرجوا لهم عدداً كبيراً من الفرسان بقيادة قائد من عظمائهم ، فقسم فرسانه قسمين ، وأرسل قسماً نحو خالد بن الوليد فصمد لهم بفرسانه ولم يتزحزح ، ثم أرسل قائدهم القسم الآخر نحو خالد أيضاً فصمد لهم .

ولما رأى خالد قوة معنوية المسلمين وتضعضع فرسان الروم قال لفرسانه : إنه لم يبق من جد القوم ولا حدهم ولا قوتهم إلا ما قد رأيتم فاحملوا معي بأهل الإسلام حملة واحدة واتبعوهم ولا تغفلوا عنهم رحمكم الله .

وحمل خالد بمن معه فاكتسح من أمامه منهم ، ثم حمل قيس بن هبيرة على الذين أمامه منهم فكشفهم ، وحمل ميسرة بن مسروق

العبيسي على الذين أمامه فهزمهم ، واتبعهم المسلمون يقتلون منهم وقد اختل نظامهم حتى اضطروهم إلى الانسحاب إلى عسكرهم .

وأراد خالد أن يغتنم فرصة ارتفاع معنوية المسلمين وانحطاط معنوية الروم فقال لأبي عبيدة : إن هزيمتنا خيل المشركين قد دخل رعبها قلوب جماعتهم ، فكلهم قلبه مرعوب متخوف لمثلها منا مرة أخرى فناهض هؤلاء القوم غداً بالغداة مادام رعب الهزيمة في قلوبهم ، فإنك إن أخرت قتالهم أياما ذهب رعب هذه الهزيمة من قلوبهم ونسوها واجترؤوا علينا .
قال أبو عبيدة : فانهضوا على بركة الله غداً بالغداة .

وقام أبو عبيدة بتعبية جيشه في الثلث الأخير من الليل ، وجعل على ميمته معاذ بن جبل وعلى ميسرته هاشم بن عتبة ، وعلى المشاة سعيد بن زيد ، وعلى الفرسان خالد بن الوليد .

ثم وعظ أبو عبيدة المسلمين مواعظ بليغة منها قوله : كونوا عباد الله أولياء الله ، وارغبوا فيما عند الله أشد من رغبتكم في الدنيا ، ولا تواكلوا فتخاذلوا ، وليُغْنِ كل رجل منكم قرْنه ، وأقدموا إقدام من يريد بإقدامه ثواب الله ، ولا يكن من لقيكم من عدوكم أصبر على باطلهم منكم على حقكم .

وهكذا أمر أبو عبيدة المسلمين بأن يتولوا الله تعالى وذلك بنصرة دينه ، وأن تكون قلوبهم حاضرة مع مستقبلهم الأخروي ، ونهاهم عن التواكل لأن المتواكل قد أهدر جزءاً من طاقته اعتماداً على وقوف إخوانه ، وأوصى كل رجل معه زميل أن يغني زميله ببذل كل طاقته بدلاً من أن يعتمد على زميله ، كما حثهم على الإخلاص لله تعالى في جهادهم

حتى يحصلوا على ثواب المخلصين ويكون عطاؤهم في القتال أقوى وأبلغ ، ثم يبين أن من النقص المشين والخسارة الفادحة أن يكون أهل الباطل أصبر على حماية باطلهم من أهل الحق على حقهم .

ثم نهض أبو عبيدة بالمسلمين إلى الروم يمشي ونهض المسلمون معه تحت راياتهم بسكينة وبصيرة ودعة وحسن رعة^(١) .

وصنع الله للمسلمين ما لم يكن في حسابهم وأخرج الروم لهم من مكانهم الحصين ، وذلك أن « سقلار » قائد الروم أراد أن يغتتم الفرص كما يصنع قواد المسلمين ، فبادر إلى تعبئة جيشه ليهجم على معسكر المسلمين ظناً منه أنهم نيام وأنهم لا يفكرون في عبور النهر إليهم ، فلما تجاوز بجيشه منطقة الأوحال وأشرف على النهر لم يفاجأ إلا بجيش المسلمين يعبر النهر وكان النهر ضحلاً لا يعوق السير ، فكان لا بد للروم من اللقاء والمواجهة .

ولما رأى الروم ضعف مستوى الأداء لفرسانهم وخيولهم أمام فرسان وخيول المسلمين ابتكروا حيلة لرفع مستوى فرسانهم فجعلوا في صحبة كل فارس رجلاً رامياً وآخر يحمل رمحاً ، وهذا يعني أنه إذا واجه فارسهم فارساً من المسلمين تصدى له الرامي فإذا أفلت منه قد لا يفلت من حامل الرمح .

وكان خالد قد تقدم بالفرسان ومعه مساعداه قيس بن هبيرة وميسرة ابن مسروق ، فلما رأى مكيدة الروم تراجع بفرسانه قليلاً حتى لصق بجيش المسلمين من المشاة ، وهو يفكر بحيلة يُخرج بها فرسان المسلمين من هذا المأزق .

(١) فتوح الشام / ١٢٨ - ١٣٥ .

وهذاه الله لذلك ، فقد رأى أن فرسان الروم مُترَكِّزون في قلب جيشهم ، وميمنتهم وميسرتهم من المشاة . ولم يكونوا بحاجة إلى صف خيولهم على طول جيشهم لأن جيشهم أضخم بكثير من جيش المسلمين .

وكان فرسان المسلمين مُقسَّمين إلى ثلاثة أقسام : قسم بقيادة خالد نفسه ، وقسم جعل عليهم خالد قيس بن هبيرة ، وقسم جعل عليهم ميسرة بن مسروق ، فلما رأى خالد ما فعل الروم بفرسانهم أمر قيس بن هبيرة أن يذهب بفرسانه إلى ميسرة الروم فيغير على مشاتهم ، وأمر ميسرة بأن يبقى في قلب جيش المسلمين ، وذهب هو إلى ميمنة الروم ليغير علي مشاتهم ، وهدفه من ذلك أن يستدرج فرسان الروم للدفاع عن مشاتهم فيتجردوا بذلك من حماتهم من الرماة وحاملي الرماح ، وفعلا انطلقت طائفة من فرسان الروم إلى ميمنتهم وطائفة أخرى إلى ميسرتهم متجردين من حماتهم ، فقال خالد : الله أكبر أخرجهم الله لكم من رجالتهم شدوا عليهم .

ونجحت مكيدة خالد ، وباءت مكيدتهم بالفشل ، وشد عليهم خالد من جهة وقيس من الجهة الأخرى ، حتى صرعوا عدداً كبيراً من فرسانهم وقد انتقضت صفوف الروم من قبل خالد وقيس وبقي قلب الروم ، وقد هجم عليهم جيش المسلمين بفرسانهم ومشاتهم وثبت لهم الروم مدة ثم انهزموا أمامهم .

وقد ذكر الرواة أن هذه المعركة من أعنف المعارك التي خاضها المسلمون ، وقد كان عدد المسلمين في حدود ستة وعشرين ألفاً إلى ثلاثين ألفاً وعدد الروم مابين خمسين ألف وثمانين ألف على اختلاف الرويات ،

والفرق ليس كبيراً جداً بالنسبة لما أُلْفَه المسلمون من كثرة عدد أعدائهم ، وإنما كان مرجع ثبات الروم بعض الوقت وشدة قتالهم لكونهم منتخبين من أشداء الروم وذوي البأس فيهم ، ومع ذلك لم يستطيعوا الوقوف للمسلمين إلا ساعات من نهار ثم انهزموا .

وقد أسلمتهم هزيمتهم مع الليل إلى الأوحال التي صنعوها لتحول بينهم وبين هجوم المسلمين فشاء الله أن تكون سبباً في هلاكهم فقد تورطوا فيها وهم ينسحبون فتصيدهم المسلمون فيها بالرماح ولم ينج منهم إلا قليل (١) .

ومما يصور شدة المعركة وضراوتها ما أخرجه الأزدي من خبر سالم بن ربيعة قال : حمل ميسرة بن مسروق (٢) يومئذ ونحن معه في الخيل ، فحملنا على القلب ، وقد أخذ صف الروم ينتقض من قبل ميسرتهم وميمتهم ، ولم ينته الانتقاض إلى القلب ، فثبتوا لنا وقاتلونا قتالاً شديداً ، فصرع ميسرة عن فرسه ، وصرعُ معه ، وخرج فرسي فعاد ، ويعتق ميسرة رجلاً من الروم فاعتركا ساعة فصرعه ميسرة فقتله ، ثم شد آخر على ميسرة فعانقه واعتركا ساعة فصرع ميسرة وجلس على صدره وشد عليه ، فضربت وجه الرومي بالسيف فأطرت قحف رأسه ووقع ميتاً ، ووُثب ميسرة .

وأقبل إليَّ رجل منهم فضربني ضربة أدارني منها ، وبصر به ميسرة

(١) انظر فتح الشام للأزدي / ١٢٨ - ١٣٣ ، تاريخ الطبري ٣ / ٤٤٢ - ٤٤٣ .

(٢) هو ميسرة بن مسروق العبسي رضي الله عنه أسلم قديماً ورسول الله ﷺ بمكة .

فضربه فقتله ، وركبنا منهم عدد كثير فأحاطوا بنا وظننا والله أنه الهلاك ، إذ نظرنا فإذا نحن نسمع نداء المسلمين وتكبيرهم ، وإذا صفوفهم قد قربت منا ، وإذا الرايات قد غشيتنا ، فشدَّ الله ظهورنا بإخواننا فانقشعوا عنا .

وحمل عليهم خالد بن الوليد على ميمتهم فدقَّ بعضهم على بعض حتى دخلوا عسكرهم (١) .

ومن ذلك ما أخرجه الأزدي من خبر ثابت بن سهل بن سعد قال : كان معاذ بن جبل يومئذ من أشد الناس علينا حرصاً ، وأمضاهم في رقاب الروم سيفاً ، فبينما هو يحارب في ميمنة المسلمين إذا أقبلت جنود الروم تحوط عسكر المسلمين ، فبرز إليهم معاذ بن جبل في رجاله ونادى فقال : أيها الناس اعلموا - رحمكم الله - أن الله قد وعدنا بالنصر ، وأيدكم بالإيمان ، فانصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ، واعلموا أن الله معكم ، وناصركم على عبدة الأوثان (٢) .

مواقف جهادية :

هذا وقد كان لبعض قادة المسلمين وأبطالهم مواقف عالية في هذه المعركة الضاربة ، فمن ذلك ما رواه محمد بن عبد الله الأزدي من خبر عبد الملك بن نوفل بن مساحق عن أبيه : أن خالداً قاتل يومئذ قتلاً شديداً ، ما قاتل مثله أحد من المسلمين ، وما كان إلا حديثاً ومثلاً لمن

(١) فتوح الشام / ١٣٥ - ١٣٦ .

(٢) فتوح الشام / ١٣٧ .

حضره ، ولقد كان يستعرض صفوفهم وجماعتهم فيحمل عليهم حتى يخالطهم ، ثم يجالدهم حتى يفرّقهم ويهزمهم ويكثر القتل فيهم .

قال : وسمعت من يزعم أنه قتل في ذلك اليوم أحد عشر رجلاً من بطارقتهم وأشدائهم وأهل الشجاعة منهم ، وكان يقاتلهم ويقول :

أضربهم بصارم مُهنّد ضرب صليب الدين هاد مُهنّد

لا واهن القول ولا مُفنّد (١)

وسياّتي زيادة تنويه بجهاده في خبر هاشم بن عتبة .

ومن ذلك ما أخرجه الأزدي من خبر ربيعة العنزي عن هاشم بن عتبة قال : والله لقد كنا يومئذ أشفقنا على خيلنا أول النهار ، ثم إن الله نصرنا عليهم ، فما هو إلا أن رأينا خيلنا قد نصرها الله على خيلهم فدعوت الناس إليّ وأمرتهم بتقوى الله وهزرت رايتي ، ثم قلت : والله لا أردّها حتى أركزها في صفهم فمن شاء فليتبعني ومن شاء فليتحلف عني .

قال : فوالله الذي لا إله إلا هو ما أعلم أن أحداً من أصحاب رايتي تحلف عني حتى انتهيت إلى صفهم ، فنضحونا بالنشاب فجثونا على الركب واتقيناهم بالدّرّق (٢) ، ثم دنوت بلوائي وقلت لأصحابي : شدوا عليهم أنا فداؤكم ، فإنها غنيمة الدنيا والآخرة ، فشددت وشدوا معي ، فاستقبلت عظيمًا منهم وقد أقبل نحوي فأوجزته الرمح (٣) فخر ميتا ، وضاربناهم بالسيوف ساعة في صفهم .

(١) فتوح الشام / ١٣٦ .

(٢) أي التروس التي يتّقى بها المحارب .

(٣) أي أسرعت إليه بالرمح .

قال : وحمل عليهم خالد بن الوليد من قبل ميسرتهم ، فقاتلهم قتالا شديداً سريعاً ذريعاً ، وانتقضت صفوف الروم من قبل خالد ومن قبلي ، ونهد إليهم أبو عبيدة بالرجالة والناس (١) .

ومن ذلك ما رواه الأزدي من خبر يحيى بن هانئ بن عروة المرادي : أن قيس بن هبيرة قطع يومئذ ثلاثة أسياف ، وكسر بضعة عشر رمحاً وكان يقاتل ويقول :

لَا يَبْعُدَنَّ كُلَّ فِتْي كَرَّارٍ مَاضِي الْجَنَانِ خَشَنَ صَبَارٍ
حَبَوْتُهُمْ بِالْخَيْلِ وَالْأَدْبَارِ (٢) تُقَدِّمُ إِقْدَامَ الشَّجَاعِ الضَّارِي
ومن ذلك ما أخرجه الأزدي من خبر عبد الله بن قُرْطُ الثَّمَالِي قال : وكان وائلة بن الأسقع في خيل ابن هبيرة ، فعرض له بطريق من كبارهم فبرز له وائلة وهو يقول في حملته :

لَيْثٌ وَلَيْثٌ فِي مَجَالِ ضَنْكَ كَلَاهِمَا ذُو أَنْفٍ وَمَعَكُ (٣)
أَجُولُ جَوْلَ صَارِمٍ فِي الْعَرْكِ أَوْ يَكْشِفُ اللَّهُ قَنَاعَ الشَّكِّ
مَعَ ظَفَرِي بِحَاجَتِي وَتَرَكِي
ثم حمل على البطريق فضربه ضربة فقتله (٤) .

ومما ينبغي الإشارة إليه أن المؤرخين لم يسجلوا جميع المواقف التي

(١) فتوح الشام / ١٣٣ - ١٣٤ .

(٢) لعله أراد الموت .

(٣) الأتف الإباء ، والمعك لى الخصم وغلبته .

(٤) فتوح الشام / ١٣٣ .

جرت من المسلمين آنذاك ، وإنما كانوا يكتفون بذكر بعض المواقف البارزة ، وينبغي أن نعلم بأن جميع الذين شهدوا هذه المعارك من المسلمين قد بذلوا جهوداً كبيرة من طاقتهم ، ولم يكونوا ينتظرون ثناءً من أحد لأنهم إنما يريدون وجه الله تعالى .

وإنما نقل الرواة ما حدثت به بعض من شاهدوا هذه المعارك . وعلى سبيل المثال نجد أن القعقاع بن عمرو الذي كان من البارزين في حرب العراق وكان الرواة هناك ينقلون أخباره قد شارك في كثير من حروب الشام حيث قدم مع خالد ، ولكن لم يُذكر إلا مواقف قليلة ، وقد شهد هذه المعركة وكان له فيها أشعار سُجِّلت ومنها قوله :

وغداة فحل قد رأوني مُعلماً	والخيل تَحْطُ واليلاً أطوار
ما زالت الخيل العراب تدوسهم	في حوم فحل والهباء موار
حتى رمين سراتهم عن أسرهم	في ردغة مابعدا استمرار
يوم الرِّدَاغ بُعِيد فحل ساعة	وخز الرماح عليهم مدرار
ولقد أبرنا في الرِّدَاغ جموعهم	طراً ونحوي تشخص الأبصار ^(١)

كتاب من أبي عبيدة لعمر :

وكتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما :
بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من أبي عبيدة بن الجراح ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو .
أما بعد فالحمد لله الذي أنزل على المسلمين نصره ، وعلى الكافرين

(١) تاريخ دمشق ٤٨٧/١ ، الطبعة الأولى .

رجزه ، أخبر أمير المؤمنين - أصلحه الله - أنا التقينا نحن والروم وقد جمعوا لنا الجموع العظام ، فجاءونا من رءوس الجبال وأطراف البحار ، وظنوا أنه لا غالب لهم من الناس ، فبرزوا لنا وبغوا علينا ، وتوكلنا على الله ورفعنا رغبتنا إليه ، وقلنا حَسْبُنَا الله ونعم الوكيل ، ونهضنا إليهم بخيلنا ورجالتنا ، وكان القتال بين الفريقين مَلَيَّانَ^(١) النهار ، أهدى الله فيه الشهادة لرجال من المسلمين ، منهم عمرو بن سعيد بن العاص ، وضرب الله وجوه المشركين ، واتبعهم المسلمون يقتلونهم ويأسرونهم ، حتى اعتصموا بحصونهم ، فأصاب المسلمون عسكرهم ، وغلبوا على بلدهم ، وأنزلهم الله من صياصيههم^(٢) ، وقد قذف في قلوبهم الرعب .

فاحمد الله يا أمير المؤمنين أنت ومن قبلك من المسلمين على إعزاز دينه ، وإظهار الفلج^(٣) على المشركين ، فادعوا الله لنا بتمام النعمة ، والسلام عليك^(٤) .

وهذا الكتاب مثل من أمثلة كثيرة تدل على اتصاف الصحابة رضي الله عنهم بالتوحيد الخالص ، وذلك بإرجاعهم كل الأمور إلى حول الله تعالى وقوته ، وشكره التام على نعمته جل وعلا .

وعلى هذا المنوال جاء كتاب أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه الذي يقول فيه :

(١) الملى الساعة الطويلة من النهار ، والمراد جزء منه .

(٢) الصياصي جمع صيصة وهي الحصن وكل ما امتنع به .

(٣) الفلج هو الظفر .

(٤) فتوح الشام / ١٣٩ - ١٤٠ .

بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين ، إلى أبي
عبيدة ابن الجراح ، سلام عليك ، فإنني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا
هو .

أما بعد فإنه بلغني كتابك تذكر إعزاز الله لأهل دينه ، وخذلان أهل
عداوته ، وكفايته إيانا مثونة من عادانا ، فالحمد لله على إحسانه إلينا فيما
مضى ، وحسن صنيعه لنا فيما غير ، الذي عافى جماعة المسلمين وأكرم
بالشهادة فريقاً من المؤمنين ، فهنئاً لهم برضاء ربهم وكرامته إياهم ،
ونسأله ألا يحرمنا أجرهم ولا يفتننا بعدهم ، فقد نصحوا لله وقضوا
ما عليهم ، ولربهم كانوا يعملون ولأنفسهم كانوا يهتدون ^(١) .

* * *

(١) فتوح الشام / ١٤١ .

٢ - حصار دمشق وفتحها -

لقد تم حصار دمشق ثلاث مرات : الأولى بعد وصول خالد بن الوليد رضي الله عنه من العراق ، حيث أصبح أميراً على الشام وانضم إليه أبو عبيدة بن الجراح بجيشه ، وقد قطع هذا الحصار تجمع الروم في أجنادين حيث ذهب خالد وأبو عبيدة وبقية القادة بجيوشهم وقاتلوا الروم في أجنادين في شهر جمادى الأولى من العام الثالث عشر ، ثم في مرج الصفر في شهر جمادى الثانية من العام الثالث عشر كما سبق .

والثانية : بعد معركتي أجنادين ومرج الصفر ، وفيها كانت وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه في شهر جمادى الثانية من العام الثالث عشر ، وفيها كان عزل خالد وتولية أبي عبيدة على الشام رضي الله عنهما .

والثالثة : بعد معركة فحل وهي الأخيرة ، وفيها تم فتح دمشق في شهر رجب من العام الرابع عشر للهجرة النبوية^(١) .

وبعد هذه المعركة الكبيرة غلب المسلمون على جميع بلاد الأردن ، وكانت نهاية هذه المعركة في آخر شهر ذي القعدة من العام الثالث عشر ، وبعد أن قام الجيش الإسلامي بإخضاع ما بقي من القرى والأرياف توجهوا إلى دمشق وعادوا مرة أخرى إلى حصارها .

وظل أبو عبيدة مرابطاً بجيشه عند باب الجابية غربي دمشق ، وخالد ابن الوليد عند الباب الشرقي ، ويزيد بن أبي سفيان عند الباب الصغير إلى باب كيسان جنوبي دمشق ، وعمرو بن العاص على باب توما شمالي

(١) انظر تحقيق ذلك في « الطريق إلى دمشق » لأحمد عادل كمال / ٣٥٧ .

دمشق ، وكذلك شرحبيل بن حسنة على باب الفراديس شمالي دمشق .

وقد طال حصار المسلمين لها لأنها كانت محصنة بسور عظيم مبني بالحجارة الضخمة ، وكان ارتفاعه ستة أمتار تقريباً ، وسماكته خمسة أمتار ، فكان من الصعب جداً افتتاحه بأي وسيلة آنذاك كما أن حول السور من خارجه خندقاً فيه ماء غزير ، فكان لابد لمن أراد الوصول أن يسبح في الماء .

وقد أغار المسلمون على ما حول دمشق ، وقطعوا جميع الإمدادات التي تصل إليها خاصة من طريق حمص حيث وجه أبو عبيدة جيشاً بقيادة ذي الكلاع الحميري ليصد أي إمداد يرسله الروم إلى دمشق وقد تصدى لجيش رومي جاء لهذا الغرض .

ولقد يئس الروم من الإمدادات ، ولكنهم كانوا ينتظرون بالمسلمين حلول فصل الشتاء لظنهم أنهم لن يستطيعوا البقاء في العراء مع شدة البرد .

ولقد كان حاكم دمشق الرومي يائساً من الانتصار على المسلمين من قبل حصارهم .

ومما جاء في هذا المعنى ما ذكره الحافظ ابن كثير رحمه الله من حديث الوليد بن مسلم قال : أخبرني من سمع يحيى بن يحيى الغساني يحدث عن رجلين من قومه قالوا : لما نزل المسلمون بناحية الأردن تحدثنا بيننا أن دمشق ستحاصر ، فذهبنا نتسوق منها قبل ذلك ، فبينما نحن فيها إذ أرسل إلينا بطريقها فجئناه ، فقال : أنتما من العرب ؟ قلنا : نعم ، قال : وعلى النصرانية : قلنا : نعم ، فقال : ليذهب أحدكما فليتجسس لنا عن

هؤلاء القوم ورأيهم ، وليثبت الآخر على متاع صاحبه ، ففعل ذلك أحدنا ، فلبث ملياً ثم جاءه فقال : جئتك من عند رجال دقاق يركبون خيولاً عتاقاً ، أما الليل فرهبان ، وأما النهار ففرسان ، يريشون النبل ويبرونها ، ويثقفون القنا ، لو حدثت جليسك حديثاً ما فهمه عنك لما علا من أصواتهم بالقرآن والذكر ، قال : فالتفت إلى أصحابه وقال : أتاكم منهم ما لا طاقة لكم به ^(١) .

وفي رواية أخرى لهذا الخبر ذكرها الحافظ ابن عساكر من خبر يحيى ابن يحيى الغساني عن هذين الرجلين قالاً : فبينما نحن على برج بابها الشرقي إذ نشب أصحاب خالد بن الوليد القتال ، ودنا رجل منهم في يده اليمنى السيف ، وفي يده اليسرى الدرة فنادى بالبراز ، فقال لنا : مايقول : قلنا : نقول إنه يدعو إلى المبارزة ، فأنزلوا جبشياً كالبعير مستائماً عليه سلاحه ، فتداني فضربه المسلم فقتله ، ثم نادى بالبراز فأنزلوا إليه صاحب بندهم ، أجلسوه على باب دكّوه ، فتداني فضربه المسلم فقتله ، ثم نادى بالبراز ، فقال : قل للشيطان يبارزك ^(٢) .

فهذا المجاهد البطل الذي لم يذكر اسمه قتل اثنين من أبطال الروم مبارزة ، ثم لما يئسوا من مبارزته قالوا تلك الكلمة التي تدل على اعترافهم بقوة المسلمين وعجزهم عن مقاومتهم مقاومة الند للند ، ومن المعروف أن المبارزة ترفع من معنوية الجيش الذي ينتصر مبارزوه ، بينما تهبط من معنوية الجيش الذي ينهزم مبارزوه ، ولذلك يُقدم عليها المسلمون كثيراً لثقتهم بأبطالهم .

(١) البداية ١٥/٧ ، تاريخ دمشق ٩٦/٢ .

(٢) تاريخ دمشق ١١٨/٢ .

وفي رواية أخرى لابن عساكر : فلما طال عليهم الحصار دسَّ بطريقهم عيوناً فجسُّوا عساكرهم وأمرأهم ، ثم عادوا إلى عظيمهم فسألهم بما جسُّوا ورأوا فقالوا : أما الليل فطول القيام وأما النهار فالخير الظاهر والحرص على الجهاد ، وإن وجد أحدهم نعلاً أو كبةً شعر أو غزل دفعها إلى صاحب المَقْسَم ، فإذا قال صاحب المقسم ، ما هذا ؟ قالوا : هذا ما لا نستحله إلا بحلِّه ، فلما سمع عظيم دمشق هذه القصة قال : مالنا بهؤلاء طاقة ولا لنا في قتالهم خير^(١) .

وفي هذه الرواية إضافة ، وهي وصف المسلمين بالأمانة حيث يسلّمون لصاحب الغنائم كل ما وجدوه وإن كان شيئاً حقيراً لا يؤبّه له .

وقد جاءت عدة روايات في بيان هذا الحصار وكيف تم الفتح بعد ذلك وإن من أمثل هذه الروايات وأوضحها ما أخرجه ابن جرير الطبري من رواية سيف بن عمر .

وقد جاء في هذه الرواية : فحاصروا أهل دمشق نحواً من سبعين ليلة حصاراً شديداً بالزحوف والتراخي والمجانيق ، وهم معتصمون بالمدينة يرجون الغياث ، وهرقل منهم قريب ، وقد استمدوا ، وذو الكلاع بين المسلمين وحمص على رأس ليلة من دمشق كأنه يريد حمص - وكان أبو عبيدة بعثه في جيش ليصد أمداد الروم - .

قال : وجاءت خيول هرقل مغيثة لأهل دمشق ، فأشجتها الخيول التي مع ذي الكلاع ، وشغلته عن الناس ، فأرزوا ونزلوا بإزائه ، وأهل دمشق على حالهم .

(١) تاريخ دمشق ١٢٣/٢ - ١٢٤ .

فلما أيقن أهل دمشق أن الأمداد لاتصل إليهم فشلوا ووهنوا وأبلسوا- يعني تحيروا - وازداد المسلمون طمعا فيهم ، وقد كانوا يرون أنها كالعارات قبل ذلك ، إذا هجم البرد قفل الناس ، فسقط النجم والقوم مقيمون ، فعند ذلك انقطع رجائهم ، وندموا على دخول دمشق ، وولد للبطريق - يعني قائد الروم - الذي دخل على أهل دمشق مولود فصنع عليه - يعني طعاما - فأكل القوم وشربوا ، وغفلوا عن موافقهم ، ولا يشعر بذلك أحد من المسلمين إلا ماكان من خالد فإنه كان لاينام ولاينيم ، ولا يخفى عليه شيء من أمورهم ، عيونه ذاكية وهو معني بما يليه ، قد اتخذ حبالا كهيئة السلاليم ، وأوهاقا - يعني حلقة تكون بأطراف الحبال لتمسك بشرف السور - .

فلما أمسى من ذلك اليوم نهّد - يعني مضى - ومن معه من جنده الذين قدم بهم عليهم وتقدمهم هو والقعقاع بن عمرو ومذعور بن عدي وأمثاله من أصحابه في أول يومه - يعني الذين لازموه من أيامه الأولى - وقالوا : إذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا إلينا ، وانهدوا للباب .

فلما انتهى إلى الباب الذي يليه هو وأصحابه المتقدمون رموا بالحبال الشرف ، وعلى ظهورهم القرب التي قطعوا بها خندقهم - وقد كان الماء فيه عميقا كما تقدم - فلما ثبت لهم وهقان تسلق فيهما القعقاع ومذعور ثم لم يدعأ أحبولة إلا اثبتها - والأوهاق بالشرف - وكان المكان الذي اقتحموا منه أحصن مكان يحيط بدمشق ، أكثره ماء وأشدّه مدخلا ، وتوافوا لذلك ، فلم يبق ممن دخل معه أحد إلا رقى أودنا من الباب ، حتى إذا استوتوا على السور حذر عامة أصحابه ، وانحدر معهم ، وخلف من يحمي ذلك المكان لمن يرتقي ، وأمرهم بالتكبير فكبر الذين على رأس

السور، فنهذ المسلمون إلى الباب ، ومال إلى الحبال بشر كثير فوثبوا فيها .
وانتهى خالد إلى أول من يليه فأنامهم ، وانحدر إلى الباب فقتل
البوابين ، وثار أهل المدينة ، وفزع سائر الناس ، فأخذوا مواقفهم
ولا يدرون ما الشأن ، وتشاغل أهل كل ناحية بما يليهم ، وقطع خالد بن
الوليد ومن معه أغلاق الباب بالسيوف وفتحوا للمسلمين .

فأقبلوا - يعني الروم - عليهم من داخل ، حتى ما بقي مما يلي باب
خالد مقاتل إلا أنيم ، ولما شد خالد على من يليه ، وبلغ منهم الذي أراد
عنوة أرز من أفلت إلى أهل الأبواب التي تلي غيره ، وقد كان المسلمون
دعوهم إلى المشاطرة - يعني على نصف الأملاك - فأبوا وأبعدوا ، فلم
يفجأهم إلا وهم ييوحون لهم بالصلح ، فأجابوهم وقبلوا منهم ،
وفتحوا لهم الأبواب ، وقالوا : ادخلوا وامنعونا من أهل ذلك الباب
فدخل أهل كل باب بصلح مما يليهم ، ودخل خالد مما يليه عنوة ، فالتقى
خالد والقواد في وسطها ، هذا استعراضاً وانتهاباً ، وهذا صلحاً
وتسكيناً ، فأجروا ناحية خالد مُجرى الصلح فصار صلحاً^(١) .

هذا وإننا من هذا الموقف العظيم لخالد رضي الله عنه نكتشف
مقدرته الخارقة في شئون الحرب ، لا في مجال ميدان المعارك فحسب
وما يتطلب ذلك من شجاعة وحسن تدبير ، بل في التخطيط العالي في
جميع شئون الحرب .

وإننا لنستفيد من هذا الموقف عبراً عظيمة ، فلا بد أن يكون القائد
متيقظاً دائماً ، وأن لا يعتمد في الأمور المهمة على غيره إلا إذا كانوا في

(١) تاريخ الطبري ٤٣٨/٣ .

مستواه ، وأن يُكثّر من بثّ العيون المخلصين الذين يكشفون له عن تحركات العدو وأعماله في كل الأوقات .

كما نستفيد من بلادة الأعداء وتهاونهم أن إهمال ساعة قد يضيّع مفعول سنة من الصبر والمصابرة ، وأن الاشتغال بالأدنى يحول دون بلوغ معالي الأمور .

هذا وإن خوض خالد بنفسه هذه المغامرة ليدلنا على عظمته القيادية فهو لا يعيش في أبراج محصنة ويتقي بجنده المخاطر ، بل يقودهم في هذه المخاطر ، وإن الجندي حينما يرى قائده يدخل معه في المخاطرة يحاول أن يبذل كل ما يملكه من طاقة من أجل بلوغ الأهداف .

إن الذي يتصور خالدًا وهو يحمل القرية المنفوخة فوق ظهره ، ويسبح في الماء ، ثم يصعد إلى السور على الحبال ، ثم يهبط إلى ميدان الأعداء . . إن من يتصور قيام خالد بهذه العملية وهو الذي ملأ الدنيا شرقها وغربها شهرة ومجدا يدرك كيف كانت عظمة المسلمين الأوائل ، ويعرف سببًا مهمًا من أسباب انتصاراتهم الباهرة ، التي خلدها التاريخ ، وأصبحت مضرب الأمثال .

هذا وإن تصرف أبي عبيدة رضي الله عنه في إجراء فتح دمشق مجرى الصلح كلها ليعتبر مثالاً لكمال العدل والوفاء ، حتى مع الأعداء الذين لو ظفروا بالمسلمين لمزقوهم ، وظاهر من العرض السابق أن الروم لم يرضوا بالصلح إلا بعد أن فُتح جزء من مدينتهم عنوة ، والجيش الإسلامي واحد وإن تقسم إلى أقسام ، فكان بإمكان أبي عبيدة أن يرفض الصلح بعد ماتيين له ما قام به خالد ، لكنه قد أعطاهم موافقة على

الصلح ، فمن تمام الوفاء أن يُتم لهم ما وافقهم عليه ، وإن كانوا قد اغتتموا فرصة عدم علمه بما قام به خالد ، فالمسلمون قدموا ليفتحوا القلوب قبل فتح البلدان ، فكانت أخلاقهم العالية هي الجاذب الأول لأبناء البلاد المفتوحة نحو الدخول في الإسلام .

وقبل مغادرة أحداث هذا الحصار نشير إلى عمل فدائي قام به أحد الصحابة بمفرده وهو واثلة بن الأسقع رضي الله عنه ، فقد ذكر الإمام الذهبي من حديث بسر بن عبيد الله عن واثلة . قال : فأسمع صرير باب الجابية - وهو أحد أبواب دمشق - فمكثت فإذا بخيل عظيمة فأمهلتها ، ثم حَمَلت عليهم وكَبُرَتْ فظنوا أنهم أحيط بهم ، فانهزموا إلى البلد ، وأسلموا عظيمهم - يعني قائدهم - فدعسته بالرمح وألقيته عن برذونه ، وضربت يدي على عنان البرذون وركضت ، والتفتوا فلما رأوني وحدي تبعوني فدعست فارساً بالرمح فقتلته ، ثم دنا آخر فقتلته ، ثم جئت خالد ابن الوليد فأخبرته وإذا عنده عظيم من الروم يلتمس الأمان لأهل دمشق^(١) .



(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٨٦ - ٣٨٧ .

٣ - فتح مدينة حمص -

أخرج محمد بن عبد الله الأزدي من خبر محرز الباهلي قال : ثم خرج أبو عبيدة نحو حمص ، فخرج إليه أهل حمص جمعاً عظيماً ، ثم استقبلوا بجوسية ^(١) ، فرماهم أبو عبيدة بخالد بن الوليد ، فأقبل خالد فلما نظر إليهم خالد قال : يا أهل الإسلام الشدة الشدة ، ثم حمل خالد عليهم وحمل المسلمون معه ، فولّوا منهزمين حتى دخلوا مدينتهم .

وبعث خالد بن الوليد ميسرة بن مسروق العبسي فاستقبل خيلاً لهم عظيمة عند نهير قريب من حمص ، فطاردهم قليلاً ثم حمل عليهم فهزمهم .

وهكذا كان النصر حليف المسلمين إلا في الشاذ النادر مهما قلوا وكثر أعداؤهم ، وإن يكن ذلك عجيباً فأعجب منه أن فارساً من المسلمين يُدعى شرحبيل بن حمير انفرد عن بقية الجيش ، فعرض له بعض فرسان الروم ، فحمل عليهم فقتل منهم سبعة ، ثم جاء إلى نهر قبل حمص عند دير مسحّل فنزل عن فرسه وسقاه ، وجاءه نحو من ثلاثين فارساً من أهل حمص ، فلما رأوه واحداً أقبلوا نحوه وراء النهر ، فأقحم فرسه الماء وعبر إليهم ، ثم ضرب فرسه وحمل عليهم في كل حملة يقتل رجلاً حتى قتل أحد عشر رجلاً ، وانتهوا إلى دير مسحّل ، فاقتحموا جوف الدير ، واقتحم شرحبيل معهم ، فرماه أهل الدير بالحجارة حتى قتلوه ^(٢) .

(١) قرية قرب حمص .

(٢) فتوح الشام / ١٤٥ .

وإن مثار العجب أن يتصدى فارس واحد لمجموعة من الفرسان فيقتل منهم ويهزم بقيتهم ، ثم تأتي مجموعة أخرى يحول بينه وبينهم النهر فيطمعون فيه فلا ينتظر حتى يعبروا إليه ، بل يُقحم فرسه ويعبر إليهم ، ولا شك إن إقدامه هذا قد أوقع الرعب في قلوبهم فصار يقتل منهم حتى فروا منه ولجئوا إلى ذلك الدير ، وأخيراً غدروا به كفعل الجبناء الذين لا يواجهون في الميدان وإنما يدافعون من الأبراج المحصنة .

وإذا كان هذا خبر فارس مغمور ليس له ذكر في التاريخ فكيف بالفرسان المسلمين الذين ملثوا صفحات التاريخ بطولة وفداء ؟
وإن جيشاً يكون هذا أحد أفراده العاديين لا يمكن أن يُغلب بإذن الله تعالى .

ثم ذكر الأزدي في سياق الخبر السابق أن المسلمين نزلوا على باب الرّسْتَن أحد أبواب مدينة حمص ، وأنهم حاصروا أهل هذه المدينة حصاراً شديداً ، وأن أهل حمص أخذوا يقولون للمسلمين ، اذهبوا نحو الملك فإن ظفرتم به فنحن كلنا لكم عبيد ، قال : فأقام أبو عبيدة على باب الرستن بالناس ، وبث المسلمون الخيل في نواحي أرضهم فأصابوا منهم غنائم كثيرة ، وقطعوا عنهم المدد والميرة ، واشتد عليهم الحصار وخشوا السبي فأرسلوا إلى المسلمين فطلبوا إليهم الصلح ، فصالحهم المسلمون وكتبوا لهم كتاباً بالأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ، وعلى أن يُضيفوا المسلمين يوماً وليلة ، وعلى ألاّ يعمرُوا بيَعَهُمْ ، وصالحوا على أرض حمص كلها ، على أن عليهم مائة ألف دينار وسبعين ألف دينار .

فقبل ذلك منهم المسلمون ، وفرغوا من الصلح ، وفتحوا باب
المدينة ، ودخل المسلمون ، وآمن بعضهم بعضاً^(١) .

* * *

(١) فتوح الشام / ١٤٥ - ١٤٦ .

٤ - خبر قيصر حين بلغه فتح الشام -

أخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من خبر عبد الله بن قرط الشمالي ، قال : عسكر أبو عبيدة بن الجراح ونحن معه حول حمص نحواً من ثماني عشرة ليلة ، وقد وجّه عماله في نواحي من أرض حمص ، واطمأن في عسكره ، وذهبت منهزمة الروم من فحل حتى قدموا على ملك الروم بأنطاكية ، وخرجت فرسان من فرسان الروم ورجال من عظمائهم وذوي الأموال والغنى والقوة ممن كان واطن الشام ، فدخلوا قيسارية ، وتحصن أهل فلسطين بإيلياء .

فلما قدمت الهزيمة على هرقل بأنطاكية دعا رجلاً من عظمائهم ، وعددًا من فرسانهم وأشدائهم ، فدخلوا عليه ، فقال : أخبروني ويلكم من هؤلاء القوم الذين تلقونهم ، أليسوا بشراً مثلكم ؟

قالوا : بلى ، قال : فأنتم أكثر أم هم ؟

قالوا : نحن أكثر منهم أضعافاً ، وما لقيناهم في موطن إلا ونحن أكثر منهم .

قال : ويلكم ، فما بالكم منهزمون إذا لقيتموهم ؟ فسكتوا ، فقام شيخ منهم ، فقال : أنا أخبرك أيها الملك من أين يؤتون ، قال : فأخبرني .

قال : إنا إذا حملنا عليهم صبروا ، وإذا حملوا علينا لم يكذبوا ، ومن حيث إنا نحمل عليهم فنكذب ، ويحملون علينا فلا نصبر .

قال : ويلكم ، فما بالكم كما تصنعون ، وهم كما تزعمون ؟

قال الشيخ : ما أراه إلا وقد علمت من أين هذا ، قال له : ومن أين هذا ؟

قال : من أجل أن القوم يقومون الليل ، ويصومون النهار ، ويوفون بالعهد ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ولا يظلمون أحداً ، ويتناصفون فيما بينهم ، ومن أجل أنا نشرب الخمر ، ونركب الحرام ، وننقض العهد ، ونغضب ، ونظلم ، ونأمر بسخط الله ، وننهي عن ما يرضي الله ، ونفسد في الأرض .

قال : صدقتني والله ، والله لأخرجنَّ من هذه القرية ، ولأدعنَّ هذه البلدة ، ومالي في صحبتكم من خير وأنتم هكذا .

قال له الشيخ ، أنشدك الله أيها الملك أن تترك سورية وهي جنة الدنيا للعرب ، ونخرج منها ولَمْ نقاتل ونجهد .

قال : قد قاتلتموهم غير مرةً بأجنادين ، وفحل ، ودمشق ، والأردن ، وفلسطين ، وحمص ، وفي غير موطن من المواطن ، كل ذلك تنهزمون وتفرون وتُغلبون .

قال له الشيخ : أنشدك الله أيها الملك أن تخرج وحولك من الروم عدد الحصى والتراب والذرة ، لم يلقهم منهم إنسان ، ثم تريد أن تخرج منها ، وترجع بهؤلاء جميعاً من قبل أن تقاتلوا ؟

قال : فإن هذا الشيخ ليكلمه بذلك إذ قدم عليه وفد أهل قيسارية ووفد إيلياء ^(١) .

(١) فتوح الشام / ١٤٩ - ١٥١ ، البداية والنهاية ١٥ / ٧ .

وهكذا ظهر واضحاً أن عقلاء الروم كانوا يعلمون مكان القوة عند المسلمين ، وأسباب انتصاراتهم ، كما كانوا يعلمون من أين تُؤتَى جيوشهم ، ومع ذلك فإنهم يُصرون على حرب المسلمين من غير أن يحاولوا تغيير ما بأنفسهم ، فيُهْزَمون في كل مرة .

* * *

مواقف وعبد
في فتوح العراق الثانية
(ما قبل القادسية)

كانت فتوح العراق الأولى على يد خالد بن الوليد رضي الله عنه كما سبق ، إلى أن رحل إلى الشام مددا للمسلمين هناك ، وقد تولى أمر جيش المسلمين في العراق بعد رحيل خالد المثنى بن حارثة الشيباني ، وقد قام بتنظيم جيشه ، وولى عدداً من أهل البسالة والإقدام بدلا من الذين أخذهم خالد معه .

ولما علم أهل فارس بغية خالد أرادوا اغتنام الفرصة للقضاء على بقية جيش المسلمين فوجهوا جيشاً نحو عشرة آلاف بقيادة هرمز بن جاذويه ، وقد كتب شهر براز ^(١) ملك الفرس إلى المثنى : إني قد بعثت إليك جنداً من وخش أهل فارس ^(٢) ، إنما هم رعاة الدجاج والخنازير ، ولست أقاتلك إلا بهم ، فكتب إليه المثنى : من المثنى إلى شهر براز إنما أنت أحد رجلين : إما باغ فذلك شر لك وخير لنا ، وإما كاذب فأعظم الكاذبين عقوبة وفضيحة عند الله في الناس الملوك ، وأما الذي يدلنا على الرأي فإنكم إنما اضطررتم إليهم ، فالحمد لله الذي رد كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير قال : فجزع أهل فارس من هذا الكتاب ، ولأموا شهر براز على كتابه إليهم واستهجنوا رأيه ^(٣) .

هذا وقد وُقِّق المثنى بهذا الرد المحكم فقد حصر أمر كبرى بأحد مقصدين : الأول البغي ، والمراد بالبغي هنا الكبرياء والاستهانة

(١) جاء في « البداية والنهاية » شهر يار وصوابه شهر براز وهو ابن أردشير بن شهر يار كما في تاريخ الطبري .

(٢) يعني من رذائلهم وسقطهم .

(٣) البداية والنهاية ١٧/٧ .

بالآخرين حيث إن إرسال هذا النوع من الجنود يعني عدم إقامة وزن يذكر للعدو المحارب ، وهذا نوع من الغرور الذي يسلم صاحبه إلى الفشل ، ولذلك قال المثنى : إنما أنت أحد رجلين : إما باغ فذلك شر لك وخير لنا ، والمقصد الآخر الكذب ، فالكذب ضعف وخور ولا يصدر إلا ممن ضعف عن المقاومة وعجز عن المواجهة فتدفع بالكذب ليستر نقصه وعُواره ، ولذلك قال المثنى : وإما كاذب فأعظم الكاذبين عقوبة وفضيحة عند الله الملوك ، ثم بكتهم وبين عجزهم ونفاد قوتهم بقوله : فالحمد لله الذي رد كيدهم إلى رعاة الدجاج والخنازير .

وقد سار المثنى من « الحيرة » إلى « بابل » فتوغل في أرض الفرس من أجل أن لا يترك لهم مجالاً لاستعادة القرى التي سيطر عليها المسلمون ، وقد التقوا عند عُدوة نهر الصراط الأولى ببابل ، فاقتتلوا قتالاً شديداً جداً ، وأرسل الفرس فيلاً بين صفوف الخيل ليفرق خيول المسلمين فحمل عليه المثنى بن حارثة فقتله ، وأمر المسلمين فحملوا . فلم تكن إلا هزيمة الفرس ، فقتلوه قتلًا ذريعاً ، وغنموا منهم مالاً عظيماً ، وفَرَّتْ الفرس حتى انتهوا إلى المدائن في شر حالة .

وقد أشاد الفرزدق بعد ذلك بالمثنى لقتله الفيل حيث يقول :
ويّت المثنى قاتل الفيل عنوة ببابل إذ في فارس ملك بابل^(١)
وبعد هزيمة الفرس في هذه المعركة ظل المثنى ينتظر أخبار أبي بكر الصديق وأوامره رضي الله عنه ، وقد انشغل الصديق بحروب الشام ، وانشغل أهل فارس عن المسلمين بالشقاق والخلاف بينهم على

(١) البداية ١٧/٧ .

الملك ، فاعتنم ذلك المثنى ووفد على الصديق في المدينة فوافاه في مرض الموت ، وقد أوصى أبو بكر عمر رضي الله عنهما بقوله : إذا أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس لحرب أهل العراق مع المثنى ، فكان أول عمل قام به عمر أن ندب الناس مع المثنى لحرب أهل فارس قبل صلاة الفجر من الليلة التي توفي فيها أبو بكر ، ثم كرر ذلك ثلاثة أيام حتى انتدب الناس لهذا الوجه ، وكان أول من بادر إلى الجهاد أبو عبيد بن مسعود الثقفي ثم تتابع الناس ، وقد ولاء عمر على هذا الجيش وعلى حرب العراق ، ثم كُلم في أن يولي رجلاً من المهاجرين أو الأنصار فقال : لا والله لا أفعل ، إن الله إنما رفعكم بسبقكم وسرعتكم إلى العدو ، فإذا جبتكم وكرهتم اللقاء فأولي بالرياسة منكم من سبق إلى الدفع وأجاب إلى الدعاء ، والله لا أؤمر عليهم إلا أولهم انتداباً (١) .

وإنما فعل ذلك عمر مع معرفته بفضائل الصحابة رضي الله عنهم على غيرهم ليدفع الناس إلى الإسراع في الاستجابة حيث لم يستجيبوا إلا في اليوم الثالث ، ولم يكن ذلك من عادتهم فلعل موت الصديق رضي الله عنه كان له أثر في ترددهم وتأخرهم .

على أن عمر رضي الله عنه لم يكن ليولي القيادة رجلاً يفقد الكفاءة لمجرد أنه أول من استجاب ، بل هو متصف بذلك مع وجود من يتصف بالكفاءة من الصحابة ولكن عمر رجح في هذه المرة جانب المبادرة إلى الاستجابة لناحية تربوية قصد بها دفع المسلمين إلى الاهتمام بالجهاد في سبيل الله تعالى ، وقد اثبتت الأيام أن أبا عبيد

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٤٤ ، البداية ٧/ ١٨ .

رحمه الله كان يتصف بالشجاعة والفداء والشهامة والسخاء كما سيأتي في المواقف التالية إن شاء الله تعالى .

وإنما كان يخشى عليه عمر رضي الله عنه من التسرع وزج المسلمين في المهالك نظراً لأنه شجاع وليس لديه خبرة بحرب فارس، كما كان يخشى عليه أن يدفعه إقدامه وحماسه إلى التفرد بالرأي وعدم الأخذ بالشورى فلذلك زوده بنصائح نافعة في هذا المجال . فكان مما قال له : اسمع من أصحاب النبي ﷺ ، وأشركهم في الأمر ، ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين ، فإنها الحرب ، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث ، الذي يعرف الفرصة والكف .

وقال له أيضاً : إنك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والجبرية - يعني التسلط والجبروت - تقدم على قوم قد جرؤوا على الشر فعلموه ، وتناسوا الخير فجهلوه ، فانظر كيف تكون ، واخزن لسانك ولا تفشينَّ سرك ، فإن صاحب السر ماضبطه متحصن لا يؤتى من وجه يكرهه ، وإذا ضيعه كان بمضيعة .

ونراه يركز مرة أخرى في نصيحته على التريث والتروي فيقول لأبي عبيد : إنه لم يمنعني أن أؤمر « سليطاً » إلا سرعته في الحرب ، وفي التسرع إلى الحرب ضياع إلا عن بيان ، والله لولا سرعته لأمرته ولكن الحرب لا يصلح لها إلا المكيث (١) .

وقد كان سليط بن قيس الأنصاري ممن بادر بعد أبي عبيد إلى الجهاد .



(١) تاريخ الطبري ٤٤٥/٣ - ٤٥٤ .

١ - معركة النمارق -

٢ - معركة كسكر -

٣ - معركة باقسيانا -

تبين لنا أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد جهز جيشاً إلى العراق بقيادة أبي عبيد بن مسعود وقد سبقه المثنى بن حارثة ليلحق بجيشه المهدد من الفرس ، ثم لحق به أبو عبيد بعد شهر .

وكان الفرس قد انشغلوا عن المسلمين طوال غيبة المثنى بموت ملكهم شهر براز ، فقد حدث تنازع بين آل كسرى ، حتى اجتمع الفرس على بوران بنت كسرى عند قدوم المثنى ، واسندت بوران أمور الحرب والملك إلى رستم ، وكان من أعظم قادة الفرس ، وكان أول ما قام به أن أرسل بعض قادة الفرس ليقوموا بثورات من داخل أقاليم العراق ، ولما علم أهل العراق بتماسك دولة الفرس بدأ كثير منهم بالانتفاض على المسلمين ، وقد تصرف المثنى إزاء ذلك بحكمة حيث جمع قواته من المناطق المختلفة وانحاز بهم إلى «خَفَّان» قريبا من الصحراء حتى لا يؤتى من خلفه وانتظر قدوم أبي عبيد .

وكان أول من ثار وجمع الجيوش من الفرس « جابان » وقد نزل بجيوشه في «النمارق» ، وقدم أبو عبيد وأقام بخفان أياماً ليستريح أصحابه ، ثم سار بجيشه بعد تعبته نحو النمارق وعلى خيله المثنى ، وعلى ميمنته والقي بن جيداره وعلى ميسرته عمرو بن الهيثم بن الصلت بن حبيب السلمي فترلوا على جابان في النمارق واقتتلوا قتالا شديداً فهزم الله أهل فارس ، وأسر جابان ، أسره مطرب بن فضة التميمي وهو لا يعرفه ، فخدعه جابان حتى تفلت منه بشيء فخلّى عنه ، فأخذه المسلمون فأتوا به أبا عبيد وأخبروه أنه قائد الفرس

وأشاروا عليه بقتله فقال : إني أخاف الله أن أقتله وقد آمنه رجل مسلم ، والمسلمون في التَّوَاد والتناصر كالجسد مالزم بعضهم فقد لزمهم كلهم فقالوا : إنه الملك - يعني القائد - قال : وإن كان ، لا أغدر ، فتركه (١) .

وهذا الموقف من أبي عبيد يعتبر مثالا على سماحة المسلمين ، ووفائهم بالعهود وإن أبرمها بعض أفرادهم ، ولا شك أن هذه الأخلاق العالية كان لها أثر كبير في اجتذاب الناس إلى الدخول في الإسلام ، فحينما يتسامع الناس أن المسلمين أطلقوا أحد قادة الفرس الذين كانوا أسرع الناس في عدائهم لمجرد أنه اتفق مع أحد المسلمين على الفداء فإنهم ينجذبون إلى هذا الدين الذي أخرج هؤلاء الرجال .

ولانسى قبل أن نعرض الأحداث موقف المثنى بن حارثة الرائع حيث استسلم لإمارة أبي عبيد مع أنه يُقَدَّمُ العراق لأول مرة ، لأن أمير المؤمنين أمره عليه ، فكان نعم القائد ونعم الجندي ، ولعلنا على ذكر لموقفه المشابه مع خالد بن الوليد لما ولاه أبو بكر على العراق وكان المثنى أسبق منه في حرب الفرس ، فلم يختلف غناؤه وجهده في حالي القيادة والجندي ، وهكذا يكون عظماء الرجال .

هذا وقد انهزمت فلول الفرس نحو « كَسْكَر » وكانت هذه القرية إقطاعا خاصا لنُرسى ابن خالة كسرى وكان فيها فواكه لا يأكلها إلا ملوك الفرس ، فأمر أبو عبيد فرسان المسلمين بمطاردة الفرس فقال : اتبعوهم حتى تُدخلوهم عسكر نِرسى أو تبيدوهم فيما بين النمارق إلى بارق إلى دُرْتَا .

ولحق بهم أبو عبيد ببقية الجيش ، وعلم رستم بهزيمة جابان فبعث

(١) تاريخ الطبري ٤٤٨/٣ .

الجالنوس لنجدة نَرْسَى ومن انضم إليه في كسكر ، ولكن أبا عبيد عاجلهم والتقى بهم في مكان أسفل كسكر يقال له السَّاطِين فاقْتتلوا قتالا شديداً ، ثم إن الله هزم فارس وهرب نرسى وغلب المسلمون على عسكره وأرضه ، ووجدوا في خزائنه شيئاً عظيماً ولم يكونوا بشيء أفرح منهم بشجر النرسيان لأن « نَرْسَى » كان يحميه ويمالته عليهم ملوكهم فاقْتسموه فجعلوا يطعمونه الفلاحين وبعثوا بخُمسه إلى عمر ، وكتبوا إليه : إن الله اطعمنا مطاعم كانت الأكاسرة يحمونها وأحبينا أن تروها ولتذكروا إنعام الله وإفضاله (١) .

وفي هذا الخبر إشارة إلى نوع من الأخلاق الرفيعة لدى المسلمين حيث رفعوا من شأن الفلاحين المحرومين فأطعموهم من طعام ملوكهم الذي كان محرماً عليهم ، فكانهم بهذا يقولون لهم : تعالوا إلى هذا الدين العظيم الذي يرفع من شأنكم ويرد عليكم كرامتكم الإنسانية . وأقام أبو عبيد بكسكر وبعث قوات لمطاردة الفرس وتأديب أهل القرى المجاورة الذين نقضوا العهد ومالئوا الفرس .

ورجحت كفة المسلمين في المنطقة بعد هذا الانتصار وجاء بعض الولاة يطلبون الصلح ، وقدم واليان منهم طعاماً خاصاً لأبي عبيد من فاخر أطعمتهم فقالوا : هذه كرامة أكرمناك بها ، وقرى لك ، قال : أكرمتكم الجند وقريتموهم مثله ؟ قالوا : لم يتيسر ونحن فاعلون ، فقال أبو عبيد : فلا حاجة لنا فيما لايسع الجند ، فردّه .

وأتاه أولئك الدهاقين المتربصون جميعاً بما وسع الجند ، وهابوا وخافوا على أنفسهم . فقال أبو عبيد : ألم أعلمكم أنني لست أكلأ إلا مايسع من معي ممن أصبتم بهم ! قالوا : لم يبق أحد إلا وقد أتى

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٤٥٠ - ٤٥١ .

بشبعه من هذا في رحالهم وأفضل . فلما علم قبل منهم ، وأكل وأرسل إلى قوم كانوا يأكلون معه أضيافاً عليه يدعوهم إلى الطعام ، وقد أصابوا من نزل فارس ولم يروا أنهم أتوا أبا عبيد بشيء فظنوا أنهم يدعون إلى مثل ما كانوا يدعون إليه من غليظ عيش أبي عبيد ، وكرهوا ترك ما أتوا به من ذلك ، فقالوا له : قل للأمير ، إنا لانتهي شيئاً مع شيء أتتنا به الدهاقين ، فأرسل إليهم : إنه طعام كثير من أطعمة الأعاجم ، لتنظروا أين هو مما أتيتم به^(١) .

وهكذا أكل هذا الأمير الكريم المتواضع بعد مارد طعام الأعاجم مرتين لما علم في الثالثة أنهم أطعموا جميع الجند مثلما أطعموه وأفضل ، ومع هذا لم يرض أن يأكل وحده حتى دعا أضيافه وألح عليهم حتى بعد أن علم أنهم أصابوا من طعام الفرس وعددهم لهم أصناف هذا الطعام ليرغبهم في مشاركته ، وهذا لون من الكرم الرفيع ، والكرم من أهم عناصر السيادة .

وإن هذه الأمثلة لتدلنا على مقدار ما بلغ إليه الصحابة رضي الله عنهم والتابعون لهم بإحسان من الرقي الأخلاقي والتقدم الحضاري . ولما علم أبو عبيد بتقدم جالنوس نهد إليه بالمسلمين فالتقوا عند «باقسيثا» فهزمهم المسلمون وهرب الجالنوس ، وغلب المسلمون على بلادهم^(٢) .

وهكذا تم القضاء على ثلاثة جيوش للفرس في مدة وجيزة ، وكان بإمكان الفرس أن يوحّدوا هذه الجيوش وأن يأتوا المسلمين من أمامهم وخلفهم وعن يمينهم وشمالهم ، لكثرة عددهم ، ولكن الله

(١) تاريخ الطبري ٤٥١/٣ - ٤٥٣ .

(٢) تاريخ الطبري ٤٥٢/٣ - ٤٥٣ .

أعمى بصائرهم وكانوا لشدة خوفهم من المسلمين يتمنى كل قائد أن يكفيه الآخر مهمة المواجهة وإضعاف المسلمين ليظفر بالنصر عليهم بعد ذلك، وقد أفاد المسلمين سرعة تحركهم وبطء حركة جيوش الأعداء .

*

*

*

٤ - موقعة الجسر الأولى -

تبين لنا أن قائد الفرس « الجالنوس » قد انهزم أمام المسلمين في معركة « باقسياثا » وأنه هرب إلى بلاده .

ولما رجع الجالنوس إلى رستم قال رستم : أيُّ العجم أشد على العرب فيما ترون ؟ قالوا : بهمن جاذويه ، فوجهه ومعه الفيلة ، وقال له : قدّم الجالنوس فإن عاد لمثلها فاضرب عنقه ، فأقبل بهمن ومعه راية كسرى ، وكانت لا تُخرج إلا في الحروب الكبيرة ، وعلم أبو عبيد فأقبل بجيشه فنزل في مكان يسمى « المروحة » والنهر بينهم ، فبعث إليه بهمن : إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور وإما أن تدعونا نعبر إليكم ، فقال الناس : لاتعبر يا أبا عبيد ، ننهاك عن العبور ، قل لهم فليعبروا ، وكان من أشد الناس عليه في ذلك سليط بن قيس الأنصاري ، فلجّ أبو عبيد في رأيه وترك رأي الناس ، وقال : لا يكونون أجراً على الموت منا ، بل نعبر إليهم ، واغتنم ذلك مردانشاه رسول قائد الفرس فأخبرهم أن أهل فارس قد عيروهم بالجن ، فازداد أبو عبيد تمسكاً برأيه ، واتهم سليط بن قيس بالجن ، فقال سليط : أنا والله أجراً منك نفساً وقد أشرنا عليك بالرأي وستعلم .

وكانت « دومة » امرأة أبي عبيد قد رأت رؤيا أن رجلاً نزل من السماء بإناء فيه شراب فشرب أبو عبيد وابنه جبر في ناس من أهله فأخبرت بها أبا عبيد فقال : هذه الشهادة ، وعهد أبو عبيد إلى الناس فقال : إن قُتلت فعلى الناس فلان حتى عد سبعة من ثقيف من أقاربه الذين ذكرتهم امرأته في الرؤيا ، فإن قتل آخرهم فالقيادة للمثنى بن حارثة .

ثم عبر أبو عبيد وعبر الناس معه إلى مكان ضيق المطرد والمذهب ، وكان الفرس قد قدموا بعدد من الفيلة يتقدمها فيل عظيم أبيض ، وعليها سعف النخل فلما رأتها خيول المسلمين جفلت منها ومن أصوات الأجراس المعلقة بها ، فصاروا لا يستطيعون الوصول إليهم والفيلة تجوس خلالهم ، فترجل أبو عبيد وترجل الناس معه ، وتصافحوا معهم بالسيوف ، وفقد المسلمون خيلهم فأصبحوا رجالة يقاومون سلاح الفيلة والفرسان والمشاة من الفرس ، إلى جانب الرماة الذين أضروا بالمسلمين وهم يدفعون بخيولهم نحوهم فلا تندفع . فكان موقفًا صعبًا أظهر المسلمون فيه من البسالة والتضحية ما يندر أن يوجد له مثل في التاريخ ، وصمدوا للفرس رغم تفوقهم عليهم في كل وسائل القتال .

وكانت الفيلة أشد سلاح واجهه المسلمون ، فقد كانت تهدد صفوفهم ، فناداهم أبو عبيد بأن يجتمعوا على الفيلة ويقطعوا أحزماتها ويقلبوا عنها أهلها ، وبدأ هو بالفيل الأبيض فتعلق بحزامه وقطعه ووقع الذين عليه ، وفعل المسلمون مثل ذلك ، فما تركوا فيلا إلا حطوا رحله وقتلوا أصحابه ، ولكن الفيلة استمرت في الهجوم لأنها كانت مدربة ، فرأى أبو عبيد أن يتخلص منها ، فسأل عن مقاتلها ، ف قيل له إنها إذا قطعت مشافرها تموت ، فهجم على الفيل الأبيض ، ونفخ خرطومه بالسيف فاتقاه الفيل بيده وأطاح به ثم داسه بأقدامه ، وأخذ الراية أخوه الحكم بن مسعود فقاتل الفيل حتى أزاحه عن أبي عبيد ولكن وقع له ما وقع لأبي عبيد ، فقد أراد الحكم قتله فاتقاه بيده ، ثم داسه بأقدامه ، وانتقلت راية المسلمين إلى الذين سماهم أبو عبيد ،

ومنهم أبناؤه الثلاثة، وهب ومالك وجبر ، إلى أن قتلوا جميعاً
فانتقلت القيادة للمثنى مع آخر النهار.

وكان بعض المسلمين قد عبروا الجسر منسحبين ، واستمر
الانسحاب من الميدان ، فلما رأى ذلك عبد الله بن مرثد الثقفي بادر
وقطع الجسر ، وقال : موتوا على ما مات عليه أمراؤكم أو تظفروا ،
وحاول منع الناس من العبور فأتوا به إلى المثنى فضربه من شدة
غضبه من صنيعه وقال: ما حملك على الذي صنعت ؟ قال : ليقاتلوا،
وقد كان اجتهاده في غير موضعه لأن قطع الجسر أدى إلى وقوع بعض
المسلمين في النهر وغرقوا بسبب شدة الضغط من الفرس ، فكانت
الفكرة المناسبة أن يحافظ المسلمون على بقيتهم بالانسحاب إن
استطاعوا ذلك ، وهذا هو ما قام به المثنى حيث أمر بعقد الجسر ووقف
هو ومن معه من أبطال المسلمين فحموا ظهور المسلمين حتى عبروا
وقال المثنى : يا أيها الناس إنا دونكم فاعبروا على هيتكم - يعني
على مهلكم - ولا تدهشوا فإننا لن نزايل حتى نراكم من ذلك الجانب
ولا تغرقوا أنفسكم .

وكان المثنى ومن معه من الأبطال من أمثال عاصم بن عمرو
والكلج الضبي هم آخر من عبر ، وقد كان بهمن جاذويه حاول أن
يجهز على بقية المسلمين ولكنه لم يستطع وقوت عليه هذه الفرصة
المثنى حينما تولى قيادة هذا الانسحاب المنظم ، ولا شك أن هؤلاء
الأبطال الذين حموا ظهور المسلمين حتى انسحبوا قد بذلوا جهودا
جبارة في الصمود أمام الأعداء .

لقد انسحب خمسة آلاف من المسلمين وخلفوا وراءهم أربعة آلاف

من الشهداء منهم عدد كبير من الصحابة رضي الله عنهم خاصة من الأنصار الذين رافقوا أبا عبيد من المدينة ، وقد عاد ألفان ممن انسحبوا إلى المدينة وغيرها ولم يبق مع المشنى غير ثلاثة آلاف .

أما الفرس فقد قُتل منهم ستة آلاف بالرغم من الوضع السيئ الذي كان فيه المسلمون مما يدل على بسالتهم وقوة احتمالهم (١) .

وهكذا تبين لنا أن من أهم أسباب انتكاسة المسلمين في هذه الموقعة مواجهتهم سلاح الفيلة لأول مرة ، إلى جانب عدم إصابتهم في اختيار المكان الذي جرت فيه المعركة ، فالمسلمون تعودوا في حروبهم على اختيار مكان واسع المُطَرَّد حيث إن سلاح الفرسان عندهم هو المقدم ، فلما انحصروا ضاعت منهم فرصة مطاردة الأعداء ، حيث كان العدو أمامهم والنهر من خلفهم .

أما المواقف التي جرت في هذه المعركة فهي تلخص إجمالاً في مقدرة المسلمين الفائقة على التكيف مع الأوضاع غير الملائمة ، والخروج من المآزق المفاجئة ، والصبر والمصابرة على القتال ، إن كانت المعركة غير متكافئة ، وتتضح هذه المواقف بعرض الصور التالية:

١ - حينما رأى قائد المسلمين أبو عبيد أن خيول المسلمين لا تُقَدِّم على جيش العدو وفيه الفيلة قرر حالاً الترحل وترك فرسه ففعل المسلمون كما فعل ، وهو حلّ جيد لأنه لا بد من مواجهة الأعداء والاختلاط بهم حيث إنهم أرهقوهم بالسهم .

٢ - حينما رأى أبو عبيد ما تفعله الفيلة وراكبوها بجيش المسلمين

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٥٤ - ٤٥٩ ، البداية والنهاية ٧/ ٢٨ ، بتصرف .

قرر قطع أحزمة الفيلة حتى تُلقى راكبيها ، وبدأ بذلك مع كبير الفيلة وتأسى به المسلمون ، فآلقوا جميع راكبي الفيلة ، وهي خطوة جيدة في سبيل التخلص من هذا السلاح الفتاك ، ثم لما استمرت الفيلة في مهاجمة المسلمين قرر التخلص منها بالقتل ، وهي خطوة أخرى تشتمل على المخاطرة والمغامرة ، وقد بدأ بتنفيذ هذه الخطوة أيضاً بنفسه رحمه الله ولكنه قضى نحبه قبل إتمام هذا العمل ، ولم يرو لنا التاريخ أي محاولة أخرى للقضاء على الفيلة في هذه المعركة غير ماجرى من الحكم بن مسعود أخى أبي عبيد وخلفه في القيادة وقد واجه نفس المصير الذي واجهه أبو عبيد ، ولعل هذه النتيجة السيئة جعلت المسلمين يتحاشون التعرض لها .

ومن المعلوم أن سلاح الفيلة كان جديداً على المسلمين ، وإلا فإنه كان بإمكانهم أن يخترعوا أسلحة بعيدة المدى تستطيع القضاء على الفيلة من غير ضرورة الاقتراب منها .

وإن إقدام أبي عبيد وهو القائد على هذه المغامرة الخطيرة دليل على زهده في الدنيا وحرصه على نيل الشهادة ، وهو مطلب عزيز يبعث في روح الجند الحيوية والإقدام ، ولكنه في الحقيقة ليس المطلوب الأول من القائد ، بل هو مكلف بالدرجة الأولى بإدارة المعركة حتى يحصل على أكبر النتائج بأقل التضحيات ، ولذلك أحجم عدد من جلة الصحابة رضي الله عنهم عن قبول القيادة لأنهم عزموا على التعرض للشهادة ، كما سبق أمثلة لذلك في معركة اليمامة .

٣ - بالرغم من الوضع السيء الذي كان فيه المسلمون في هذه

المعركة فإنهم لما ترجَّلوا عن خيولهم وخالطوا الفرس فتكوا بهم حتى قتلوا منهم ستة آلاف ، وهذا شاهد حي على بسالة المسلمين الأوائل وإقدامهم على المخاطرة بالنفوس في سبيل الله تعالى ، فإنه كان عليهم وهم مشاة أن يواجهوا فرسان العدو ومشاتهم ، وماتزودوا به من الفيلة ، وهي مهمة شاقة لا يطيقها إلا أقوياء الرجال ، ومع ذلك قام بها هؤلاء الأبطال ، ولولا تسليح الأعداء بالفيلة التي هتكت صفوف المسلمين لكان نصرهم قريب المنال .

٤ - وآخر المواقف التي رأينا التنويه عنها موقف المثنى بن حارثة ومن ثبت معه من أبطال المسلمين ، حينما رأى أفراد الجيش قد بدؤوا بالانسحاب وعبور الجسر ، وقد سبق وصف ماقام به هؤلاء الأبطال من حماية ظهور المسلمين حتى تم انسحابهم ، وهذا لون رفيع من ألوان التضحية والفداء ، فإن قادة الدنيا يَخُصِّصُونَ عددًا من الجنود لحمايتهم، أما المثنى فقد تولى مع مساعديه من الأبطال حماية الجيش الإسلامي ، فكان آخر من عبر الجسر .

والآن وبعد أن تكشفت لنا معالم هذه المعركة وبعض المواقف الإسلامية التي جرت فيها فلنتأمل بعض آثارها .

لقد كان عدد المسلمين في أول النهار تسعة آلاف ، وفقدوا في ذلك اليوم أربعة آلاف ، ولولا أن الله ألهم المثنى إلى خطة الانسحاب المنظم لزاد هذا العدد ، فهل أثرت هذه الإصابة البالغة على المسلمين بالنسبة لمستوى حماسهم للجهاد وإقدامهم عليه ؟

الواقع أنهم عادوا سريعاً إلى تنظيم صفوفهم ومواصلة الجهاد في سبيل الله تعالى ، وذلك أنهم يفهمون جيداً معنى قول الله

تَعَالَى ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٣٩) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿ [آل عمران: ١٣٩ - ١٤١] .

فإصابة المسلمين إنما تتم بقدر الله تعالى ليتبين المؤمنون على درجاتهم في الإيمان قوة وضعفا ، بناء على مقدار صبرهم وثباتهم ، وليُقدّم المسلمون شهداء في سبيل الله جل وعلا ، حتى يظهر للعالم عظمة هذا الدين الذي من أجله يُقدّم المسلمون هؤلاء الشهداء وهم لا يدافعون فقط عن أرضهم وأموالهم ، وإنما يقاتلون من أجل نشر دعوة الإسلام والدفاع عنه .

فالمعارك الإسلامية لا خسارة فيها مطلقا ، سواء كان النصر والفتح للمسلمين ، أو كانت الهزيمة والإصابة ، لأنه في حال النصر يتم التمكين للمسلمين في الأرض ، وتقوى دولتهم مع ما يحصل عليه المجاهدون من الثواب الأخروي ، وفي حال الإصابة فإن ما يقدمه المسلمون من الشهداء يعطي الدعوة الإسلامية دفعات إلى الأمام مع ما يحصل عليه المجاهدون من الأجر الأخروي ، سواء استشهدوا أو بقوا على قيد الحياة .

وهكذا تبين لنا نماذج من قوة الإيمان لدى المسلمين في عهد الصحابة رضي الله عنهم ، وأن ما أصابهم في معركة الجسر الأولى لم يكن دافعا لهم إلى الإحجام عن القتال .

ومن الأدلة على أن المصائب لا تزيد المسلمين الصادقين إلا قوة

واندفاعاً نحو جهاد الأعداء أن المثنى بن حارثة لما علم بانفراد قائدين من قادة الفرس بعد المعركة مع أصحاب لهما استخلف على الجيش عاصم بن عمرو ، وخرج في كتيبة من الفرسان يريدتهما ، فظنا أنه هارب لأنهما لم يتوقعا أي إقدام على الهجوم من المسلمين بعد انهزامهم ، فاعتراضاه فأخذهما أسيرين وخرج أهل « أليس » على أصحابهما فأتوه بهم أسراء ، فقدّمهما ، وقال : أنتما غررتما أميرنا وكذبتماه واستفزرتماه فضرب أعناقهما وضرب أعناق الأسراء ، ثم رجع إلى عسكره .

وهكذا نجد أن المثنى قد قتل هذين القائدين وأصحابهما وهو في قلة من جيشه ممن بقي معه ولم يحسب حساباً لاحتمال انتقام الفرس وحلفائهم منه وهم أكثر من جيشه أضعافاً مضاعفة ، وهذا دليل على الجسارة والجرأة الفائقة .

هذا وقد بقي المثنى في العراق في عدد قليل لا يكفي حتى للاحتفاظ بالممالك التي استولى عليها المسلمون ، ولقد كان بإمكان الفرس أن يلاحقوا بقية الجيش الإسلامي حتى يخرجوهم من العراق ، وسيجدون ممن بقي على الولاء لهم من العرب من يتولى مطاردتهم في الصحراء ، ولكن الله تعالى مع هذه الفئة المؤمنة ومع المؤمنين في كل مكان ، فكلما وقع المسلمون الصادقون في مأزق حرج قيص لهم الأسباب التي تخرجهم من هذا الحرج ، فحينما اضطر خالد بن الوليد إلى مغادرة العراق بنصف الجيش أوقع الله الخلاف والاضطراب في دولة فارس فشغلوا بأنفسهم عن المسلمين ، وحينما استقرت دولتهم كان المثنى قد تقوى ونظم أموره فتصدى لجيشهم في بابل وهزمهم .

ولما انتظم أمرهم على رستم الذي هو من أعظم قوادهم وحصل ما حصل على المسلمين من الهزيمة في الجسر كانت الفرصة سانحة أمام الفرس ليحاولوا القضاء على المسلمين ، ولكن الله سبحانه قيض أمراً صدّهم عن المسلمين حيث انقسموا إلى قسمين قسم مع رستم وقسم مع فيروزان ، وأتى الخبر إلى قائد الفرس بهمن جاذويه فأسرع بالعودة إلى المدائن وكان ممن يُنظر إليهم في أمور سياستهم .

وهكذا كفى الله المؤمنين القتال وأنقذهم من هذا المأرق الحرج وأخذوا فرصة كافية لتلقّي الجيوش القادمة من دار الخلافة حتى تقووا وتكون لديهم جيش كبير .

هذا ما كان من أمر المسلمين في العراق ، فماذا كان من أمر أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وهو يتلقّى هذا النبأ المؤسف الذي يحمل استشهاد أربعة آلاف من المسلمين ، وفيهم عدد كبير من الصحابة رضي الله عنهم ؟

لقد تأثر عمر ومن حوله من الصحابة لمصاب الجيش الإسلامي في هذه المعركة وقال : اللهم كل مسلم في حلّ مني ، أنا فئة كل مسلم ، من لقي العدو ففُطِعَ بشيء من أمره فأنا له فئة ، يرحم الله أبا عبيد لو كان انحار إلى لكنت له فئة (١) .

وهو موقف إسلامي كريم من عمر رضي الله عنه حيث إن هؤلاء المنهزمين لم ينسحبوا من المعركة من حين أن رأوا مؤشرات التفوق لدى الأعداء والوضع السيء لدى المسلمين ويتركوا إخوانهم يواجهون وحدهم حر المعركة ، وإنما انسحبوا حينما رأوا أن مصلحة الجيش في

(١) تاريخ الطبري ٤٥٨/٣ .

الانسحاب ووافقهم على ذلك أميرهم ، وقد دخلوا المعركة وهم
مخلصون صادقون وخرجوا منها وهم كذلك ، فكانوا جديرين بموقف
الرحمة والمواساة من عمر ، وهذا الموقف يدل على أن عمر وهو
الرجل القوي الحازم يلين ويواسي في مقام الرحمة والعطف .

ولما حدث ما حدث من قلة الجيش في العراق مع المثنى اهتم أمير
المؤمنين بإمداده فكتب إلى عماله لجمع الجيوش ، وكان جرير بن عبد
الله البجلي قد رغب في جمع بجيلة من القبائل فاجتمع له منهم ألفان
وبعث بهم أمير المؤمنين إلى المثنى ، وسمح عمر رضي الله عنه
لأهل الردة بالجهاد وكتب إليهم ليوافوه فبعث بهم إلى العراق ،
 واجتمع عند المثنى جيش كبير .

* * *

٥ - معركة البويب -

لما علم قادة الفرس باجتماع جيش كبير عند المثنى بعثوا مهران الهمداني بجيش من الفرسان لمواجهة جيش المثنى ، ولما علم المثنى بذلك كتب إلى من لم يصل إليه من الأمداد أن يوافوه بالبويب وعلى رأس هؤلاء جرير بن عبد الله حيث كتب إليه المثنى يقول : إنا جاءنا أمر لم نستطع معه المقام حتى تقدموا علينا فعجلوا اللحاق بنا وموعدكم البويب ، فاجتمعوا بالبويب وليس بينهم وبين جيش الفرس إلا النهر ، فأقام المثنى حتى كتب له مهران : إما أن تعبروا إلينا أو أن نعبر إليكم ، فقال المثنى : اعبروا ، فعبر مهران بجيشه ، وكان ذلك في شهر رمضان من العام الثالث عشر للهجرة ، فقام المثنى خطيباً وقال للمسلمين ، إنكم صوام والصوم مَرَقَّة ومضعفة وإني أرى من الرأي أن تفطروا ثم تقووا بالطعام على قتال عدوكم ، قالوا : نعم ، فأفطروا .

وكان المثنى قد عبأ جيشه وسار فيهم يحثهم على القتال ، ويقول لأهل كل راية : إني لأرجو أن لا تُؤتَى العرب اليوم من قبلكم ، والله ما يسرنى اليوم لنفسي شيء إلا وهو يسرنى لعامتكم .

قال الرواة : وأنصفهم المثنى في القول والفعل ، وخلط الناس في المكروه والمحبوب ، فلم يستطع أحد منهم أن يعيب له قولاً ولا عملاً .

وهذا دليل على حسن قيادته وسعة حكمته ، حتى أصبح أفراد الجيش مطيعين له عن حب وقناعة .

ولما رضى المثنى عن استعداد جيشه قال : إني مكبرٌ ثلاثاً فتهيئوا ثم احملوا مع الرابعة ، فلما كبر أول تكبيرة أعجلهم أهل فارس

وعاجلوهم فخالطوهم مع أول تكبيرة ، وليس من عادة الفرس هذا الاندفاع ولكن لعل ما حصلوا عليه في معركة الجسر من إصابة المسلمين خفف مما وقر في نفوسهم من هيبة المسلمين والرعب منهم .

وهكذا بدأ الفرس بالهجوم وقد صمد لهم المسلمون واستمروا معهم في صراع شديد ، والمثنى إلى جانب اشتراكه في القتال يراقب جيشه بدقة حتى إنه رأى خللا في بعض صفوفه فأرسل إليهم رجلا وقال : إن الأمير يقرأ عليكم السلام ويقول : لاتفضحوا المسلمين اليوم : فقالوا: نعم، واعتدلوا .

ولما رأى المثنى ركود الحرب وعدم تفوق المسلمين بشكل بارز دعا بعض فرسانه الأبطال فحمل بهم على قلب المشركين حتى ضَعَضَعَهُمْ وأزال قائدهم نحو الميمنة ، وقد ارتفع الغبار والمجنّبات في الميمنة والميسرة تقتتل ، ولا يستطيعون أن يفرغوا لنصر أميرهم ، لا المسلمون ولا المشركون .

ووقف المثنى عند ارتفاع الغبار حتى أسفر الغبار ، وقد فنى قلب المشركين وقُتِل قائدهم مهران والمجنّبات قد هز بعضها بعضا ، فلما رآه المسلمون وقد أزال القلب وأفنى أهله قويت مجنبتهم على المشركين ، وجعلوا يردون الأعاجم على أديبارهم ، وجعل المثنى والمسلمون في القلب يدعون لهم بالنصر ، وأرسل إليهم من يقول لهم : عاداتكم في أمثالهم ، انصروا الله ينصركم ، حتى هزموا القوم ، فسابقهم المثنى إلى الجسر فسبقهم وقطعه ، وأخذ الأعاجم ، فافترقوا بشاطيء الفرات ، واعتورثهم خيول المسلمين حتى قتلوهم ، ثم جعلوا جثثهم أكوامًا من كثرتها ، حتى ذكر بعض الرواة أن قتلهم بلغوا مائة ألف .

وندم المثنى على مسابقة الفرس وقطع الجسر فقال: لقد عجزت عجزة وقى الله شرها ، بمسابقتي إياهم إلى الجسر وقطعه ، حتى أخرجتهم ، فإني غير عائد فلا تعودوا ، ولا تقتدوا بي أيها الناس ، فإنها كانت مني زلة ، لا ينبغي إحراج أحد إلا من لا يقوى على امتناع .

ولقد أ بان المثنى في آخر هذا الكلام وجه الخطأ في هذه الخطة حيث قد لاحظ ببصيرته الحرية النافذة أن في منع العدو من الفرار إلقاء لهم إلى الاستماتة في القتال دفاعا عن أنفسهم ، فإنه حينما يشعر الإنسان بأنه مقتول يبذل كل طاقته في الدفاع عن نفسه ، وهذا يكلف الجيش المقابل جهوداً ضخمة في محاولة القضاء عليه ، ولكن الله تعالى وقى المسلمين شر هذه الخطة كما ذكر المثنى حيث ثبت المسلمين فكانت قوتهم أعلى بكثير من احتمال الأعداء وطاقاتهم ، وألقى الرعب في قلوب الأعداء حتى فقدوا الطاقة والمقدرة على الدفاع عن النفس .

ولربما رأى بعض أفراد الجيش في خطة المثنى هذه براعة وعظمة لكونها بلغت في النكاية بالكفار وإرهابهم مبلغاً عظيماً ، ولربما تأسى به بعض القادة في أمثال هذه المعركة ، فأراد المثنى باعترافه بهذا الخطأ أن يزيل هذا الفهم من النفوس ، وما قد يتبعه من التأسى به في التنفيذ .

وإن في اعتراف المثنى بهذا الخطأ ، وهو الرجل الذي بلغ في هذه المعركة أوج النصر والشهرة لدليلاً على قوة إيمانه ، وتجرده من حظ النفس ، وإيثاره مصلحة الجماعة ، وهكذا يكون العظماء .

ولقد أعاد هذا النصر المؤزر الذي حازه المسلمون هيبته العظيمة

في قلوب الأعداء، وعفّوا به على كل آثار إصابتهم في معركة الجسر، فله در هؤلاء الأبطال، وما أعظم غناءهم عن الإسلام والمسلمين!

وإن مما يؤيد ما قاله المثني في نقد هذه الخطة وأن الله وقى شرها ما ذكره عرفة بن هزيمة حينما طلب المثني من قادة الجيش أن يتحدثوا عن المعركة حيث قال : حُزنًا كتيبة منهم إلى الفرات، ورجوت أن يكون الله تعالى قد أذن في غرقهم وسلّى عنا بها مصيبة الجسر ، فلما دخلوا في حدّ الإحراج كروا علينا فقاتلناهم قتالا شديداً، حتى قال بعض قومي : لو أخرت رايتك فقلت : عليّ إقدامها، وحملت بها على حاميتهم فقتلتها ، فولوا نحو الفرات، فما بلغه منهم أحد فيه الروح .

وإن من المواقف المذكورة في هذه المعركة ما كان من مسعود بن حارثة أخي المثني حيث قال لقومه قبل بدء المعركة : إن رأيتمونا أصبنا فلا تدعوا ما أنتم فيه، فإن الجيش ينكشف ثم ينصرف ، الزموا مصافكم، وأغنوا غناء من يليكم ، ولما صرّع قال رحمه الله : يامعشر بكر بن وائل ارفعوا رايتكم رفعكم الله ، لايهولنكم مصرعي .

وإن من الأقوال الرائعة التي قيلت بعد المعركة قول المثني : قد قاتلت العرب والعجم في الجاهلية والإسلام ، والله لمائة من العجم في الجاهلية كانوا أشد عليّ من ألف من العرب ، ولمائة اليوم من العرب أشد عليّ من ألف من العجم ، إن الله أذهب مصدوقتهم ، ووهن كيدهم ، فلا يروعنكم زهاء ترونه - يعني هيتهم - ولا سواد - يعني كثرتهم - ولا قسى فجّ - يعني قد بانت أوتارها - ولا نبال طوال ،

فإنهم إذا أُعْجِلُوا عنها أو فقدوها كالبهائم أينما وجهتموها اتجهت .
وإن هذا القول في ذلك الوقت مناسب تماما حيث عرض المثنى خبرته الجيدة في حربه مع الفرس في الوقت الذي دخل في حروب العراق أعداد كبيرة من المسلمين يشاركون في حرب الفرس لأول مرة ، فجمع المثنى لهم بذلك بين المشاهدة في معركة من المعارك وبين وصف تجاربه في كل المعارك التي خاضها معهم قبل ذلك .

وإن من المواقف التي ينبغي الإشارة إليها ما كان من نساء المسلمين لما أرسل إليهم قادة المسلمين بعض ما أصابوا من الطعام ، وقد أرسلوه مع أحد زعماء النصاري من العرب وهو عمرو بن عبد المسيح بن بُقَيْلة في رجال معه ، فلما رأتهم النساء تصايحن وحَسَبْنَهَا غارة فقمْنَ دون الصبيان بالحجارة والعُمد ، فقال : عمرو بن عبد المسيح : هكذا ينبغي لنساء هذا الجيش ، وبشروهن بالفتح^(١) .

وإن هذا الموقف ليدل على حسن التربية الإسلامية وإبراز شخصية المسلم حتى لدى النساء ، فإنهن قد تدربن على حماية الموقف فيما إذا خلا من الرجال .

هذا وقد أطلق هذا النصر الحاسم يد المسلمين في العراق فيما بين النهريين وأرسل المثنى قواده يُخضعون البلاد لسلطان المسلمين ، ويتقوون بما يفىء الله عليهم من الغنائم على جهاد عدوهم .

* * *

(١) يراجع تاريخ الطبري ٤٦٠ / ٣ - ٤٧٦ .

مواقف وعبد
فى
معركة القادسية

تين ما آل إليه أمر المسلمين في جهاد الفرس حيث أحرز المسلمون نصراً كبيراً في معركة البويب بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني ، وقد أزالوا به آثار هزيمتهم في معركة الجسر الأولى .

وفي أثناء ذلك اجتمع أهل فارس على تمليك شاب من أبناء ملوكهم وهو « يَزْدَجَرْد » فاجتمعوا عليه بعد تفرق ، ولما علم بذلك المثنى كتب إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بأمرهم فأجابه بقوله «أما بعد فاخرجوا من بين ظهري الأعاجم وتفرقوا في المياه التي تلي الأعاجم على حدود أرضكم وأرضهم ، ولا تدعوا في ربيعة أحدا ولا مضر ولا حلفائهم أحداً من أهل النجدات ولا فارساً إلا اجتلبتموه ، فإن جاء طائعاً وإلا حشرتموه ، احملوا العرب على الجد إذا جدَّ العجم فلتلقوا جدَّهم بجدِّكم .

فانحاز المثنى بمن معه ونزلوا بأطراف العراق مما يلي بلاد العرب على معسكرات متقاربة ، وذلك في شهر ذي القعدة سنة ثلاث عشرة .

الاستعداد للمعركة :

كتب عمر إلى عماله في شهر ذي الحجة وهو خارج للحج أن لاتدعوا أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأي إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إليّ ، والعَجَل العجل . ذكره ابن جرير رحمه الله^(١) .

وما أن اجتمع أوائل الناس في المدينة حتى خرج بهم عمر رضي الله عنه .

(١) تاريخ الطبري ٤٧٧/٣ - ٤٧٨ .

قال ابن جرير رحمه الله فيما يرويه عن شيوخه : خرج عمر حتى نزل على ماء يُدعى صراراً ، فعسكر به ولا يدري الناس ما يريد ، أيسر أم يقيم ، وكانوا إذا أرادوا أن يسألوه عن شيء رموه بعثمان أو بعبد الرحمن ابن عوف ، وكان عثمان يُدعى في إمارة عمر رديفاً - قالوا: والرديف بلسان العرب الرجل الذي بعد الرجل ، والعرب تقول ذلك للرجل الذي يرجونه بعد رئيسهم - وكانوا إذا لم يقدر هذان على علم شيء مما يريدون ثلثوا بالعباس .

أقول : وإن في هذا دلالة على عظم مكانة عمر في قلوب الصحابة رضي الله عنهم ، وهذه الهيبة العظيمة التي عمرت قلوبهم منه مبعثها أمران :

أولاً : قوة إيمانه بالله تعالى وقيامه بتوحيده تعظيماً له وخوفاً منه وتجريد قلبه تماماً من أن يتسرب إليه أي اعتبار لأي قوة على وجه الأرض ، فالصحابة يرون أن قلبه قد امتلأ من خوف الله تعالى وتعظيمه ورجائه والخضوع له حتى لم يعد لأي قوة أخرى في الأرض أن تزاحم وجود الإيمان بالله تعالى في قلبه ، ومن كانت هذه حاله فحري بالقلوب أن تستكين له وأن تهاب منه وأن تحسب حساباً كبيراً لمنطقه وسلوكه .

ثانياً : أن عمر كان يحمل الناس على الحق الذي يطمئن إليه إما طوعاً أو كرهاً ، فكان الناس يفكرون كثيراً ويزنون كلامهم طويلاً قبل أن يكلموه خشية أن يزلوا بكلمة لا يحسبون لها حساباً وهو لقوة اتصاله بالله تعالى وعظم منزلة الآخرة عنده وهوان الدنيا عليه يدرك من سقط الكلام وعواره ما لا يدركه الآخرون .

وإلى جانب هذه الهيبة العظيمة فإنهم كانوا يحبونه من قلوبهم ويفدونه بأنفسهم لأن قوته عليهم كانت من أجل تعظيم الله تعالى وتقديره حق قدره وتنفيذ شرعه لا من أجل أن يبنى لنفسه أو لأسرته مجداً يخلد ذكره في هذه الحياة الفانية ، فهي هيبة مشوبة بالحب ، وتعظيم مشوب بالإجلال .

وفي هذا الخبر أيضاً دلالة على عظمة هؤلاء الثلاثة الذين كان الصحابة يقدمونهم في مخاطبة عمر وهم عثمان بن عفان وعبد الرحمن ابن عوف والعباس بن عبد المطلب رضي الله عنهم أجمعين ، مما يدل على تمتع هؤلاء بالصفات التي يرضى عنها عمر والتي مبعثها قوة الإيمان بالله تعالى والتجرد من حظ النفوس ومن ضغوط الناس .

قال ابن جرير في سياق روايته : فقال عثمان لعمر : ما بلغك ؟ ما الذي تريد ؟ فنأدى : الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس إليه فأخبرهم الخبر - يعني خبر عزمه على غزو الفرس - ثم نظر ما يقول الناس ، فقال العامة : سر وسر بنا معك ، فدخل معهم في رأيهم ، وكره أن يدعهم حتى يخرجهم منه برفق ، فقال : استعدوا وأعدوا فإني سائر إلا أن يجيء رأي هو أمثل من ذلك .

ثم بعث إلى أهل الرأي فاجتمع إليه وجوه أصحاب النبي ﷺ وأعلام العرب فقال : أحضروني الرأي فإني سائر ، فاجتمعوا جميعاً وأجمع ملؤهم على أن يبعث رجلاً من أصحاب النبي ﷺ ويقيم ، ويرمي بالجنود ، فإن كان الذي يشتهي من الفتح فهو الذي يريد ويريدون ، وإلا أعاد رجلاً وندب جنداً آخر وفي ذلك ما يغيظ العدو ، ويرعوي المسلمون ، ويجيء نصر الله بإنجاز موعود الله .

قال : فنادى عمر : الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس إليه ، وأرسل إلى علي وقد استخلفه على المدينة فأثابه ، وإلى طلحة وقد بعثه على المقدمة فرجع إليه ، وجعل على المجنبتين الزبير وعبد الرحمن بن عوف فقام الناس فقال : إن الله عز وجل قد جمع على الإسلام أهله ، فألّف بين القلوب وجعلهم فيه إخوانا ، والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منه شيء من شيء أصاب غيره ، وكذلك يحق على المسلمين أن يكونوا أمرهم شورى بينهم وبين ذوي الرأي منهم ، فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر ، ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس ، وكانوا فيه تبعاً لهم ، ومن قام بهذا الأمر تبع لأولي رأيهم ما رأوا لهم ورضوا به لهم من مكيدة في حرب كانوا فيه تبعاً لهم ، يا أيها الناس إني إنما كنت كرجل منكم حتى صرفني ذوو الرأي منكم عن الخروج ، فقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلاً ، وقد أحضرت هذا الأمر من قدمت ومن خلّفت ^(١) . يعني بذلك علياً وطلحة رضي الله عنهما ، وكان قد خلف علياً على المدينة وقدم طلحة على مقدمة الجيش .

هذا وإن لي تعليقات على هذا الخبر أوجزها فيما يلي : مما يلاحظ أن عمر رضي الله عنه لم يكن عازماً على الخروج بنفسه إلى العراق بدليل أنه لما استشار الناس فأشار عليه العامة بذلك وافقهم ظاهراً وكره أن يخالفهم حتى يخرجهم من رأيهم برفق كما جاء في الرواية ، والسؤال الذي يمكن أن يطرح في هذا المجال ، لماذا لم يستشر الناس وهو في المدينة ، ثم إما أن يخرج إن قبل رأيهم أو

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٤٨٠ .

يجلس إن قبل الرأي الآخر ؟ والجواب أن يقال : لعل عمر رضي الله عنه آنس من المسلمين بعض الركود وعدم تقدير الأمر بكل ما يجب أن يقدره به وأنهم لم يصلوا من الإقدام على الجهاد إلى المستوى الذي يريد منهم أن يبلغوه ، ولاشك أن طاقات عمر الفذة لم يبلغها أحد ممن عاصره آنذاك ولا ممن جاؤوا بعده ، فأراد بخروجه أن يقدم للجهاد دفعة قوية نحو الأمام حيث إن رغبة الأمة في صحبته لايدانيها أي رغبة أخرى بعد إرادة وجه الله تعالى والدار الآخرة ، وقد حصل له ما أراد من ذلك رضي الله عنه وعن أصحاب رسول الله ﷺ أجمعين .

وإن من أبرز ما يلاحظ في هذا الخبر أن الصحابة رضي الله عنهم نفذوا أمر أمير المؤمنين عمر فخرجوا بدون مراجعة مع أنهم لايدرون عن خطة سيرهم ولا لماذا خرجوا ، وهذا من دلالاته المهمة أنه يكشف عن كمال الانسجام بين الحاكم والمحكومين في ذلك العصر ، وماكان عليه الصحابة من الطاعة لولي الأمر الذي يعلمون يقينا أنه لن يأمرهم إلا بطاعة الله تعالى ، وهذا الخلق النبيل يعتبر من أبرز العوامل التي حققت لهم الانتصار السريع والنجاح الباهر سواء في مجال توحيد الجزيرة العربية وإقامة الدولة الإسلامية أو في مجال غزو الأعداء وإخضاع الممالك لدولة الإسلام .

ومما يلاحظ في هذا الخبر أن عمر رضي الله عنه ترك رأي العامة وأخذ برأي أهل الحل والعقد الذين أطلق عليهم أهل الرأي ، وفي هذا دلالة على أن أمور الأمة تُدار بالمشورة بين أهل الحل والعقد الذين هم أهل الرأي والتدبير والخبرة في سياسة الأمور ، ولم يذكر عمر

رضي الله عنه موضوع فهم الدين وتطبيقه في وصف أهل الحل والعقد فلم يقل أهل العلم والعمل لأن هذا الأمر كان معلوماً توفره لدى الصحابة رضي الله عنهم وإن كانوا يتفاضلون في ذلك ، لكن كان أصحاب العقول الراجحة فيهم هم المتميزون في فهم الإسلام وتطبيقه .

ومن هذا نستفيد أن العبرة شرعاً ليست في كثرة الآراء وإنما العبرة بسداد الآراء وصوابها وإن قلت .

وفي كلام عمر رضي الله عنه ما يفيد أن نجاح الأمة في أمورها مترتب على إحكام العلاقات بين الحاكمين والمحكومين حيث يقول : «وكذلك يحق على المسلمين أن يكونوا أمرهم شورى بينهم وبين ذوي الرأي منهم ، فالتناس تبع لمن قام بهذا الأمر ، ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعاً لهم ، ومن قام بهذا الأمر تبع لأولي رأيهم » .

فالذي يفهم من هذا النص أن أمور المسلمين تكون شورى بينهم ، وما يقرر أهل الحل والعقد يأخذ به أولياء الأمور ، ثم يكون ملزماً لعامة الأمة في حدود طاعة الله تعالى .

هذا وقد روي من الكلمات البليغة التي قيلت في هذه المشورة ما أخرجه الإمام الطبري بإسناده عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه قال في سياق خبر هذه المشورة : فقال عبد الرحمن - يعني ابن عوف رضي الله عنه : فما فديت أحداً بأبي وأمي بعد النبي ﷺ قبل يومئذ ولا بعده فقلت : يا بأبي وأمي اجعل عجزها بي ^(١) وأقم وأبعث جنداً ،

(١) يعني إذا كان هناك ملامة في عدم ذهابك يا عمر فاجعلني أنا المشول عن ذلك .

فقد رأيت قضاء الله لك في جنودك قبل وبعد ، فإنه إن يهزم جيشك ليس كهزيمتك ، وإنك إن تُقتل أو تهزم في أنف الأمر خشيت أن لا يكبر المسلمون وأن لا يشهدوا أن لا إله إلا الله أبداً^(١) .

ألا ما أعظمك يابن عوف وما أصوب رأيك ، وما أجمل عرضك ، فقد قلت رأياً صواباً وعرضته بقوة فوفقت في رأيك ووفقت في طريقة عرضه .

إن الحق قد يشوهه في أسماع الناس طريقة عرضه عليهم ، وقد يُحسن الإنسان العرض ولكن لا يوفق للنطق بالحق والصواب في الرأي ، فأما حين تجتمع الحسنيين للإنسان فإنه يبلغ مقصوده مع توفيق الله تعالى بسهولة ويسر .

وبهذا اقتنع أمير المؤمنين برأي عبد الرحمن بن عوف ومن وافقه الرأي وقرر أن يبعث قائداً من الصحابة يكون ممثلاً له في تنفيذ ما يريد .

واستشار أمير المؤمنين أصحاب الرأي في اختيار هذا القائد ، وبينما هم في هذه المشورة إذ ورد كتاب سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وكان مرسلاً لجباية بعض صدقات أهل نجد ، فقال عمر : أشيروا عليّ برجل ، فقال عبد الرحمن بن عوف : وجدته ، قال : من هو؟ قال : الأسد في برائه سعد بن مالك ، ووافقه عليه أهل الرأي ، فأنتهى عمر إلى قولهم وأرسل إليه^(٢) .

وإن في تقديم ابن عوف لسعد بقوله « الأسد في برائه » مثل آخر لحسن العرض ، والثناء على أهل الفضل بما هم أهل له .

(١) (٢) تاريخ الطبري ٤٨١/٣ - ٤٨٣ .

وصية من عمر لسعد :

لما قدم سعد إلى المدينة أمره عمر رضي الله عنهما على حرب العراق وقال له : يا سعد سعد بني وهيب لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله ﷺ وصاحب رسول الله ﷺ فإن الله عز وجل لا يمحو السيء بالسيء ولكنه يمحو السيء بالحسن ، فإن الله تعالى ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ماعنده بالطاعة ، فانظر الأمر الذي رأيت رسول الله ﷺ عليه منذ بُعث إلى أن فارقنا فالزمه فإنه الأمر ، هذه عظتي إياك إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك وكنت من الخاسرين^(١).

وانها لموعظة بليغة من عالم رباني وقائد سياسي خبير ، فلقد أدرك عمر جانب الضعف الذي يمكن أن يؤتى سعد من قبله وهو أن يُدلي بقرابتة من النبي ﷺ فيحمله ذلك على شيء من الترفع على المسلمين ، ثم ذكره بالمبدأ الإسلامي العام الذي يعتبر مقياسا لكرامة المسلم في هذه الحياة حيث قال « الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون ماعنده بالطاعة » فقلوه « يتفاضلون بالعافية » يعني بالشفاء من أمراض النفوس فكأنه يقول يتفاضلون بالبعد عن المعاصي والإقبال على طاعة الله تعالى وهذه هي التقوى التي جعلها الله سبحانه ميزانا للكرامة بقوله ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾^(٢) وهو ميزان عادل رحيم بإمكان كل مسلم بلوغه إذا جدَّ في طلب رضوان الله تعالى والسعادة الآخروية .

(١) تاريخ الطبري ٤٨٣/٣ .

(٢) الحجرات / ١٣ .

ثم ذكره عمر في آخر الموعظة بلزوم الأمر الذي كان عليه رسول الله ﷺ وهذا يشمل الالتزام بالدين كله وتطبيقه على الناس .

وصية أخرى :

ثم إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أوصى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما مرة أخرى لما أراد أن يبعثه بقوله : إني قد وليتك حرب العراق فاحفظ وصيتي ، فإنك تُقدم على أمر شديد كره لا يُخلّص منه إلا الحق ، فعوّد نفسك ومن معك الخير ، واستفتح به ، واعلم أن لكل عادة عتاداً ، فعتاد الخير الصبر ، فالصبر على ما أصابك أو نابك تجتمع لك خشية الله ، واعلم أن خشية الله تجتمع في أمرين : في طاعته واجتناب معصيته ، وإنما أطاعه من أطاعه يبغض الدنيا وحب الآخرة ، وعصاه من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة ، وللقلوب حقائق ينشئها الله إنشاءً ، منها السر ومنها العلانية ، فأما العلانية فأن يكون حامده وذامه في الحق سواء ، وأما السر فيُعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه ، وبمحنة الناس ، فلا تزهد في التحبب فإن النبيين قد سألوا محبتهم ، وإن الله إذا أحب عبداً حبه ، وإذا أبغض عبداً بغضه ، فاعتبر منزلتك عند الله تعالى بمنزلتك عند الناس ، ممن يشرع معك في أمرك^(١).

هذا وإن لنا مع هذا النص وقفةً سريعة نستلهم منه بعض المواقف والعبر النافعة ، فقد ذكر عمر رضي الله عنه أولاً أن لزوم الحق يخلّص المسلم من الشدائد ، وذلك أن من لزم الحق كان مع الله تعالى

(١) تاريخ الطبري ٤٨٣/٣ .

ومن كان مع الله كان الله معه جل وعلا بنصره وتأييده وإن هذا الشعور ليعطي المسلم دفعات قوية نحو مضاعفة العمل ومواجهة الصعاب والمآزق ، إضافة إلى الطمأنينة النفسية التي يتمتع بها من لزم الحق قولاً وعملاً ، بخلاف من حاد عن طريق الحق فإنه يشعر بالقلق والآلام المتعددة التي منها تأنيب الضمير والخوف من محاسبة الناس والدخول في مجاهيل المستقبل التي تترتب على الانحراف .

وذكر عمر رضي الله عنه أن عُدَّة الخير الصبر ، وذلك أن طريق الخير ليس مفروشاً بالخمائل ، بل هو طريق شاق شائك ، يتطلب عبوره جهاداً طويلاً ، فلا بد لسالكه من الاعتداد بالصبر ، وإلا انقطع في أثناء الطريق .

وذكر أن خشية الله تعالى تكون في طاعته واجتناب معصيته ثم بين الدافع الأكبر الذي يدفع إلى طاعته ألا وهو بغض الدنيا وحب الآخرة ، والدافع الأكبر الذي يدفع إلى معصيته ، وهو حب الدنيا وبغض الآخرة .

ثم ذكر أن للقلوب حقائق منها العلانية ومثل لها بالمعاملة مع الناس بالحق في حالي الغضب والرضى ، وأن لا يحمل الإنسان ثناء الناس عليه على مداراتهم في النكول عن تطبيق الحق ، ولا يحمله ذمهم إياه على ظلمهم ومجانبة الحق معهم .

وذكر من حقائق القلوب السرّ ، وجعل علامته ظهور الحكمة من قلب المسلم على لسانه ، وأن يكون محبوباً بين إخوانه المسلمين فإن محبة الله تعالى لعبده مترتبة على محبة المسلمين له ، لأن الله تعالى إذا أحب عبداً حبه لعباده .

وإذا كان سعد بن أبي وقاص المشهود له بالجنة بحاجة إلى هذه
الوصية فكيف بنا وأمثالنا ونحن نقصنا الكثير من فهم الإسلام
وتطبيقه؟

*

*

*

خطبة لعمر :

وسار سعد إلى العراق ومعه أربعة آلاف مجاهد ، وشيَّعهم عمر من مكانه في « صرار » إلى « الأعوص » ثم قام في الناس خطيباً فقال : إن الله تعالى إنما ضرب لكم الأمثال ، وصرف لكم القول ليحيي به القلوب ، فإن القلوب ميتة في صدورها حتى يحييها الله ، من علم شيئاً فليستفح به ، وإن للعدل أمارات وتبشير ، فأما الأمارات فالحياء والسخاء والهين واللين وأما التبشير فالرحمة ، وقد جعل الله لكل أمر باباً ، ويسر لكل باب مفتاحاً ، فباب العدل الاعتبار ، ومفتاحه الزهد ، والاعتبار ذكر الموت بتذكر الأموات ، والاستعداد له بتقديم الأعمال ، والزهد أخذ الحق من كل أحد قبلكه حق ، وتأدية الحق إلى كل أحد له حق ، ولا تصانع في ذلك أحداً ، واكتف بما يكفيك من الكفاف ، فإن من لم يكفه الكفاف لم يغنه شيء ، إني بينكم وبين الله وليس بيني وبينه أحد ، وإن الله قد ألزمني دفع الدعاء عنه ، فأنهؤا شكاتكم إلينا ، فمن لم يستطع فإلى من يُبلِّغناها نأخذ له الحق غير مُتَعَت (١) .

وفي هذه الخطبة البليغة نجد عمر رضي الله عنه يقرر بعض أمور العدل في الحكم بين الناس ، فيذكر من أمارات العدل أن يتصف الحاكم بخلق الحياء والسخاء والسماحة ، وذلك أن خلق الحياء يحمل صاحبه على احترام شعور الآخرين ويمنعه من فظاظة القول وغلظ الطباع ، وإذا كان المسئول بهذه الصفات فإنه يعطي أصحاب القضايا فرصة التعبير عما يريدون ، وقد يمنعهم الفظ الغليظ من ذكر تفاصيل

(١) تاريخ الطبري ٤٨٥/٣ .

القضية فيتم الحكم على غير تبيين ، وذلك يؤثر في تحقق العدل .
أما خلق السخاء فإنه يورث في نفس المسئول قناعة تحميه من
التطلع لما في أيدي الآخرين ، وبالتالي فإن نفسه تنقمع عن الظلم
ويصبح ديدنه في تنفيذ مسئوليته أن يحمي المستضعفين من شره
المتجبرين الظالمين .

أما السماح فإنها تعبير صادق عن امتلاء النفس بحب الخير
للمسلمين ، ومن مظاهرها طلاقه الوجه وبشاشته ، وقد تكون مظهرًا
من مظاهر الحياء ، لكنها مع الزمن تكون خلقًا مألوفًا ، والسماحة
بهذا المعنى إذا اتصف بها المسئول فإنها تفتح الطريق أمام ذوي
الحاجات وتكون عاملاً من عوامل إقرار العدل بين الناس .

وذكر أن تباشير العدل الرحمة ، فحيثما وجدت الرحمة وجد
العدل ، وذلك أن المستحقين للرحمة هم بحاجة للعدل ، وهم غالبًا
أوساط الناس وضعفاؤهم ، فإذا وجد الرحيم العطوف الذي يهتم
بقضايا المستضعفين فإنه جدير إذا تولى أن يعدل .

ومما ذكر عمر رضي الله عنه في هذه الخطبة أن باب العدل
الاعتبار ، والاعتبار ذكر الموت بتذكر الأموات ، والاستعداد له بتقديم
الأعمال . يعني أن الدافع الأكبر الذي يدفع المسئول إلى إقرار العدل
والباب الذي يدخل منه لتحقيق ذلك هو أن يأخذ العبرة من خاتمة من
سبقوه إلى التمكين في الأرض وتولي المناصب المهمة . وذلك بالتفكير
الدائم في تقديم الأعمال التي تخدمه وتنفعه في مستقبله بعد الموت
من خلال مسئوليته التي تحملها ، فإذا كان ديدنه التفكير في ذلك فإن
هذا الأمر يدفعه إلى تلمس أسباب العدل وتطبيقه بين الناس .

وذكر عمر رضي الله عنه أن الزهد مفتاح العدل ، وعرف الزهد بأنه أخذ الحق من كل أحد قبله حق ، وتأدية الحق إلى كل أحد له حق ، قال «ولاتصانع في ذلك أحدا ، واكتف بما يكفيك من الكفاف فإن مَنْ لم يكفه الكفاف لم يغنه شيء » وفي هذا البيان نجد أنه اعتبر الزهد في أمرين : الجاه والمال ، فأما الزهد في الجاه فأن يقبل الحق من كل من صدر منه الحق كائنا من كان ، وأن لا يحمله جاهه ومنزلته على رفض الحق إذا صدر ممن هم دونه في المنزلة الدنيوية ، وأن يؤدي الحق إلى مستحقه كائناً من كان ، وأن لا يحمله منصبه على استضعاف من هم دونه ومنعهم حقوقهم ، وأن يكون في أخذه الحق وأدائه قاصداً ذات الحق لا مُصانعة الناس ومداراتهم .

وأما الزهد في المال فأن يكتفي بمعيشة الكفاف وذلك بأن يقتصر في الإنفاق على ما لا بد منه لمثل مجتمعه .

وأما كون الزهد بنوعيه مفتاح العدل فلأن من أهم الدوافع نحو الظلم الجنوح نحو العلو في الأرض والاستكثار من متاعها فإذا رَوَّض المسئول نفسه على الزهد في الجاه والمال كان جديراً بأن يُفتح له باب العدل ، وأن يكون مصدر خير وسعادة للمسلمين .

ثم نجد عمر رضي الله عنه يختم خطبته ببيان ضخامة المسؤولية التي تحملها حيث يقول : « إني بينكم وبين الله وليس بيني وبينه أحد ، وإن الله قد ألزمني دفع الدعاء عنه ، فَأَنْهَوْا شكااتكم إلينا ، فمن لم يستطع فإلى من يبلِّغناها نأخذ له الحق غير متعتع » .

فالمسئول الأول في الأمة هو أثقلهم حملاً لأنه مسئول عن الأمة أمام الله تعالى ، ثم تتدرج المسؤوليات من بعده على حسب منزلتها .

وقوله « وإن الله قد ألزمني دفع الدعاء عنه » الظاهر أنه يريد أن الله ألزمه برفع الظلم عن المظلومين وإقرار العدل في الأرض ، وإذا تم ذلك لم يعد هناك دعاء يُرفع من المظلومين ، ويدل على ذلك قوله بعد هذه الجملة « فأنهوا شكايتكم إلينا ، فمن لم يستطع فإلى من يبلغناها نأخذ له الحق غير متعتع » يعني نأخذ له الحق بقوة وهو يشعر بعزته وكرامته ولا يتعرض في سبيل حصوله على حقه للمذلة والمهانة .

وبهذه الخطبة وأمثالها يقرر عمر رضي الله عنه قواعد العدل في الإسلام ، وبما قام به من إلزام نفسه بالعدل ، وأخذ الناس به أصبح مضرب المثل في هذا المجال .

مسير سعد إلى زُرُود :

وسار سعد بجيشه حتى نزل بمكان يقال له « زُرُود »^(١) من بلاد نجد ، وأمدّه أمير المؤمنين بأربعة آلاف ، واستطاع سعد أن يحشد سبعة آلاف آخرين من بلاد نجد ، وكان المثني بن حارثة الشيباني ينتظره في العراق ومعه اثنا عشر ألفا .

وأقام سعد بزُرود بجمع القوات استعداداً للمعركة الفاصلة مع الفرس وانتظاراً لأمر أمير المؤمنين عمر رضي الله عنهم أجمعين ، وقد كان عمر عظيم الاهتمام بهذه المعركة كما ذكر الإمام الطبري بإسناده عن ماهان أنه قال قال عمر : والله لأضربنّ ملوك العجم بملوك العرب فلم يدع رئيساً ولا ذا رأي ولا ذا شرف ولا ذا سطة ولا خطيباً ولا شاعراً إلا رماهم به ، فرماهم بوجوه الناس وغرّهم^(٢) .

(١) زُرود رمال بين الثعلبية والخزيمية بطريق الحاج من العراق سميت بذلك لأنها تزدد يعني تبتلع المياه .

(٢) تاريخ الطبري ٤٨٦/٣ - ٤٨٧ .

وبينما كان سعد مقيماً بجيشه في زرود مرض المثنى مرضاً شديداً وكان مع جيشه في أطراف العراق ولما أحس بدنو أجله كتب وصيةً إلى سعد بن أبي وقاص وولّى على من معه من الجيش بشير بن الخصاصية ، وأرسل بوصيته أخاه المعنّى بن حارثة وقد جاء في وصيته لسعد : أن لا يقاتل عدوه وعدوهم - يعني المسلمين - إذا استجمع أمرهم وملؤهم في عقر دارهم ، وأن يقاتلهم على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب وأدنى مدرة من أرض العجم ، فإن يُظهر الله المسلمين عليهم فلهم ما وراءهم ، وإن تكن الأخرى فاؤوا إلى فئة ، ثم يكونوا أعلم بسيلهم ، وأجراً على أرضهم ، إلى أن يردّ الله الكرة عليهم .

فلما انتهى إلى سعد رأيُ المثنى ووصيته ترحّم عليه وأمر المعنّى على عمله ، وأوصى بأهل بيته خيراً^(١) .

وهذه وصية ثمينة من رجل عظيم الخبرة بحرب فارس ، وهو أول من تجرأ على حربهم في الإسلام .

ومما يلفت النظر في هذا الخبر أن المثنى قد أوصى بزوجه سلمى بنت خصفة التيمية إلى سعد بن أبي وقاص ، وحملها معه المعنّى ، ثم خطبها سعد بعد انتهاء عدتها وتزوجها . فهل أراد المثنى أن يبرّ زوجته بعد رحيله بضمها إلى بطل عظيم من أبطال الإسلام شهد له رسول الله بالجنة ؟ إنه نوع من الوفاء نادر المثال ، أم أنها كانت ذكية وعاقلة وقد تكون لديها خبرة من حروب زوجها فأراد أن ينتفع

(١) تاريخ الطبري ٤٨٦/٣ - ٤٩٠ .

المسلمون بها ؟ كل ذلك محتمل ، وهو غيـض من فيض مما تحلى به ذلك الجيل الراشد من الفضائل وعظائم الأمور .

موقف جهادي للمعنى بن حارثة :

تقدم لنا عرض وصية المثني بن حارثة الشيباني لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما ، وقد حمل هذه الوصية أخوه المعنى بن حارثة ، ومما ينبغي الإشادة به الإشارة إلى موقف قام به المعنى قبل إبلاغ هذه الوصية ، وذلك أنه علم بأن أحد أمراء الفرس وهو الأزامرد بعث قابوس بن قابوس بن المنذر إلى القادسية وقال له : ادع العرب فأنت على من أجابك وكن كما كان آبائك - يعني المناذرة الذين كانوا ولاية الفرس - فنزل «القادسية» ، وكاتب بكر بن وائل بمثل ما كان النعمان يكتبهم به مقاربة ووعيداً ، فلما انتهى إلى المعنى خبره ، أسرى المعنى من « ذي قار » حتى بيته ، فأَنَامَهُ ومن معه ، ثم رجع إلى ذي قار (١) .

وهكذا نجد أن ذلكم الجيل الزاهر قد أنجب رجالاً أكفء وسادةً فضلاء ، فلا تكاد الساحة تخلو من رجل المواقف حتى يبرز فيها من يملؤها بطولة وفداء ، فحينما غاب المثني قام أخوه المعنى بعد موته وسدَّ ثلمة خطيرة تفتقر إلى الأبطال أمثاله ، وإن غارته الليلة هذه لتشبه إلى حد كبير غارات خالد بن الوليد القاصمة التي تترك الأعداء في ذهول وحيرة فلا يكادون يحاولون لَمَّ الشمل واستعادة المواقف حتى يفاجئهم بقاصمة تشل تفكيرهم وتفرق جمعهم .

(١) تاريخ الطبري ٤٩٠ / ٣ .

مسير سعد إلى العراق ووصية من عمر :

وجاء الأمر من عمر أمير المؤمنين إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما بالرحيل من « زرود » إلى العراق استعداداً لخوض المعركة الفاصلة مع الفرس وأوصاه با لوصية التالية :

أما بعد فإنني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال فإن تقوى الله عز وجل أفضل العدة على العدو، وأقوى العدة في الحرب، وأمرك ومن معك أن تكونوا أشدَّ احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما يُنصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عدونا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم، فإذا استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإنْ لا تُنصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا .

واعلموا أن عليكم في سيركم حفظاً من الله يعلمون ماتفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا إن عدونا شر منا ولن يسلط علينا وإن أسأنا، فرب قوم سلط عليهم شر منهم كما سلط على بني إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفره المجوس، فجاسوا خلال الديار ، وكان وعداً مفعولاً ، واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم، أسأل الله ذلك لنا ولكم .

وترفّق بالمسلمين في مسيرهم ، ولا تجشّمهم مسيراً يتعبهم ولا تقصّر بهم عن منزل يرفّق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم، جامّ الأنفس والكرع^(١)

(١) يعني الخيول .

وأقم بمن معك كل جمعة يوما وليلة حتى تكون لهم راحة ، يجمعون فيها أنفسهم ، ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم .

ونَحْ منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة ، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه ، ولا ترزأ أحدا من أهلها شيئا فإن لهم حرمة وذمة ابتليتكم بالوفاء بها ، كما ابتلوا بالصبر عليها ، فما صبروا لكم ففؤا لهم ، ولا تنتصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح .

وإذا وطئت أدنى أرض العدو فأذك العيون بينك وبينهم ، ولا يخف عليك أمرهم ، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه ، فإن الكذب لا ينفعك خبره وإن صدق في بعض ، والغاش عين عليك وليس عينا لك .

وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع ، وتبث السرايا بينك وبينهم ، فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم ، وتتبع الطلائع عوراتهم ، وانتق الطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك ، وتخبر لهم سوابق الخيل ، فإن لقوا عدوا كان أول من تلقاهم القوة من رأيك ، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد ، والصبر على الجلال ، ولا تخص أحدا بهوى فيضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حايبت به أهل خاصتك ، ولا تبعث طليعة ولا سرية في وجه تتخوف فيه صنعة ونكاية .

فإذا عاينت العدو فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك ، واجمع إليك مكيدتك وقوتك ، ثم لاتعاجلهم المناجزة ما لم يستكرهك قتال ، حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله ، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها ، فتصنع بعدوك كصنيعته بك ، ثم أذك حراسك

على عسكريك ، وتحفظ من البيات جهديك ، ولا تُؤتَى بأسير ليس له عهد إلا ضربت عنقه لترهب بذلك عدوك وعدو الله ، والله ولي أمرك ومن معك ، وولي النصر لكم على عدوكم والله المستعان^(١) .

وبعد قراءة هذا الخطاب العظيم المشتمل على هذه الوصايا النافعة ، يتبين لنا جانب مهم من جوانب عظمة عمر رضي الله عنه وهو خبرته العالية في التخطيط الحربي ، مع أنه لم يسبق له أن تولى قيادة جيوش من هذا النوع ، ولكن الإلهام الإلهي كان واضحاً في كل توجيهاته ووصاياه .

ومما يدل على بصيرته النافذة في التوجيه الحربي مارواه الإمام الطبري بإسناده عن الإمام الشعبي قال : كان عمر قد كتب إلى سعد مُرتحله من " زرود " : أن ابعث إلى " فرج الهند " - يعني جنوب العراق - رجلاً ترضاه يكون بحياله ويكون رداءً لك من شيء إن أتاك من تلك التخوم ، فبعث المغيرة بن شعبة في خمسمائة ، فكان بحيان^(٢) «الأبلة» من أرض العرب ، فأتى « غُضَيَّا » ونزل على جرير - يعني البجلي وقبيلته - وهو فيما هنالك يومئذ ، فلما نزل سعد بشرف كتب إلى عمر بمنزله وبمنارل الناس فيما بين غُضَيَّا إلى الجبَّانة ، فكتب إليه عمر : إذا جاءك كتابي هذا فعشّر الناس وعرفّ عليهم ، وأمر على أجنادهم وعيَّهم ، ومرّ رؤساء المسلمين فليشهدوا ، وقدرهم وهم شهود ، ثم وجههم إلى أصحابهم ، وواعدهم القادسية ، واضمم إليك المغيرة بن شعبة في خيله واكتب إليّ بالذي يستقر عليه أمركم .

(١) الفاروق القائد ، لمحمود شيت خطاب / ١٥٥ .

وقد نفذ سعد هذه الخطة فأمر أمراء الأجناد ، وعرف على كل عشرة رجلا كما كانت العرافات على عهد رسول الله ﷺ ، وعشر الناس فجعلهم عشرة أعشار وجعل على كل عشر رجلا له ذكر في الإسلام^(١).

الاستعانة بالتائبين :

ذكر الإمام الطبري في رواية له أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه لم يستعن في حروب الردة ولا على الأعاجم بمرتد ، وأن عمر استنفرهم ولم يولّ منهم أحداً^(٢) وفي رواية أخرى أن عمر قال لسعد ابن أبي وقاص في شأن طليحة بن خويلد الأسدي وعمرو بن معدي كرب الزبيدي : استعن بهما ولا تؤلّينهما على مائة .

وإننا لنستفيد من سنة هذين الخليفين الراشدين اللذين قال عنهما رسول الله ﷺ « اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر »^(٣) . إننا لنستفيد من سنتهما هذه أن من ارتد عن الإسلام ثم تاب ورجع إليه فإن توبته مقبولة ويكون معصوم الدم والمال ، وله ما للمسلمين وعليه ماعليهم غير أنه لا يؤلّى شيئاً من أمور المسلمين المهمة وخاصة الأعمال القيادية ، وذلك لاحتمال أن تكون توبته نفاقاً ، وإذا كانت كذلك وتولّى قيادة المسلمين فإنه يفسد في الأرض ويقلب موازين الحياة فيقرب أمثاله من المنافقين ويبعد المؤمنين الصادقين ، ويحوّل المجتمع الإسلامي إلى مجتمع تسوده مظاهر الجاهلية .

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٨٧ - ٤٨٨ .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٤٨٩ .

(٣) مسند أحمد ٥/ ٣٨٥ ، ٣٩٩ ، ٤٠٢ ، سنن الترمذي المناقب باب ٥٢ ، حديث ٣٧٤٢ ، سنن ابن

ماجه ، المقدمة رقم ٩٧ .

فكانت هذه السنة الراشدة من الخليفين الراشدين لحماية المجتمع الإسلامي من تسلل المفسدين إلى قيادته وتوجيهه ، ولعل من حكم هذه السنة أيضاً ملاحظة عقوبة المرتدين بنقيض قصدهم ، فالذين يرتدون من أجل الحصول على الزعامات والقيادات ، إذا أظهروا التوبة وعادوا إلى الإسلام يُحرّمون من هذه القيادات عقوبة لهم ، وردعاً لكل من تسوّل له نفسه أن يخرج عن الخط الإسلامي ، ويبحث عن الزعامة في معاداة الإسلام وموالات أعدائه .

كتاب من أمير المؤمنين عمر :

وصل إلى قائد المسلمين سعد بن أبي وقاص وهو نازل في شَراف على حدود العراق كتاب أمير المؤمنين بالمسير نحو فارس ، وقد جاء في هذا الكتاب : أما بعد فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين ، وتوكل على الله واستعن به على أمرك كله ، واعلم فيما لديك أنك تقدّم على أمة عددهم كثير وعدّتهم فاضلة ، وبأسهم شديد ، وعلى بلد منيع - وإن كان سهلاً - كؤود لبحوره وفيوضه ودآئه (١) ، إلا أن توافقوا غيضا من فيض .

وإذا لقيتم القوم أو أحداً منهم فابدؤوهم الشّدّ والضرب ، وإياكم والمناظرة لجموعهم - يعني الانتظار بعد المواجهة - ولا يخذعنكم فإنهم خدعة مكره ، أمرهم غير أمركم ، إلا أن تجادؤهم - يعني تأخذوهم بالجد - وإذا انتهيت إلى القادسية - والقادسية باب فارس في الجاهلية - فتكون مسالحك على أنقابها ويكون الناس بين الحجر والمدبر - يعني بين الصحراء والقرى العامرة - على حافات الحجر وحافات المدبر ،

(١) الداء الفضا وما اتسع من الأودية .

والجراع بينهما - يعني الأراضي السهلة - ثم الزم مكانك فلا تبرحه فإنهم إن أحسوك أنغضتهم رموك بجمعهم ، الذي يأتي على خيلهم ورجلهم وحدهم وجددهم ، فإن أنتم صبرتم لعدوكم ، واحتسبتم لقتاله ونويتم الأمانة رجوت أن تنصروا عليهم ، ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبداً ، إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم ، وإن تكن الأخرى كان الحجر في أديباركم ، فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم ، ثم كنتم عليها أجراً وبها أعلم ، وكانوا عنها أجبن ، وبها أجهل ، حتى يأتي الله بالفتح عليهم ويرد لكم الكرة (١) .

ولعلنا على ذكر من وصية المثنى لسعد في اختيار المكان الذي يستقر فيه الجيش ، فهي تشبه هذه الوصية حيث اتفق رأي عمر ورأي المثنى في اختيار المكان ، وكانت تلك الوصية من المثنى نتيجة خبرة أكثر من ثلاث سنوات في حرب الفرس ، وهذا دليل آخر على براعة عمر في التخطيط الحربي مع أنه لم تطأ قدماء أرض العراق رضي الله عنهم أجمعين .

وتتضمن هذه الوصية إبقاء الجيش بعيداً عن متناول الأعداء ، ثم رميهم بالسرايا التي تُنغص عليهم حياتهم وتثير عليهم أتباعهم حتى يضطروهم المسلمون إلى منازلتهم في المكان الذي تم اختياره .

وكتب إليه عمر أيضاً يذكره بأسباب النصر المعنوية وهي التي تأتي في المقام الأول والأكبر ، وقد جاء في كتابه : أما بعد فتعاهد قلبك وحادث جندك بالموعظة والنية والحسبة ، ومن غفل فليحدثهما ، والصبر الصبر ، فإن المعونة تأتي من الله على قدر النية ، والأجر على

(١) تاريخ الطبري ٤٩٠ / ٣ .

قدر الحسبة ، والحذر الحذر على ما أنت عليه وما أنت بسبيله ،
 واسألوا الله العافية ، وأكثروا من قول « لا حول ولا قوة إلا بالله »
 واكتب إليّ أين بلغ جمعكم ، ومن رأسهم الذي يلي مصادمتكم ؟
 فإنه قد منعني من بعض ما أردت الكتاب به قلة علمي بماهجتكم
 عليه ، والذي استقر عليه أمر عدوكم ، فصف لنا منازل المسلمين ،
 والبلد الذي بينكم وبين المدائن صفة كأني أنظر إليها ، واجعلني من
 أمركم على الجلية ، وخف الله وارجه ، ولائدل بشيء ، واعلم أن
 الله قد وعدكم ، وتوكل لهذا الأمر بما لا خلف له ، فاحذر أن تصرفه
 عنك ، ويستبدل بكم غيركم^(١).

هذا وإننا لنجد عمر رضي الله عنه في هذا النص وفي نصوص
 كثيرة داعياً إلى الله تعالى مؤثراً بدعوته حيث يلامس كلامه القلوب
 فيحييها ، فهو أولاً يوصي بتعاهد القلوب ، فإن القلب هو المحرك
 لجميع أعضاء الجسم والحاكم عليها فإذا صلح صلح الجسم كله ، ثم
 يوصيه بموعظة جنده وتذكيرهم بالإخلاص لله تعالى واحتساب الأجر
 عنده ، ويبين أن نصر الله تعالى مترتب على ذلك ، ويحذّره من
 التفريط في المسؤولية التي تحملها وما يستقبله من الفتوح ، ويذكرهم
 بوجوب ارتباطهم بالله تعالى وأن قوتهم من قوته ، ويوصي قائد
 المسلمين بأن يكون بين مقام الخوف من الله تعالى والرجاء لما عنده ،
 وهو مقام عظيم من مقامات التوحيد ، وينهاه عن الإدلال على الله
 بشيء من العمل أو من ثناء الناس ، ويذكره بما سبق من وعد الله
 تعالى بانتصار الإسلام وزوال ممالك الكفر ، ويحذّره من التهاون في

(١) تاريخ الطبري ٤٩١/٣ .

تحقيق شيء من أسباب النصر فيتحلف النصر عنهم ليتم على يد غيرهم ممن يختارهم الله تعالى .

كتاب من سعد إلى عمر :

فكتب سعد لأمير المؤمنين بصفة البلدان التي يتوقع أن تكون ميداناً للمعركة الفاصلة ، إلى أن قال : وأن جميع من صالح المسلمين من أهل السواد قبلي إلب لأهل فارس قد خفوا لهم واستعدوا لنا ، وإن الذي أعدوا لمصادمتنا رستم في أمثال له منهم ، فهم يحاولون إنغاضنا وإقحامنا ، ونحن نحاول إنغاضهم وإبرازهم ، وأمر الله بعد ماض ، وقضاؤه مسلّم إلى ما قدر لنا وعلينا ، فنسأل الله خير القضاء وخير القدر في عافية .

فكتب إليه عمر : قد جاءني كتابك وفهمته ، فأقم بمكانك حتى ينغض الله لك عدوك ، واعلم أن لها مابعداها ، فإن منحك الله أدبارهم فلا تنزع حتى تقتحم عليهم المدائن فإنه خرابها إن شاء الله . وصار عمر ومن معه يدعون لسعد وللمسلمين معه (١) .

وهكذا كانوا يجمعون بين فعل الأسباب والتوكل على الله تعالى ، فبعد أن أتقن عمر رضي الله عنه وأكمل كل الأسباب الممكنة ظل ملازماً للدعاء الذي يستنزل به نصر الله جل وعلا وتأييده لعباده المؤمنين .

كتاب من عمر إلى سعد :

وبينما كان سعد وجيشه متوجهين نحو القادسية ينتظرون بروز الأعداء لهم ورد إلى سعد كتاب من أمير المؤمنين فيه تثبيت لهم ،

(١) تاريخ الطبري ٤٩٢/٣ .

وتقوية لعزائمهم وقد جاء فيه : إني قد أُلقيَ في رُوعي أنكم إذا لقيتم العدو هزمتموهم فاطَّرحوا الشك ، وآثروا اليقين عليه ، فإن لآعب أحد منكم أحداً من العجم بأمان ، أو قرفه - يعني رماه - بإشارة أو بلسان ، فكان لا يدري الأعجمي ما كلمه به ، وكان عندهم أمانا فأجروا ذلك له مجرى الأمان ، وإياكم والضحك ، والوفاء الوفاء فإن الخطأ بالوفاء بقية ، وإن الخطأ بالغدر الهلكة ، وفيها وهنكم وقوة عدوكم ، وذهاب ريحكم وإقبال ريحهم ، واعلموا أنني أحذركم أن تكونوا شيئاً على المسلمين وسبباً لتوهينهم (١) .

وهكذا أتحف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه الجيش الإسلامي هناك برائعة من روائعه في التوجيه والإرشاد ، ولكم يتمنى المهتمون بهذه الروائع أن لو اتصل البريد بينه وبين قاداته في كل المعارك كما هو الحال في القادسية ، إذاً لأتحف الأمة بالكثير من هذه الروائع .

هذه الموعظة فيها تثبيت للمؤمنين لأن عمر قد أخبر عنه النبي ﷺ بأنه من المُلهمين فقال : « إنه كان فيمن قبلكم أناس محدثون من غير أن يكونوا أنبياء فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر » (٢) وقال ﷺ « إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه » (٣) .

فإذا جاء المسلمين خبر عمر بأن الله ألقى في قلبه بأنهم سيهزمون عدوهم ، فإن ذلك يجعلهم يندفعون في قتال عدوهم وهم واثقون بالنصر .

(١) تاريخ الطبري ٤٩٢/٣

(٢) صحيح البخاري ، فضائل الصحابة ، باب ٦ ، صحيح مسلم ، فضائل الصحابة رقم ٢٣ .

(٣) سنن الترمذي ، المناقب ، باب ٦٥ ، سنن أبي داود ، الإمارة ، رقم ٢٩٦١ .

لقد كان عمر رضي الله عنه يعيش مع الجيش الإسلامي بكل مشاعره وأحاسيسه ، ولقد تكاثفت عليه الهموم حتى أصبح لا يهنأ بعيش ولا يقرُّ له قرار حتى يسمع أخبارهم ، وإن في مثل هذا الإلهام من الله تعالى تخفيفاً من هذا العبء الكبير الذي تحمله عمر وتثبيتاً للمسلمين وتقوية لقلوبهم .

ونجد عمر رضي الله عنه في هذا الخطاب يذكّر المسلمين بشيء من عوامل النصر المعنوية حيث يحثهم على الالتزام بشرف الكلمة والصدق في القول والوفاء بالعهود ، ولو كان من التزم بذلك أحد أفراد المسلمين ، أو كان هناك خطأ في الفهم فلم يقصد المسلم الأمان وفهمه العدو أماناً .

إن الانتصار على الأعداء ليس في الانتصار الحربي وحده ، وإنما هو بالدرجة الأولى في انتصار المبدأ الذي يمثله المنتصر ومدى قناعة الناس به ، وإنما يتم ذلك بكون المبدأ حقاً وكون من يمثله متخلفاً بمكارم الأخلاق ، وهكذا كان الصحابة رضي الله عنهم وهم يعرضون على الناس دين الله الحق ، ويمهدون لعرضه بإزالة قوى الباطل التي تحول دون بلوغ دعوة الحق .

موقف جهادي لزُهرة ابن الحوية :

من الأمور التي كان يتميز بها قادة الصحابة رضي الله عنهم إسناد المهمات إلى الأكفاء من الرجال ، ومن هؤلاء الذين ولاهم سعد بن أبي وقاص زُهرة بن عبد الله بن الحَوَيْة ، وقد ولاه على مقدمة الجيش ، وقد جرى له موقف يدل على أهليته لذلك ، فقد أخرج ابن جرير بإسناده عن كَرَب بن أبي كرب العُكْلِي - وكان في المقدمات أيام

القادسية - قال : قدّمنا سعد من « شراف » فتزلنا بعذيب الهجانات ، ثم ارتحل ، فلما نزل علينا بعذيب الهجانات وذلك في وجه الصبح ، خرج زهرة بن الحوية في المقدمات ، فلما رُفِعَ لنا العذيب - وكان من مسالحهم - استبنا على بروجهم ناساً ، فما نشاء أن نرى على برج من بروجهم رجلاً أو بين شرفتين إلا رأيناه ، وكنا في سرعان الخيل - يعني أوائلها - فأمسكنا حتى تلاحق بنا كُثف - يعني جماعة - ونحن نرى أن فيها خيلاً ، ثم أقدمنا على العذيب ، فلما دنونا منه خرج رجل يركض نحو القادسية فأنتهينا إليه فدخلنا فإذا ليس فيه أحد ، وإذا ذلك الرجل هو الذي كان يتراءى لنا على البروج وهو بين الشرف مكيدة ، ثم انطلق بخبرنا ، فطلبناه فأعجزنا ، وسمع بذلك زهرة فاتبعنا فلحق بنا وخلفنا واتبعه ، وقال : إن أفلت الربى أتاهم الخبر ، فلحقه بالخذق فطعنه فجدّله فيه .

وكان أهل القادسية يتعجبون من شجاعة ذلك الرجل ومن علمه بالحرب ، لم يرَ عَيْنُ قوم قط أثبت ولا أربط جأشاً من ذلك الفارسي ، لولا بعد غايته - يعني زهرة - لم يلحق به ولم يصبه زهرة (١) .

أقول : إن في هذا دلالة على حسن اختيار أمراء المسلمين للقادة ، حيث يضعون الرجل المناسب في المكان المناسب ، فإن القوم الذين طلبوا ذلك الرجل فأعجزهم لديهم وسائل من نفس النوع الذي لدى زهرة ، فكلهم كانوا يركبون الخيل ، ولكن زهرة كان يتفوق عليهم بأنه كان يحمل الهم الكبير الذي يحمله سعد وعمر ، وإن الذي أوصل زهرة إلى مقصوده ليس الفرس التي كان يمتطيها وإنما أوصله همه الكبير وشعوره بالمسئولية .

(١) تاريخ الطبري ٤٩٣/٣ .

إن الذي كان يسيطر على تفكير زهرة وهو يطارد ذلك الرجل أن يحول دون وصول عين العدو إليهم فيعلموا بقدوم المسلمين وقد تجاوز في سبيل ذلك كل الاحتمالات الأخرى . . من ثبات ذلك الرجل وقتاله وهو - كما جاء في آخر الرواية - موصوف بالشجاعة والخبرة بالحرب - إلى احتمال ظهور كمائن في الطريق تقضي عليه وقد انفرد عن أصحابه . وهكذا فليكن الرجال .

وفي هذا النص ما يؤيد وصف عمر لأهل فارس بأنهم خَدَعَة مَكْرَة فإن ذلك الرجل الفارسي أوهم المسلمين بأن في القصر رجلا كثيرين بوقوفه أمام كل شرف القصر حتى استطاع أن يفلت لولا أن تداركه زهرة بتوفيق الله ثم بحزم هذا القائد وجده في الأمر .

حروب خاطفة ومكاتبات بين سعد وعمر :

تبين لنا أن جيش المسلمين بقيادة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه نزل في القادسية ، وأن الخطة الحربية التي رسمها لهم عمر رضي الله عنه أن يبقوا هناك حتى يأتي إليهم الأعداء ، وقد أدرك الفرس خطورة منازل المسلمين وهم على طرف الصحراء ، فتباطأوا في الإقدام عليهم لعلهم يتقدمون في بلادهم ، ولكن سعدا بقي هو وجيشه في القادسية ، وبث السرايا للإغارة على قرى العراق لمحاولة الضغط على حكومة فارس واستخراجها من بلادها وحصونها المنيعة .

ويكفي أن نورد مثالا واحداً لهذه الغارات التي قام بها المسلمون بنجاح ، وأمنوا بسببها الحصول على الزاد الذي يكفيهم لعدة شهور إلى جانب الهدف الأول وهو إلجاء الفرس إلى التقدم إليهم .

فمن ذلك أن سعدا رضي الله عنه بعث عاصم بن عمرو التميمي إلى أسفل الفرات ، فسار حتى أتى « ميسان » فطلب غنما أو بقرا فلم يقدر عليها ، وتحصن منه من في الأفدان ، ووغلوا في الآجام ووغل حتى أصاب رجلا على طَفٍّ أجمّة - يعني إلى جانب شجر مُلتَفٍّ - فسأله واستدله على البقر والغنم ، فحلف له وقال : لا أعلم ، وإذا هو راعي مافي تلك الأجمّة ، فصاح منها ثور : كذب والله ، وها نحن أولاء ، فدخل فاستاق الثيران ، وأتى بها العسكر ، فقسم ذلك سعد على الناس فأخصبوا أياما .

هذا وإن أول ما يلفت النظر في هذا الخبر حصول هذه الكرامة العظيمة لذلك الجيش الذي ضم عدداً من الصحابة رضي الله عنهم ، والكرامات منّة من الله تعالى يمنُّ بها على أوليائه الصالحين إما لإنقاذهم من الهلاك والضرر ، أو لتقوية إيمانهم ، أو لإرهاب عدوهم ، إلى غير ذلك من الحكم العظيمة ، وقد تجتمع هذه الحكم في كرامة واحدة . فالناس لم يشهدوا أن الثيران تتكلم بكلام البشر ولكنها خاطبت هؤلاء المسلمين وكذبت راعيها ودلّت على نفسها .

وكم كان أثر مثل هذه الكرامة عظيماً ، والمسلمون مقبلون على معركة مرعبة ، لا يعلمون ما ينتظرهم فيها من مفاجآت وأهوال ، كما أن أثرها عظيم على أهل تلك البلاد حيث ستعلو في أعينهم مكانة المسلمين . ولن يتحمسوا لمؤازرة أعدائهم .

وقد جاء في آخر هذه الرواية أن الحجاج بن يوسف الثقفي بلغه هذا الخبر في زمانه فأرسل إلى نفر ممن شهدوا أحدهم نذير بن عمرو والوليد ابن عبد شمس وزاهر ، فسألهم فقالوا : نعم ، نحن سمعنا

ذلك ، ورأيانه واستقناها (١) ، فقال : كذبتُم ، فقالوا : كذلك إن كنت شهادتها وغبنا عنها ، فقال : صدقتم ، فما كان الناس يقولون في ذلك ؟ قالوا : آية تبشير يُستدلُّ بها على رضى الله سبحانه ، وفتح عدونا ، فقال : والله ما يكون هذا إلا والجمع أبرار أتقياء ، قالوا : والله ماندرى ما أجنت قلوبهم ، فأما ما رأينا فإننا لم نر قوما قط أزهد في دنيا منهم ، ولا أشد لها بغضا ، ما اعتدَّ على رجل منهم في ذلك اليوم بواحدة من ثلاث : لا بيجن ولا بغدر ولا بغلول (٢) .

وإن في هذا الثناء البالغ على أفراد ذلك الجيش ما يدلنا على الصفات التي أهلتهم لبلوغ رضوان الله تعالى أولاً ، وحصولهم على النصر المؤزر ثانياً ، حيث وصفوهم بالشجاعة والوفاء بالعهود ، والأمانة ، وإن قوما يتصفون كلهم بهذه الصفات العالية لجديرون بالنصر والتأييد .

هذا وإن في ثنايا هذا الخبر ما يدلنا على المعاناة الصعبة التي واجهها الجيش الإسلامي في طبيعة تلك البلاد حيث يطول فيها شجر القصب ويلتف بحيث يستر من كان بداخله تماماً ، فأجام القصب تُشكِّلُ مكامن جيدة للمحاربين وحصونا ساترة لأهل تلك البلاد ، ولكنها عوائق وبلاء على الغزاة ، ومع ذلك نجح المسلمون في اختراق أرض العراق ، واستخدموا هذه المكامن أحياناً لصالحهم ، وهذا يدل على فرط شجاعتهم وجسارتهم .

وذكر ابن جرير في سياق هذه الرواية التي أخرجها عن كُرب بن

(١) يعني البقر .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٤٩٤ - ٤٩٥ .

أبي كرب العكلي أنه قال : وبثَّ - أي سعد - الغارات بين كسكر والأنبار، فحوَّوا من الأطمعة ماكانوا يستكفون به زمانا وبعث سعد عيوناً إلى أهل الحيرة وإلى صلوبا ليعلموا له خبر أهل فارس فرجعوا إليه بالخبر بأن الملك قد ولَّى « رستم بن الفرخزاذ الأرمني » حربه، وأمره بالعسكرة ، فكتب بذلك إلى عمر ، فكتب إليه عمر : لا يكرُبَنَّك ما يأتيك عنهم ، ولا ما يأتونك به ، واستعن بالله وتوكل عليه ، وابعث إليه رجالا من أهل المنطرة والرأي والجلد يدعونه ، فإن الله جاعل دعاءهم توهينا لهم وفلجاً عليهم ، واكتب إليَّ في كل يوم (١) .

وسياتي إن شاء الله عند عرض كلام الوفود تصديق قول أمير المؤمنين هذا حيث كانت وفادة الوفود على كسرى ورستم من أقوى العوامل لهزيمتهم النفسية قبل أن يدخلوا المعركة مع المسلمين .

ونجد عمر رضي الله عنه في هذا الخطاب يركز على اختيار الوفود بأن يكونوا من أهل المنظر والهيئة الحسنة، وأن يكونوا من أهل الرأي السديد وأن يكونوا من أهل الشجاعة، وإن هذه الأمور الثلاثة إذا اجتمعت في شخص فإنه جدير بأن يصل إلى مقصوده ومقصود من أرسله فإن أصحاب المنظر والهيئة الحسنة يورثون في قلوب من يلقونهم مهابة قبل أن يتكلموا، فإذا تكلموا وكانوا على حصافة في الرأي فإنهم يأخذون بمسامع من أسمعوه كما أخذوا ببصره، فتكتمل لهم صورة الكمال اللائق بهم، ولا بد مع ذلك من الأمر الثالث وهو الشجاعة لأن من فقد الشجاعة لا يستطيع أن يعبر عما يريد وإن كان من أهل الرأي والنباهة .

(١) تاريخ الطبري ٤٩٥/٣ .

بعث وفد المسلمين إلى كسرى :

وقد نفذ سعد هذا الأمر فأحسن الاختيار فبعث أربعة عشر رجلاً من وجوه المسلمين كما جاء في رواية الإمام الطبري وهم النعمان بن مقرن المزني ، وبسر بن أبي رهم الجهني ، وحَمَلَة بن جُوية الكناني ، وحنظلة ابن الربيع التميمي ، وقرات بن حبان العجلي ، وعدي بن سهيل ، والمغيرة بن زرارة بن النباش الأسيدي ، وعطارد بن حاجب التميمي ، والأشعث بن قيس الكندي ، والحارث بن حسان الذهلي ، وعاصم بن عمرو التميمي ، وعمرو بن معد يكرب الزبيدي ، والمغيرة ابن شعبة الثقفي والمعنى بن حارثة الشيباني وكان أميرهم النعمان بن مقرن (١).

وسنختار إحدى الروايات التي ذكرها الإمام ابن جرير في بيان المحاورة التي جرت بين هؤلاء وكسرى وهي الرواية التي أخرجها بإسناده عن بنت كيسان الضبيّة عن بعض سبي القادسية ممن حسن إسلامه وحضر هذا اليوم الذي قدم فيه وفود العرب قال : وثاب إليهم الناس ينظرون إليهم ، فلم أر عشرة قط يعدلون في الهيئة بألف غيرهم - يعني على التقدير وإلا فهم أربعة عشر - قال : وخيلهم تخبط ويوعد بعضها بعضاً ، وجعل أهل فارس يسوءهم ما يرون من حالهم وحال خيلهم ، فلما دخلوا على « يزْدَجَرْد » أمرهم بالجلوس وكان سيء الأدب ، فكان أول شيء دار بينه وبينهم أن أمر الترجمان بينه وبينهم فقال : سلهم ما يسمون هذه الأردية ؟ فسأل النعمان ، وكان على الوفد : ماتسمي رداءك ؟ قال : البُرْد ، فتطير وقال : « بردجهان »

(١) تاريخ الطبري ٤٩٦/٣ .

وتغيرت ألوان فارس وشق ذلك عليهم ، ثم قال : سلهم عن أحذيتهم ، فقال : ماتسمون هذه الأحذية ؟ فقال : النعال ، فعاد لمثلها ، وقال : « ناله ناله في أرضنا ، ثم سأله عن الذي في يده فقال : سوط - والسوط بالفارسية الحريق - فقال : أحرقوا فارس أحرقهم الله ، وكان تطيره على أهل فارس ، وكانوا يجدون من كلامه .

وهكذا وجدنا أن الله تعالى قدر أن تكون أسماء هذه الأشياء بالعربية مطابقة لأسماء منكرة عندهم تثير تشاؤمهم ، وكانوا قوما قد غلب عليهم التشاؤم والرجوع إلى تخرصات الكهان ، فأثر ذلك عليهم وهز من عزتهم وكبريائهم ، وهكذا نجد كل أمة تنحرف عن التوحيد الخالص لله عز وجل تكون عرضة لشياطين الجن والإنس يلعبون بها ويوغلون بها في أحوال الشرك والوثنية .

واستبشر أعضاء الوفد الإسلامي بذلك فكان هذا أول تبشير انتصارهم على أعدائهم ، وبين لهم هوان هذه الأمة التي تعلق مستقبلها على كلمات لا أثر لها في الحقيقة والواقع .

قال : ثم قال الملك : سلهم ماجاء بكم ؟ ومادعاكم إلى غزونا والولوع ببلادنا ؟ أمن أجل أنا أجمناكم وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا؟

فقال لهم النعمان بن مقرن : إن شئتم أحببت عنكم ومن شاء أثرته ، فقالوا : بل تكلم ، وقالوا للملك : كلام هذا الرجل كلامنا ، فتكلم النعمان فقال : إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولا يدلنا على الخير ويأمرنا به ، ويعرفنا الشر وينهانا عنه ، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة ، فلم يدع إلى ذلك قبيلة إلا صاروا فرقتين ، فرقة تقاربه

وفرقه تباعده، ولا يدخل معه في دينه إلا الخواص ، فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث ثم أمر أن ينبذ إلى من خالفه من العرب ، وبدأ بهم وفعل ، فدخلوا معه جميعاً على وجهين ، مكره عليه فاغبت ، وطائع أتاه فازداد ، فعرفنا جميعاً فضل ما جاء به على الذي كنا عليه من العداوة والضيق ثم أمرنا أن نبداً بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف ، فنحن ندعوكم إلى ديننا ، وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح كله ، فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه الجزاء ، - يعني الجزية - فإن أبيتم فالمناجزة ، فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه ، على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم ، وإن اتقيتمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم ، وإلا قاتلناكم .

وهذا كلام قوي رصين تمثل به ما أراده عمر رضي الله عنه من حصافة الرأي وشجاعة اللسان ، وقد بين به النعمان رضي الله عنه الهدف الواضح الذي من أجله غزا المسلمون بلاد الفرس وغيرها ، وهو الدعوة إلى الإسلام ، فلو أسلم الفرس وطبقوا أحكام الإسلام لرجع المسلمون عن بلادهم وتركوهم وشأنهم ، ولو خضعوا لحكم دولة الإسلام إذا لم يدخلوا فيه ودفعوا الجزية لتركهم المسلمون ورجعوا عنهم وكان لهم حق الحماية من قبل المسلمين مقابل ما يأخذون منهم من الجزية .

قال : فتكلم يزدجرد ، فقال : إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ، ولا أسوء ذات بين منكم ، قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي فيكفونناكم ، لاتغزون فارس ، ولا تظمعون أن تقوموا

لهم ، فإن كان عددٌ لَحَقَ (١) فلا يغرنكم منا ، وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتًا إلى خصبكم ، وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملأنا عليكم ملكا يرفق بكم .

هذا وإن كلام ملك الفرس هذا يدل على أنه لم يفهم الأهداف العالية التي جمعت العرب ومن أسلم معهم ووحدت قلوبهم وحوَّلَتْهم من قبائل متفرقة متناحرة إلى دولة واحدة ، وقوة عظمى ، فهو لا يزال يذكر واقعهم الأول قبل الإسلام ، ثم يحاول أن يساومهم بإغرائهم بالمال ليندفعوا عن بلاده .

وهكذا شأن رعماء الجاهلية دائمًا في معاملتهم مع المسلمين ، إن أحسوا ضعفًا فيهم هجموا عليهم بشراسة وعنف واتخذوهم لهم عبيداً ، وإن آنسوا منهم قوة وتماسكا حاولوا مساومتهم وإغراءهم حتى يتمكنوا منهم بعد ذلك بالمكر والخديعة .

وحينما يستطيع المسلمون عرض أهدافهم بتجرد وحكمة وقوة فإنهم يتمكنون من نشر دعوة الإسلام في الأرض ، وتحول الأمم القوية التي كانت تحارب الإسلام إلى الانضمام مع أمة الإسلام ، فتكون قوتها قوة للمسلمين .

قال : فأسكت القوم ، فقام المغيرة بن زرارة بن النباش الأسدي ، فقال : أيها الملك ، إن هؤلاء رؤوس العرب وجوهمهم ، وهم أشراف يستحيون من الأشراف ، وإنما يكرم الأشراف الأشراف ، ويعظم حقوق الأشراف الأشراف ، ويفخّم الأشراف الأشراف ، وليس كلُّ ما أرسلوا به جمعه لك ، ولا كل ما تكلمت به أجابوك

(١) أي كثر عددكم .

عليه ، وقد أحسنوا ولا يحسنُ بمثلهم إلا ذلك ، فجأوبني لأكون الذي أبلغك ، ويشهدون على ذلك ، إنك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالما ، فأما ما ذكرت من سوء الحال ، فما كان أسوء حالا منا ، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع ، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات ، فترى ذلك طعامنا ، وأما المنازل فلإنما هي ظهر الأرض ، ولانلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم ، ديننا أن يقتل بعضنا بعضا ، ويغير بعضنا على بعض ، وإن كان أحدا ليدفن ابنته وهي حية كراهية أن تأكل من طعامنا .

فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك ، فبعث الله إلينا رجلا معروفا ، نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده ، فأرضه خير أرضنا ، وحسبه خير أحسابنا ، وبيته أعظم بيوتنا ، وقبيلته خير قبائلنا ، وهو بنفسه كان خيرنا ، في الحال التي كان فيها أصدقنا وأحلمنا ، فدعانا إلى أمر فلم يجبه أحد قبل تربِّ كان له وكان الخليفة من بعده ، فقال وقتلنا ، وصدق وكذبنا ، وزاد ونقصنا ، فلم يقل شيئا إلا كان ، ففذف الله في قلوبنا التصديق له واتباعه ، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين فما قال لنا فهو قول الله ، وما أمرنا فهو أمر الله ، فقال لنا : إن ربكم يقول : إني أنا الله وحدي لا شريك لي ، كنت إذ لم يكن شيء ، وكل شيء هالك إلا وجهي ، وأنا خلقت كل شيء وإلي يصير كل شيء ، وإن رحمتي أدركتكم فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التي بها أنجيكم بعد الموت من عذابي ، ولأحلِّكم داري دار السلام ، فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق ، وقال : من تابعكم على هذا فله مالكم وعليه ما عليكم ، ومن أبى فاعرضوا

عليه الجزية ، ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم ، ومن أبى فقاتلوه ،
فأنا الحكم بينكم ، فمن قُتل منكم أدخلته جنتي ، ومن بقي منكم
أعقبته النصر على من ناواه ، فاختر إن شئت الجزية عن يد وأنت
صاغر ، وإن شئت فالسيف ، أو تُسلم فتنجي نفسك .

وهذه الإجابة من المغيرة بن زرارة الأسدي تدل على سرعة بديهته
ومقدرته الفائقة على الإحاطة بأطراف القضية ، والوعي الشامل
لمتطلبات الدعوة الإسلامية .

وإن صدور هذا الكلام البليغ من رجل لم تكن له شهرة تاريخية
ليدلنا على تعدد الكفاءات عند المسلمين .

وفي هذه الإجابة بيان مفيد لمعالم الجاهلية من رجل عاشها
وخبَّرَها قبل الإسلام ، ثم خَبَرَ الإسلام بعد ذلك ، ولهذا كان بيانه
كاشفا لظلمات الجاهلية ، ومُبْرَزا لأنوار الإسلام .

وفي بيان منهج الدعوة بالنسبة لغير المسلمين أفاد بأن الله تعالى
أمر المسلمين بدعوة الكفار أولاً إلى الدخول في الإسلام فإن أجابوا
أصبحوا إخوة للمسلمين لهم مالهم وعليهم ما عليهم ، وإن أبوا
وأصروا على البقاء على دينهم فلهم أن يمارسوا دينهم في حياتهم
الشخصية ، ومن حقهم أن تحميهم دولة الإسلام كما تحمي أبناءها في
مقابل دفع الجزية ، مع ضرورة الاستسلام والشعور بالتبعية ، وأن
يكون الحكم في الأرض للإسلام ، فإن أبوا وأصروا على بقاء دولتهم
وحكمهم ولم يستسلموا للمسلمين فلا بد من قتالهم حتى تكون كلمة
الله هي العليا ، فمن قُتل من المسلمين فهو شهيد مصيره إلى الجنة ،
ومن بقي أعقبه الله النصر على من عاداه .

وإن هذا البيان لا يترك مجالاً للتفكير في مساومة المسلمين في التخلي عن مطالبهم ، كما أنه يَهْزُ من موقف العدو ويجعله في قلق دائم ، ويقين راسخ بأن المسلمين إما أن يصلوا إلى أهدافهم أو يموتوا دونها ، وإن قوما قد وصلوا إلى هذا المستوى من الإيمان لا يمكن أن يقف أمامهم شيء .

ولقد أدرك كسرى من هذه المحاوراة أن موقف الفرس مع المسلمين عصب ، وأن لهم أهدافاً لا بد أن يبلغوها كما سيتبين في حوارهم مع رستم ، ولكنه أراد أن يستعمل مع المسلمين أنواعاً من الحروب النفسية التي تعتمد على الكذب والتهويل والكبرياء فقال للمغيرة بن زرارة الذي تولى محاورته « أتستقبلني بمثل هذا ؟

فقال : ما استقبلت إلا من كلمني ، ولو كلمني غيرك ، لم أستقبلك به .

فقال : لولا أن الرسل لا تقتل لقتلت لقتلتكم ، لاشيء لكم عندي ، وقال : ائتوني بوقر من تراب ، فقال : احمלוه على أشرف هؤلاء ، ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن ، ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أنني مرسل إليكم رستم حتى يدفنكم ويدفنه في خندق القادسية ، وينكّل بكم وبه من بعد ، ثم أوردته بلادكم حتى أشغلكم في أنفسكم بأشد مما نالكم من سابور .

ولئن كان هذا التهديد يجدي ويغني من ساسة العالم آنذاك فلن يزيد المسلمين إلا ثقة بنصر الله تعالى وقوة على أعدائهم ، كما لم يزداهم الترغيب السابق إلا رسوخاً في التمسك بأهدافهم النبيلة .

ثم قال كسرى : من أشرفكم ؟ فسكت القوم ، فقال عاصم بن

عمرو: أنا أشرفهم أنا سيد هؤلاء فحملني ، فقال : أكذاك ؟
قالوا: نعم .

وإنما كان سكوت القوم من باب الورع وكراهية الترفع ، ولكن
عاصما غلب جانب افتداء الإخوة بالنفس ليحمل التراب عنهم ،
وكونه ينسب الشرف لنفسه ليس مقصوداً لذاته كما يعلم بذلك
أصحابه ، وبهذا يكون قد سبق أصحابه في الخروج من التردد بين
كراهية نسبة الشرف إلى النفس ومحبة خدمة الإخوة .

فحمل التراب على عنقه حتى أتى راحلته فحملة عليها ولما وصل
القادسية قال : بشروا الأمير بالظفر ، وتفاءل بأن المسلمين سيملكون
أرض الفرس ، ولما دخل على سعد فأخبره الخبر قال : أبشروا فقد
والله أعطانا الله أقاليد ملكهم .

وهكذا نجد أن الله سبحانه مع أوليائه المؤمنين فَيُقَدِّرْ لهم مايزيد
في قوتهم ويوهن أعداءهم ، فقد فرح المسلمون بهذه البشرى
وجعلوها علامة على الفتح .

أما الفرس فقد جاء في هذه الرواية أنه اشتد عليهم ماصنع
المسلمون ، وصنع الملك من قبول التراب ، وراح رستم من ساباط إلى
الملك يسأله عما كان من أمره وأمرهم ، وكيف رأيهم ، فقال الملك :
ماكنت أرى أن في العرب مثل رجال رأيتم دخلوا علي ، وما أنتم
بأعقل منهم ، ولا أحسن جواباً منهم ، وأخبره بكلام متكلمهم ،
وقال : لقد صدقني القوم ، لقد وعد القوم أمراً ليدركه أو ليموتن
دونه ، على أنني وجدت أفضلهم أحققهم ، لما ذكروا الجزية أعطيتهم
تراباً فحملة على رأسه وخرج به ، ولو شاء اتقى بغيره . وأنا لا

أعلم . قال : أيها الملك إنه لأعقلهم ، وتطير إلى ذلك وأبصرها دون أصحابه .

وخرج رستم من عنده كئيباً غضبان - وكان منجماً كاهناً - فبعث في أثر الوفد ، وقال لثقته : إن أدركهم الرسول تلافينا أرضنا ، وإن أعجزوه سلبكم الله أرضكم وأبناءكم ، فرجع الرسول من الحيرة بفواتهم ، فقال : ذهب القوم بأرضكم غير ذي شك ، ماكان من شأن ابن الحجامة الملك ، ذهب القوم بمفاتيح أرضنا ، فكان ذلك ممّا زاد الله به فارس غيظاً (١) .

ومن هذا الحوار بين كسرى ورستم يتبين لنا أن كسرى قد أدرك عظمة المسلمين ، ولكنه غلب عليه الكبر والاعتزاز بالملك فتصرف بحماقة حيث حملهم التراب ، وتشاءم من ذلك رستم ، وكان سلوكهم في السلم والحرب يقوم على الطيرة كما كان يفعل ذلك أهل الجاهلية في بلاد العرب .

أما المسلمون فإنهم تفاءلوا بذلك خيراً وفهموا منه البشارة بامتلاك أرض الفرس ، وهكذا علّمهم النبي ﷺ فقد كان يتفاءل بالاسم الحسن ونحو ذلك مما يبعث الفرحة والسرور ، ويبشر المسلمين على إثر ذلك ، لكنه لم يكن يتشاءم . ولم يبن أي سلوك في حياته أو حياة أصحابه على الطيرة ، بل اعتبر ذلك شركاً كما جاء في قوله « من رده الطيرة من حاجة فقد أشرك » (٢) .

وهكذا رأينا أن التوحيد أعطى المسلمين الثقة واليقين والإقدام

(١) تاريخ الطبري ٤٩٨/٣ - ٥٠٢ .

(٢) مسند أحمد ٢/٢٢٠ .

بحكمة من غير نظر إلى العوائق المتخيلة في الأذهان ، بينما أوقع الشرك أصحابه بالحيرة والتردد ، وتصور العوائق التي لا وجود لها في الواقع .

ومن هنا نعلم الأثر العظيم للتوحيد في نصر المسلمين ، والأثر البالغ للشرك في خذلان المشركين .

حوار بين ملك الفرس وقائده :

ولقد كان مما صنع الله تعالى للمسلمين ووهن به كيد أعدائهم أن خلافاً حاداً نشأ بين ملك الفرس « يزدجرد » وكبير قادتهم « رستم » حول التخطيط للحرب ، حيث أصر ملك الفرس على أن يتولى رستم قيادة الجيش ، وحاول رستم بكل وسيلة أن يقنع الملك برأيه في إرسال قائد آخر ، وكان مما قال له رستم : أيها الملك دعني فإن العرب لا تزال تهاب العجم مالم تُضَرَّهم بي ، ولعل الدولة أن تثبت بي فيكون الله قد كفى ، ونكون قد أصبنا المكيدة ورأي الحرب ، فإن الرأي فيها والمكيدة أنفع من بعض الظفر ، فأبى عليه ، وقال : أي شيء بقي ؟ فقال رستم : إن الأناة في الحرب خير من العجلة ، وللأناة اليوم موضع ، وقتال جيش بعد جيش أمثل من هزيمة بكرة ، وأشد على عدونا ، فلج وأبى ، فخرج [رستم] حتى عسكر بساباط (١) .

وإن هذه المحاورة في محاورات أخرى تدل على أن رستم كان كارها لهذه الحرب متشائماً منها ، وكان يتوقع أن تكون نتيجتها لصالح المسلمين ومما قال رستم في ذلك : أيها الملك لقد اضطرني تضييع الرأي إلى إعظام نفسي وتركيتها ، ولو أجد من ذلك بدءاً لم

(١) تاريخ الطبري ٥٠٤ / ٣ .

أَتَكَلِّمُ بِهِ ، فَأَنْشُدُكَ اللَّهَ فِي نَفْسِكَ وَأَهْلِكَ وَمَلِكِكَ ، دَعْنِي أُقِمَّ
بِعَسْكَرِي وَأَسْرُحَ الْجَالِنُوسَ ، فَإِنْ تَكُنْ لَنَا فَذَلِكَ ، وَإِلَّا فَأَنَا عَلَى
رَجُلٍ وَأَبْعَثُ غَيْرَهُ ، حَتَّى إِذَا لَمْ نَجِدْ بُدًّا وَلَا حِيلَةَ صَبِرْنَا لَهُمْ وَقَدْ
وَهَنَّا هُمْ وَحَسَرْنَا هُمْ وَنَحْنُ جَائِعُونَ ، فَأَبَى إِلَّا أَنْ يَسِيرَ .

وَقَالَ لَهُ أَيْضًا : إِنْ غَنَاءَ الْجَالِنُوسَ كَغَنَائِي وَإِنْ كَانَ اسْمِي أَشَدَّ
عَلَيْهِمْ مِنْ اسْمِهِ فَإِنْ ظَفَرَ فَهُوَ الَّذِي نَرِيدُ ، وَإِنْ تَكُنْ الْآخَرَى وَجْهَتْ
مِثْلَهُ وَدَفَعْنَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ إِلَى يَوْمٍ مَا ، فَإِنِّي لَا أَزَالُ مَرْجُوًّا فِي أَهْلِ
فَارَسَ ، مَا لَمْ أَهْزَمْ يَنْشُطُونَ ، وَلَا أَزَالُ مَهِيَّبًا فِي صُدُورِ الْعَرَبِ ،
وَلَا يَزَالُونَ يَهَابُونَ الْإِقْدَامَ مَا لَمْ أَبَاشِرْهُمْ ، فَإِنْ بَاشَرْتَهُمْ اجْتَرَوْا آخَرَ
دَهْرَهُمْ ، وَانْكَسَرَ أَهْلُ فَارَسَ آخَرَ دَهْرَهُمْ ^(١) .

رُؤْيَى مَزْعُجَةٍ لِرِسْتَمَ :

وَمِنْ هَذَا الْحَوَارِ يَتَبَيَّنُ لَنَا أَنَّ رِسْتَمَ كَانَ كَارَهَا لِهَذِهِ الْحَرْبِ مِتَشَائِمًا
مِنْهَا ، وَكَانَ يَتَوَقَّعُ أَنْ تَكُونَ نَتِيجَتُهَا لِمَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ ضِدَّ الْفَرَسِ ،
وَلَقَدْ خَرَجَ إِلَيْهَا مَكْرَهَا ضَعِيفَ النَّفْسِ ، وَزَادَهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنِ الرُّؤْيَى
الْمَفْزَعَةِ الَّتِي يَرَاهَا ، وَيَرَاهَا لَهُ مِنْجَمُهُ ، وَكَانَ كَلِمَا رَأَى شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ
طَلَبَ الْإِعْفَاءَ مِنَ الْقِيَادَةِ ، وَلَكِنْ كَسَرَى يَصِرُ عَلَى تَوَلِيَّتِهِ ذَلِكَ .

فَمِنْ هَذِهِ الرُّؤْيَى مَا ذَكَرَهُ الْإِمَامُ الطَّبْرِيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمَرْزَبَانَ قَالَ :
فَلَمَّا أَصْبَحُوا مِنْ لَيْلَتِهِمْ بِشَاطِئِ الْعَتِيقِ غَدَا مِنْجَمَ رِسْتَمَ عَلَى رِسْتَمَ
بِرُؤْيَا أَرِيهَا مِنَ اللَّيْلِ ، قَالَ : رَأَيْتُ الدَّلُوَّ فِي السَّمَاءِ دَلُوءًا أَفْرَغَ مَائِهِ ،
وَرَأَيْتُ السَّمَكَةَ سَمَكَةً فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ الْمَاءِ تَضْطَرِبُ ، وَرَأَيْتُ

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٠٤ - ٥٠٥ .

النعائم والزهرة تزدهر ، قال : ويحك هل أخبرت بها أحدا ؟
قال : لا ، قال : فاكتبها^(١) .

وقد تطير رستم من هذه الرؤيا ، وكانوا كما أسلفنا من قبل
يتشاءمون ويننون سلوكهم في الإقدام والإحجام على هذا التشاؤم .
وذكر الطبري أيضاً عن الشعبي قال : كان رستم منجماً فكان
يبكي مما يرى ويُقدم عليه ، فلما كان بظهر الكوفة رأى أن عمر دخل
عسكر فارس ، ومعه مَلَكٌ فختم على سلاحهم ثم حزمه ودفعه إلى
عمر^(٢) .

وهكذا تضافرت الرؤى الصادقة كهذه الرؤيا مع الخرافات التي
لا أثر لها في الواقع ولكنهم كانوا يعتقدون بها . تضافرت كلها على
التهويل من شأن المسلمين وترسيخ عظمتهم في نفس رستم حتى غدا
متحيراً مضطرباً يود أن لو خرج من هذه المهمة بأي ثمن ، فكان
الإصرار على بعثه قائداً خطأ حربي فادح من ملك الفرس .

ومن أثر هذه الرؤى والاعتماد على التنجيم فإن رستم كان موقناً
بأن نتيجة الحرب القادمة ستكون لصالح المسلمين ، ومما يدل على
ذلك أنه كتب إلى أخيه وإلى رؤوس أهل بلادهم : من رستم إلى
البندوان مرزبان الباب وسهم أهل فارس الذي كان لكل كَوْن يكون
يفضُّ الله به كل جند عظيم شديد ويفتح به كل حصن حصين ومن
يليه ، فرموا حصونكم وأعدوا واستعدوا ، فكأنكم بالعرب قد وردوا

(١) تاريخ الطبري ٥١٦/٣ .

(٢) تاريخ الطبري ٥١٦/٣ .

بلادكم وقارعوكم عن أرضكم وأبنائكم ، وقد كان من رأيي مدافعتهم ومطاولتهم حتى تعود سعودهم نحوساً ، فأبى الملك (١) .

وهذا يعتبر نوعاً من الحرب النفسية قدرها الله تعالى لتكون لصالح المسلمين .

حوار بين رستم وأحد المجاهدين :

ولقد نهض رستم بعد أن أعيته الحيل في دفع القيادة عنه فسار بجيشه نحو القادسية .

أخرج الإمام ابن جرير من طريق سيف بن عمر عن ابن الرُّقَيْل الفارسي قال : لما فصل رستم وأمر الجالنوس بالتقدم إلى الحيرة أمره أن يصيب رجلاً من العرب ، فخرج هو والآزاد مرد سريّةً في مائة حتى انتهيا إلى القادسية ، فأصابا رجلاً دون قنطرة القادسية فاخطفاه ، فنفر الناس فأعجزوهم إلا ما أصاب المسلمون في أخرياتهم ، فلما انتهيا إلى النجف سرّحا به إلى رستم وهو بِكُوَيْ ، فقال له رستم : ماجاء بكم؟ وماذا تطلبون؟ قال : نطلب موعود الله ، قال : وما هو؟ قال : أرضكم وابناؤكم ودماؤكم إن أبيتم أن تسلموا ، قال رستم : فإن قُتِلتم قبل ذلك ؟

قال : في موعود الله أن من قُتل منا قبل ذلك أدخله الجنة ، وأنجز لمن بقي منا ماقلت لك ، فنحن على يقين ، فقال رستم : قد وُضِعنا إذاً في أيديكم ، قال : ويحك يارستم إن أعمالكم وضعتكم فأسلمكم الله بها ، فلا يغرنك ماترى حولك فإنك لست تجاول

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٠٥ - ٥٠٦ .

الإنس، إنما تجاول القضاء والقدر ، فاستشاط غضبا فأمر به فضرِبَتْ عنقه^(١) .

وهكذا استطاع هذا المجاهد المسلم أن يرمي بقنبلة بعيدة المدى في وسط جيش الفرس ، فلقد حطم أعصاب أكبر قادتهم حتى أخرجهم عن طوره، وأغضبه غضباً شديداً حتى أمر بقتله وهو الذي اشتهر بالحلم والحكمة .

لقد وفَّق هذا المجاهد في بيانه الرائع إلى أن يضع جيش الفرس - وخاصة قائدهم - في حيرة مطبقة ، وشعور ضاغط بأن المسلمين سيقضون عليهم لامحالة ، وذلك بإشعارهم أولاً بأن المسلمين مقدمون على قتالهم حتى الموت ليقينهم بأن من مات فمآله إلى الجنة ولا بد أن يتحقق النصر على يد من بقي لأن الله تعالى قد وعدهم بذلك ، ثم بإشعارهم ثانياً بأنهم لا يقاتلون المسلمين في واقع الأمر ، وإنما يقاتلون الله تعالى ، لأن المسلمين ليسوا إلا جنود الله سبحانه ينفذون أوامره، ومن دخل مع الله جل وعلا في صراع فإنه مغلوب لامحالة، ولذلك اعترف له رستم بحتمية كون نتيجة المعركة لصالح المسلمين ماداموا بهذا الإيمان القوي حيث قال : قد وُضِعنا إذاً في أيديكم .

وإن هذا المجاهد الذي لم يُعرف اسمه ليعتبر مثالا عالياً للشجاعة النادرة والفدائية العالية ، فهو يخاطب رستم بهذا المنطق القوي ويتهم على تقاليد الفرس البالية ويظهر عزة الإسلام ، مع أنه كان عارياً من الحصانة التي يتمتع بها الوفود المبعوثون من قادتهم حيث قد تعارفت الدول على أن الرسل لا تقتل ، وهذا المجاهد قد أُخِذَ أسيراً

(١) تاريخ الطبري ٥٠٧/٣ .

بالقوة فهو تحت تصرف أعدائه ، كما أن هذا المجاهد يعتبر مثالا لقوة الإيمان والثقة العالية بنصر الله تعالى لأوليائه .

وإن جيلاً هذا الرجل أحد أفراده العاديين الذين لم يرتفع لهم ذكر ولا شهرة لهو جيل فريد في الفضائل والسمو نحو المعالي .

لقد قتله رستم وهو يعترف بأنه قد مثل أمة بلغت الكمال في مجال الأخلاق ، ولقد ظل رنين كلام ذلك المجاهد في سمعه ووقر في قلبه حتى استشهد بكلامه وضرب المثل بأمة الإسلام وهو يلوم قومه على الظلم والفجور .

قال الرُّفَيْلُ في رواية ابن جرير السابقة « وخرج رستم من كُوَيْي حتى ينزل بِبُرس فغصبت أصحابه الناس أموالهم ووقعوا في النساء وشربوا الخُمور ، فضج العلوج إلى رستم وشكوا إليه مايلقون في أموالهم وأبنائهم ، فقام فيهم فقال : يامعشر أهل فارس والله لقد صدق العربي ، والله ما أسلمنا إلا أعمالنا ، والله للعرب في هؤلاء - وهم لهم ولنا حرب - أحسن سيرة منكم ، إن الله كان ينصركم على العدو ويمكِّن لكم في البلاد بحسن السيرة وكف الظلم والوفاء بالعهود والإحسان ، فأما إذ تحولتم عن ذلك إلى هذه الأعمال فلا أرى الله إلا مغيِّراً ما بكم ، وما أنا بآمن أن ينزع الله سلطانه منكم . ويبعث الرجال فلقطوا له بعض من يُشكى فَأَتَى بنفر فضرب أعناقهم ^(١) .

وهكذا تنبه رستم لبعض أسباب النصر المعنوية القائمة على مكارم الأخلاق لما أحيط به وأدرك الخطر ، وكان لقاءه ببعض المسلمين

(١) تاريخ الطبري ٥٠٨/٣ .

وسمعه أخبارهم مما أيقظ مشاعره نحو ذلك ، حيث أدرك أن السبب الرئيس لانتصار المسلمين مع قلة عددهم وضعف عدتهم أنهم اتصفوا بالعدل والعفة والوفاء حتى مع أعدائهم ، فلقد شهد لهم أنهم خير لشعوب دولة الفرس من الفرس أنفسهم مع أنهم أعداء لهم محاربون ، والحق ما شهدت به الأعداء ، ولا يستطيع هو ولا غيره أن يقول غير ذلك لأن التاريخ لم يسجل على المسلمين في فتوحهم الأولى أي مخالفة في انتهاك الأعراض أو نهب أموال الآمنين .

تقارب بين الجيشين :

سار رستم ببطء شديد نحو القادسية ، جاء في رواية ابن جرير من طريق سيف بن عمر عن شيوخه قالوا : ولما اطمأن رستم أمر الجالنوس أن يسير من النجف ، فسار في المقدمات فنزل فيما بين النجف والسَّيْلَحَيْن ، وارتحل رستم فنزل النجف ، وكان بين خروج رستم من المدائن وعسكرته بساباط وزحفه منها إلى أن لقي سعدا أربعة أشهر ، لا يُقَدَّم ولا يُقاتل رجاء أن يضجروا بمكانهم ، وأن يجهدوا فينصرفوا ، وكره قتالهم مخافة أن يلقي ما لقي من قبله ، وطاولهم لولا ما جعل الملك يستعجله وينهضه ويقدمه حتى أقحمه .

ولقد كان عمر رضي الله عنه مدركا لسياسة الفرس الحربية ولما يصلح من الخطط لحسم القتال معهم فرسم لسعد خطة بعيدة المدى ، تعتمد على الصبر والمطاوله .

جاء في الرواية السابقة : وعرف عمر أن القوم سيطاولونهم فعهد إلى سعد وإلى المسلمين أن ينزلوا حدود أرضهم ، وأن يطاولوهم أبداً

حتى ينفضوهم ، فنزلوا القادسية وقد وطنوا أنفسهم على الصبر والمطاوله ، وأبى الله إلا أن يتم نوره ، فأقاموا واطمأنوا وكانوا يغيرون على السواد فانتسفوا ماحولهم فحووه وأعدّوا للمطاوله ، وعلى ذلك جاؤوا ، أو يفتح الله عليهم ، وكان عمر يمدّهم بالأسواق إلى ما يصيبون - يعني من اعدائهم - فلما رأى ذلك الملك ورستم وعرفوا حالهم ، وبلغهم عنهم فعلهم علم أن القوم غير متتهين ، وأنه إن أقام لم يتركوه فرأى أن يشخص رستم ، ورأى رستم أن ينزل بين العتيق والنجف ثم يطاولهم مع المنارلة ، ورأى أن ذلك أمثل ما هم فاعلون حتى يصيبوا من الإحجام حاجتهم أو تدور لهم سعود (١) .

ولقد كان سعد رضي الله عنه رجل الموقف في رزائته واتزانه وصبره وبعْد سياسته وصونه سره عمن لا يفقه أمور الحرب ، جاء في رواية للإمام الطبري بإسناده عن موسى بن طريف قال : قال الناس لسعد : لقد ضاق بنا المكان فأقدم ، فزبر من كلمه بذلك وقال : إذا كُفيت الرأي فلا تكلّفوا فإننا لن نقدم إلا على رأي ذوي الرأي : فاسكتوا ماسكتنا عنكم (٢) .

وهذا موقف يدل على فقهه بأمور الحرب حيث إن منها ما لا ينبغي أن يطلع عليه إلا الخاصة من ذوي الرأي ، إذ أنه لو أعطاه كل ماعنده لربما فشى ذلك في الجند ، وقد يستطيع العدو بعد ذلك الاطلاع على أسرار الجيش الإسلامي لأن قدرات الناس على صون الأسرار تختلف .

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٥١٠ .

(٢) تاريخ الطبري ٣ / ٥١٠ .

مغامرة من طليحة :

هذا وقد أرسل سعد الطلائع لمعرفة تحركات العدو وهو يظن أن رستم لا يزال في النجف فأرسل عمرو بن معد يكرب في خمسة و طليحة ابن خويلد الأسدي في خمسة ، فلم يسيروا إلا فرسخا وبعض آخر حتى رأوا مقدمات جيش رستم فاتفقوا على العودة وإبلاغ سعد بذلك ماعدا طليحة فإنه أصر على أن يذهب إلى جيش الفرس وحده .

جاء في رواية أبي عثمان النهدي عند الطبري قال بعد أن ساق الخبر: فأتوا سعدا فأخبروه بقرب القوم ، ومضى طليحة وعارض المياه على الطفوف - يعني الأراضي المشرفة على الريف - حتى دخل عسكر رستم وبات فيه يجوسه وينظر ويتوسم ، فلما أدير الليل خرج وقد أتى أفضل من توسم في ناحية العسكر ، فلإذا فرس لم ير في خيل القوم مثله، وفسطاط أبيض لم ير مثله ، فانتضى سيفه فقطع مقود الفرس ، ثم ضمه إلى مقود فرسه ، ثم حرك فرسه فخرج يعدو به ، ونذر به الناس والرجل - يعني المشاة - فتنادوا وركبوا الصعبة والذلول وعجل بعضهم أن يسرج ، فخرجوا في طلبه ولقد لحقه فارس من الجند ، فلما غشيه وبوأ له الرمح ليطعنه عدل طليحة فرسه فنذر الفارسي بين يديه فكر عليه طليحة فقصم ظهره بالرمح ، ثم لحق به آخر ففعل به مثل ذلك ، ثم لحق به آخر وقد رأى مصرع صاحبيه - وهما ابنا عمه - فازداد حنقا ، فلما لحق بطليحة وبوأ له الرمح عدل طليحة فرسه فنذر الفارسي أمامه، وكر عليه طليحة ودعاه إلى الإسار، فعرف الفارسي أنه قاتله فاستأسر، وأمره طليحة أن يركض

بين يديه ، ففعل ، ولحق الناس فرأوا فارسي الجند قد قتلوا وقد أسر الثالث وقد شارف طليحة عسكرهم فأحجموا عنه ونكسوا .

وأقبل طليحة حتى غشي العسكر وهم على تعبئة ، فأفرج الناس ، وجوزوه إلى سعد ، فلما انتهى إليه قال : ويحك ما وراءك؟ قال : دخلت عساكرهم وجُستها منذ الليلة ، وقد أخذت أفضلهم توسماً ، وما أدري أصبت أم أخطأت ، وهاهو ذا فاستخبره ، فأقيم الترجمان بين سعد وبين الفارسي ، فقال له الفارسي : أتؤمنني على دمي إن صدقتك؟ قال : نَعَمْ الصدق في الحرب أحب إلينا من الكذب ، قال : أخبركم عن صاحبكم هذا قبل أن أخبركم عمن قبلي ، باشرت الحروب وغشيتها وسمعت بالأبطال ولقيتها منذ أنا غلام إلى أن بلغت ماترى ، ولم أرَ ولم أسمع بمثل هذا ، أن رجلاً قطع عسكرين لا يجتريء عليهما الأبطال إلى عسكر فيه سبعون ألفاً يخدم الرجل منهم الخمسة والعشرة إلى ماهو دون ، فلم يرض أن يخرج كما دخل حتى سلب فارس الجند وهتك أطناب بيته ، فأنذره وأنذرنا به فطلبناه فأدركه الأول وهو فارس الناس يعدل ألف فارس فقتله ، فأدركه الثاني وهو نظيره فقتله ، ثم ادركته ولا أظن أنني خلفت بعدي من يعدلني وأنا الثائر بالقتيلين وهما ابنا عمي فرأيت الموت فاستأسرت .

ثم أخبره عن أهل فارس بأن الجند عشرون ومائة ألف وأن الاتباع مثلهم خُدَّام لهم ، وأسلم الرجل وسماه سعد مسلماً ، وعاد إلى طليحة ، وقال : لا والله لا تُهزَمون مادمتم على ما أرى من الوفاء والصدق والإصلاح والمواساة ، لاحاجة لي في صحبة فارس فكان من أهل البلاء يومئذ (١) .

(١) تاريخ الطبري ٥١٣/٣ - ٥١٤ .

وبعد : فقد رأينا نموذجًا لما كان عليه أبطال المسلمين من البسالة والإقدام ، وتقدير مصلحة المسلمين العامة على المصالح الخاصة ، فقد كان طليحة بن خويلد الأسدي نموذجًا للشجاعة الفائقة والجسارة العظيمة ، وقد وصف ذلك الأسير الفارسي شجاعته بما لا مزيد عليه ، ولا أعظم من اعتراف أهل الاختصاص بتفوق أقرانهم ، وإذا كان أولئك الفرسان الذين تغلب عليهم طليحة كل واحد منهم يعدل ألفًا فكم يعدل طليحة من الفرسان !!

وبالرغم من أن ما قام به طليحة من تلك المغامرة كان خلاف ما أُمرَ به فإن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لم يحاسبه على ذلك التجاوز ، نظرًا للنتيجة الكبيرة التي أفادها لصالح جيش المسلمين من أسر ذلك الفارسي والإفادة منه عن جيش الفرس ، إلى جانب ماتم من إسلام ذلك الفارسي وهو مطلب كبير عند المسلمين ، مع اعتبار أن طليحة قد تصرف في أمر سعد باجتهاده لتحقيق مصلحة الجيش الإسلامي ولم يتصرف اتباعًا لهواه ومصلحته .

وكون سعد لم يحاسب طليحة على تجاوزه دليل على مرونة قادة المسلمين في تطبيق الأنظمة الحربية ، فالعبرة عندهم ليست في كون الجندي يخالف أمر القائد فحسب ، وإنما هي بالدرجة الأولى في تحقيق مصلحة الجيش الإسلامي أو الإخلال بذلك ، وكون طليحة حقق هذه المصلحة أعظم من أن يحاسب على مخالفته .

ولاشك في أن ما قام به طليحة من تلك المغامرة العالية والبطولة النادرة كان مُقدِّمةً لإسلام ذلك الرجل الفارسي ، إذ أن هذا العمل لا يمكن أن يصدر من غير المسلمين مهما بلغوا من الشجاعة والإقدام

فإن الاحتمال الغالب في مثل تلك الحال أن يُروِّي ذلك البطل المغامر ثَرَى تلك البطاح التي غامر فيها بدمه ، ولن يُقدم على ذلك من كان في قلبه شيء من إرادة الدنيا .

بقي أن يقال إن هناك احتمال أن يؤسر ذلك المغامر فيضطر إلى الإدلاء بمعلومات عن جيشه فيضرب جيشه بذلك ، ولكن هذا الاحتمال غير متوقع ، لأن أسر أبطال المسلمين بعيد المنال ، فإن البطل المسلم سيظل يقاوم ما بقيت روحه بين جنبيه ، ولن يُسلم نفسه لأعدائه ، وإنما المحتمل هو أحد أمرين : أن يتمكن الأعداء من قتله وهذا نجاح كبير له لأنه قد فاز بالشهادة في سبيل الله تعالى ، أو أن ينجو فيظفر بمعلومات جديدة يتحف بها قادة جيشه ، وهذا التردد بين الاحتمالين لا يوجد عند غير المسلمين ، فلذلك لا توجد عندهم مثل هذه المغامرة المذهلة .

أقول : إن ما قام به طليحة من ذلك العمل البطولي المدهش كان مقدمة لإسلام ذلك الرجل الفارسي ، لأنه وهو فارس قوي يعدل ألف فارس سيكون أعلى شيء عنده في الحياة أن يرى مظاهر البطولة النادرة ، وسيكون فكره مركزاً حول هذا المجال ، فلما رأى من ذلك ما أذهله وجعله يحتقر نفسه وأبطال قومه عند بطولة طليحة زال ما في فكره من نخوة الجاهلية المتركة بعظمة الفرس وبطولتهم ، ورأى أنه قد تحول إلى تلميذ في مدرسة البطولة الحقة ، فهيمن عليه الإعجاب ببطولة المسلمين ، وقاده ذلك إلى التعرف على أخلاقهم العالية ، من الصدق والأمانة والوفاء والتواضع والتسامح . . فأعلن إسلامه .

لقد انتقل ذلك المسلم الفارسي من عالم الأنانية والتفاخر بالجاء

والمال والطبقة القاتلة إلى عالم الإيثار والتواضع والمواساة والرحمة ، فأحسَّ بالفارق الكبير بين العالمين ، وأثر تبعية عالم مكارم الأخلاق لأنه وجد فيه نفسه الحقيقية التي فقدتها طول عمره بخضوعه لضلالات قومه .

حوار رستم مع زهرة :

كان رستم حريصاً على معرفة المزيد من أخبار المسلمين ومدى قوتهم ، فرغب في اللقاء مع أحد قادتهم ، فكان لقاءه الأول مع قائد مقدمة جيش المسلمين زهرة بن الحوية .

يقول الإمام ابن جرير فيما يرويه بإسناده عن ابن الرقيل عن أبيه قال : لما نزل رستم على العتيق وبيات به أصبح غاديا على التصفح والحزر^(١) فسائر العتيق نحو خَفَّان حتى أتى على منقطع عسكر المسلمين ، ثم صعد حتى انتهى إلى القنطرة ، فتأمل القوم حتى أتى على شيء يشرف منه عليهم .

فلما وقف على القنطرة راسل زهرة ، فخرج إليه حتى واقفه ، فأراد أن يصالحهم ويجعل له جُعللاً على أن ينصرفوا عنه ، وجعل يقول فيما يقول : أنتم جيراننا وقد كانت طائفة منكم في سلطاننا ، فكنا نحسن جوارهم ، ونكف الأذى عنهم ، ونوليهم المرافق الكثيرة ، نحفظهم في أهل باديتهم ، فنرعيهم مراعيين ، ونميرهم من بلادنا ولا نمنعهم من التجارة في شيء من أرضنا وقد كان لهم في ذلك معاش - يعرض لهم بالصلح ، وإنما يخبره بصنيعهم ، والصلح يريد ولا يصرح - .

(١) يعني أراد تأمل جيش المسلمين وتقدير عددهم .

فقال له زهرة : صدقت ، قد كان ماتذكر ، وليس أمرنا أمر أولئك ولا طلبتنا ، إنا لم نأتكم لطلب الدنيا ، إنما طلبتنا وهمتنا الآخرة ، كنا كما ذكرت يدين لكم من ورد عليكم منا ، ويضرع إليكم يطلب مافي أيديكم ، ثم بعث الله تبارك وتعالى إلينا رسولا فدعانا إلى ربه فأجبناه ، فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم ، إني قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بديني فأنا منتقم بهم منهم ، وأجعل لهم الغلبة ماداموا مُقرّين به ، وهو دين الحق لا يرغب عنه أحد إلا ذل ، ولا يعتصم به أحد إلا عز .

فقال له رستم : وما هو ؟ قال : أما عموده الذي لا يصلح منه شيء إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله والإقرار بما جاء من عند الله تعالى ، قال : ما أحسن هذا ! وأي شيء أيضاً ؟ قال : وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى ، قال : حسن ، وأي شيء أيضاً ؟ قال : والناس بنو آدم وحواء إخوة لأب وأم ، قال : ما أحسن هذا !

ثم قال له رستم : أرايت لو أن رضيت بهذا الأمر وأجبتكم إليه ومعى قومي كيف يكون أمركم ؟ أترجعون ؟ قال : إي والله ثم لانقرب بلادكم أبداً إلا في تجارة أو حاجة ، قال : صدقتني والله ، أما إن أهل فارس منذ وكي أردشير لم يدعوا أحداً يخرج من عمله من السفلة ، كانوا يقولون : إذا خرجوا من أعمالهم تعدوا طورهم ، وعادوا أشرافهم ، فقال له زهرة : نحن خير الناس للناس فلا نستطيع أن نكون كما تقولون ، نطيع الله في السفلة ولا يضرنا من عصى الله فينا .

فانصرف عنه ، ودعا رجال فارس فذاكرهم هذا فحموا من ذلك وأنفوا ، فقال : أبعدكم الله وأسحقكم ، أخزى الله أخرعنا وأجبننا .
يقول الرُّقَيْل راوي هذا الخبر وهو رجل فارسي : فلما انصرف رستم ملَّتْ إلى زهرة فكان إسلامي ، وكنت له عديداً وفرض لي فرائض أهل القادسية (١) .

وهكذا رأينا في هذه المحاوراة المثيرة كيف علا نجم المسلمين وأفل نجم المجوس ، وساد منطق العدالة والعقل السليم والتواضع والقيم العليا ، وخفَّتْ منطق الجور والعقل المريض والكبرياء والقيم الهابطة .
ولقد كان رستم مُهيأً نفسياً لقبول نداء العقل السليم والسمو نحو القيم العليا ، فلما سمع كلام زهرة بن الحوية المشرق وقر في نفسه حب الإسلام الذي سيحفظ له كرامته وكرامة أمته ، والذي سيسمو بعقول المستضعفين وهم أغلبية الأمة فيحيلهم إلى عناصر فعالة مؤثرة وسيهدِّب من نفوس عليّة القوم فينزلهم من علياء الجبروت والطفيان ليكونوا في مستوى بشريتهم ، وهنا يكون البروز لأصحاب المواهب العالية الذين ستضع بهم أمتهم ثقتها وستسند إليهم أمورها .

لقد بين زهرة لرستم أن أهداف العرب قد تغيرت بعد الإسلام ، فيجب أن ينظر إليهم العالم على أنهم مسلمون لا على أنهم العرب الذين كانوا يعاملونهم قبل ذلك ، وقد لخص الدوافع إلى تغيير الأهداف والمناهج ببيان أن مقصد العرب قبل الإسلام الحصول على الدنيا وأن مقصدهم بعد الإسلام الظفر بنعيم الآخرة ، وحسبهم هذا التحول الكبير في مقاصدهم لتتحول حياتهم بأكملها من حياة الخنوع

(١) تاريخ الطبري ٥١٧/٣ - ٥١٨ .

والذل والتفريق والأهداف القريبه والتخلق بمساويء الأخلاق إلى حياة العز والجماعة والأهداف السامية والتخلق بمكارم الأخلاق .

وكان زهرة في غاية البراعة والتوفيق حينما ذكر لرستم أن الله تعالى قد سلط المؤمنين بهذا الدين على من كفر به ، وأن العز قرين من آمن به وأن الذل قرين من كفر به ، فقد رسخ في نفس رستم أن من سيقاتلهم ليسوا كمن اعتاد مقابلتهم بل هم موجهون من قبل الله تعالى ، ومن كانت هذه صفتهم فلا قبل لأحد بقتالهم .

لقد فهم رستم هذه المعاني السامية ، وأدرك أن المسلمين لا طمع عندهم في الاستيلاء على بلادهم لمنافع شخصية ، وإنما همهم الوحيد أن يحولوها إلى بلاد إسلامية ، ثم تبقى بعد ذلك بيد أهلها ، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، ولقد أثر هذا المنطق العادل في نفس رستم ، وهم بالدخول في الإسلام وإدخال أمته فيه لولا أن حال دون ذلك إجماع مستشاريه على عداء الإسلام وقتال المسلمين ، ويبدو أنهم قد اتهموه بالجبن حيث قال لهم : أخزى الله أخرجنا وأجبنا .

وقد استفاد من هذه المحاوره راوي هذه القصة الرُّفيل حيث دخل في الإسلام وكان له دور مهم في نقل أخبار الفرس والتعريف بأحوالهم . أما ما في الخبر من إبراز دعوة التوحيد فسيأتي التعليق على ذلك عند عرض كلام وفود المسلمين إلى رستم إن شاء الله .

حوار رستم مع ربعي بن عامر :

أخرج الإمام ابن جرير من طريق سيف بن عمر عن شيوخه قالوا: وأرسل سعد إلى المغيرة بن شعبة وبسر بن أبي رهم وعرفجة ابن هرثمة وحذيفة بن محصن وربعي بن عامر وقرقة بن عامر التيمي

ثم الوائلي، ومذعور بن عدي العجلي والمضارب بن يزيد العجلي ،
ومعبد بن مرة العجلي - وكان من دهاة العرب - فقال : إني
مرسلكم إلى هؤلاء القوم فما عندكم ؟ قالوا جميعاً : نتبع ما تأمرنا
به وننتهي إليه فإذا جاء أمر لم يكن منك فيه شيء نظرنا أمثل ما ينبغي
وأنفعه للناس فكلمناهم به ، فقال سعد : هذا فعل الحزمة اذهبوا
فتهيئوا .

وهكذا حدد أعضاء هذا الوفد مهمتهم بتنفيذ أوامر أميرهم أولاً
ثم النظر فيما يجد من أمور لم يسبق فيها أمر من قائد المسلمين بفعل
الأفضل والأنفع للمسلمين وهذا يدل على فقههم في تحمل المسؤولية
وأدائها، وذلك انطلاقاً من قاعدة : يرى الشاهد ما لا يرى الغائب ،
فلا بد من التصرف في الأمور التي تجد بالحكمة والمشورة لأن عدم
التصرف في الوقت المناسب يؤدي إلى فشل المهمة ، ولذلك قال
سعد : هذا فعل الحزمة .

» فقال ربيع بن عامر : إن الأعاجم لهم آراء وآداب ، ومتى
نأتهم جميعاً يروا أنا قد احتفلنا بهم ، فلا تزدهم على رجل ، فمآلثوه
جميعاً على ذلك ، فقال سرحوني ، فسرّحه - يعني أرسله سعد إلى
رستم - .

وأمام هذا المقطع من الخبر نجد صورة عالية من الشورى التي
خلت من حظ النفس وتجردت لمصلحة الإسلام والمسلمين ، فقد تنازل
سعد عن رأيه حالاً وأخذ برأي ربيع بن عامر ، ووافق الجميع على
ذلك لما رأوا وجهة هذا الرأي مع أنه يقصر شرف المهمة على رجل
واحد، ثم لما آنس ربيع من نفسه المقدرة على تمثيل المسلمين طلب

ذلك لنفسه ، ولما كان سعد يدرك تماماً ما يتحلى به رباعي من التجرد والإخلاص وافقه على ذلك ، وكانت هذه الموافقة أولى من إرسال غيره لأنه لم يُبد استعداده للقيام بالمهمة إلا وهو قد أعد نفسه لها ، وإن الذي يعيش القضية بفكره وأحاسيسه أولى بالنجاح فيها من الذي يفاجأ بها وهو على غير استعداد .

ومن هنا نعلم أن من آنس من نفسه المقدرة والكفاءة فلا بأس أن يطلب القيام بالمهمة مادام قد تجرد من حظ النفس وأراد مصلحة الأمة ، فقد يرى من نفسه أنه أقدر ممن حوله على أدائها ، ويحسن بالمستول أن يلي طلبه كما فعل سعد لأن ذلك أنجح للعمل في الغالب .

ثم ذكر ابن جرير في روايته خبر خروج رباعي وقدمه على رستم وأن الفرس قابلوه بمظاهرهـم الدنيوية من فرش الحرير والوسائد المنسوجة بالذهب ، وأنه قابلهم بمظهره المتواضع في لباسه وسلاحه ودابته ومقام به من شق وسادتين لهم وربط فرسه بهما ، إلى أن قال : « فقالوا : ضع سلاحك ، فقال : إني لم آتكم فأضع سلاحي بأمركم ، أنتم دعوتوني فإن أبيتم أن آتيكم كما أريد رجعت ، فأخبروا رستم ، فقال : ائذنوا له هل هو إلا رجل واحد ! فأقبل يتوكأ على رمحه ، وزجه نصل^(١) ، يقارب الخطو ويزج النمارق والبسط ، فما ترك لهم نمرقة ولا بساطا إلا أفسده وتركه مهتكا مخرقا » .

أقول : وإن في هذا السلوك العالي مثلاً بديعاً لاحتقار مظاهر الجاهلية وإظهار عزة الإسلام ، وذلك بالقول والعمل ، فقد رفض

(١) الزج الحديدة في طرف الرمح ، وهو النصل ولكن لعله أراد أنه بدون غلاف .

أولاً أن ينصاع لمطلبهم في وضع السلاح ، فما دام أنه لم يقتنع ذاتياً بهذا المطلب فإن إظهار الشخصية يقتضي عدم الخضوع لإرادتهم ، ثم لما رأى أنهم يتباهون بفرشهم ووسائلهم أراد إهانتهم بإفسادها ليبيّن لهم أن هذه المظاهر الخلابّة لم تؤثر في نفسه ، وأنها ليست من الأمور التي يهتم بها المسلمون أو يقيمون ورنّا لأصحابها ، فله دره ما أعظم مُرامه وما أسدّ سهامه . لقد رماهم في أعظم شيء يعتزون به وهو ما يملكونه من مظاهر الدنيا فحطم معنوياتهم قبل أن يبدأ معهم الحوار .

قال : « فلما دنا من رستم تعلق به الحرس ، وجلس على الأرض وركز رمحه بالبسط ، فقالوا : ما حملك على هذا ؟ قال : إنا لا نستحب القعود على زينتكم هذه ، فكلمه فقال : ما جاء بكم ؟ قال : الله ابتعثنا والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه ، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نُفْضِيَ إلى موعود الله ، قال وماموعد الله ؟ قال : الجنة لمن مات على قتال من أبى ، والظفر لمن بقي .

فقال رستم : قد سمعت مقاتلتكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا ؟ قال : نعم كم أحب إليكم ؟ أيوماً أو يومين ؟ قال : لا بل حتى نكتب أهل رأينا ورؤساء قومنا ، - وأراد مقاربته ومدافعته - فقال : إن مما سنّ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمل به أئمتنا أن لا نمكّن الأعداء من آذاننا ولا نؤجلهم عند اللقاء أكثر من ثلاث ، فنحن مترددون عنكم ثلاثاً ، فانظر في أمرك

وأمرهم ، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل ، اختر الإسلام وندعك وأرضك ، أو الجزاء فَتَقَبَّلُ ونكفُ عنك ، وإن كنت عن نصرنا غنيا تركناك منه ، وإن كنت إليه محتاجاً منعناك ، أو المنابذة في اليوم الرابع ، ولسنا نبدؤك فيما بيننا وبين اليوم الرابع إلا أن تبدأنا ، أنا كفيل لك بذلك عن أصحابي وعلى جميع من ترى ، قال : أسيدهم أنت ؟ قال : لا ، ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض ، يجير أدناهم على أعلاهم .

هذا وبعد الاطلاع على هذا البيان الواضح يدرك المتأمل مبلغ ماوصل إليه المسلمون الأوائل من النجاح الباهر في التفاوض مع الأعداء وأن سرَّ نجاحهم يكمن في أمرين : أولهما حسن اختيار الوفود ، وثانيهما أن أمور الجهاد قد بينها النبي صلى الله عليه وسلم وطبقها في عهده وطبقها خلفاؤه حتى أصبحت من المعلومات الواضحة عندهم ، وإنما يتفاوتون في المقدرة على التعبير عنها والنكاية بالأعداء في الحرب النفسية .

قالوا : « فخلص رستم برؤساء أهل فارس فقال : ماترون هل رأيتم كلاماً قط أوضح ولا أعزَّ من كلام هذا الرجل ؟ قالوا : معاذ الله لك أن تميل إلى شيء من هذا وتدع دينك لهذا الكلب ، أما ترى إلى ثيابه ! فقال : ويحكم لاتنظروا إلى الثياب ولكن انظروا إلى الرأي والكلام والسيرة ، إن العرب تستخفُّ باللباس والمأكَل ويصنونون الأحساب ، ليسوا مثلكم في اللباس ولا يرون فيه ماترون » .

وهذا الكلام دليل على تفوق رستم على بني قومه في العقل والإدراك ولو كان معه من يؤيده لربما دخل في الإسلام ، فقد كان

معجبا بأخلاق المسلمين ، وإطلاقُ العرب عليهم نظراً لأن المسلمين آنذاك كانوا كلهم من العرب إلا القليل النادر .

وجاء في هذه الرواية أن الفرس أقبلوا إلى ربيعي يتناولون سلاحه ويزهدونه فيه ، فقال لهم : هل لكم إلى أن تُروني فأريكم ؟ فأخرج سيفه من خِرْقَه كأنه شعلة نار ، فقال القوم : اغمده ، فغمده ، ثم رمي ترساً ورموا حَجَفَتَه - وكانت من الجلد المتين - فخرق ترسهم وسلمت حجفته ، فقال : يا أهل فارس إنكم عظمتم الطعام واللباس والشراب ، وأنا صغرناهن .

وهكذا تفوق عليهم ربيعي بن عامر حتى في السلاح وهم الأمة القوية المحاربة ، وماذاك إلا من عناية المسلمين آنذاك بشئون الحرب على قدر طاقتهم ، فقد جلا ربيعي سيفه وحده قبل أن يذهب إليهم حتى أصبح كأنه شعلة نار ، وأخاف الفرس منظره فطلبوا منه أن يغمده ، واختار ترسه من النوع القوي ، وهو وإن كان من الجلد فإن إتقان الصناعة قد أحاله إلى مادة قوية .

فلينظر المسلمون إلى واقعهم المعاصر كيف تفوق عليهم الأعداء بجميع أنواع الأسلحة وأصبحوا لا يستطيعون المباهاة بأي نوع منها لتأخرهم الشديد في مجال الصناعة مع أنهم المأمورون من الله تعالى بالإعداد الحربي ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال : ٦٠] (١) .

حوار رستم مع حذيفة بن محصن :

وجاء في آخر هذا الخبر أن الفرس طلبوا في اليوم الثاني من قائد المسلمين بَعَثَ ربيعي بن عامر فبعث إليهم حذيفة بن محصن وأنه قدم

(١) تاريخ الطبري ٥١٨/٣ - ٥٢١ .

عليهم في مثل هيئة ربعي وأنهم قالوا له : ما بالك جئت ولم يجرى صاحبنا بالأمر؟ قال : إن أميرنا يحب أن يعدل بيننا في الشدة والرخاء . وهذا جواب شديد أظهر فيه حذيفة عدالة المسلمين وحسن قيادتهم ، وفي تغيير الرسل الموفدين فائدة مهمة وهي أن يتبين للأعداء أن لدى المسلمين كفاءات متعددة .

ثم جاء في هذه الرواية أن حذيفة عرض لهم الأمور الثلاثة التي عرضها عليهم ربعي وهي الإسلام أو الجزية أو القتال ، فقال رستم : أو المودة إلى يوم ما . فقال حذيفة : نعم ثلاثاً من أمس^(١) .

وهذه نبأه من حذيفة تدل على حسن اختيار سعد للوفود ، فقد كان رستم حريصاً على أن يأخذ من المسلمين موافقة على المودة وإطالة أمر الحرب ، فلما واجه ربعي بن عامر أسقط في يده حينما عرف أن من سنة الإسلام أن لا يهادنوا الأعداء إذا لقوهم أكثر من ثلاثة أيام ، فأراد أن يجر حذيفة للموافقة على المودة إلى أجل غير مسمى ، ولكن حذيفة كان واعياً لأحكام الجهاد ، فوافق على ذلك لمدة ثلاثة أيام بما فيها اليوم الماضي الذي كان بداية مواجهة العدو .

حوار رستم مع المغيرة بن شعبه :

وجاء في آخر هذه الرواية أن الفرس طلبوا في اليوم الثالث من قائد المسلمين أن يبعث إليهم رجلاً فبعث إليهم المغيرة بن شعبه . وقد أخرج الإمام الطبري خبره من طريق سيف بن عمر عن أبي عثمان النهدي قال : لما جاء المغيرة إلى القنطرة فعبرها إلى أهل فارس حبسوه

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٥٢١ .

واستأذنوا رستم في إجازته ، ولم يغيروا شيئاً من شارتهم تقوية
لثهاونهم (١) فأقبل المغيرة ابن شعبة والقوم في زيّهم عليهم التيجان
والثياب المنسوجة بالذهب وبُسْطُهم على غُلوة (٢) لا يصل إلى صاحبهم
حتى يمشي عليهم غلوة ، وأقبل المغيرة وله أربع صفائر يمشي حتى
جلس معه على سريره ووسادته ، فوثبوا عليه فترتروه وانزلوه
ومغثوه (٣) فقال : كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوماً أسفه
منكم ، إنا معشر العرب سواء ، لا يستعبد بعضنا بعضاً إلا أن يكون
محارباً لصاحبه ، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسي ، وكان
أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض ، وإن
هذا الأمر لا يستقيم فيكم ، فلا نصنعه ، ولم آتكم ولكن دعوتوني ،
اليوم علمت أن أمركم مضمحل ، وأنكم مغلوبون ، وإن مُلكاً لا يقوم
على هذه السيرة ولا على هذه العقول .

فقالت السفلة : صدق والله العربي ، وقالت الدهاقين : والله
لقد رمى بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون إليه ، قاتل الله أولينا ما كان
أحقهم حين كانوا يصغرون أمر هذه الأمة .

وهكذا استطاع هذا العبقرى الملهم أن يرمي دولتهم بقبلة بعيدة
الأثر في مجتمعهم حيث فرقت جمعهم ، ونهت العامة المستضعفين
إلى حقوقهم المسلوبة ، فأروا في كلام المغيرة ما يعبر عن شعورهم
الدين الذي أماته الطغيان والجبروت ، فنطقوا بما يعبر عن استيائهم من

(١) يعني أنهم استمروا على ما اتفقوا عليه أول يوم من إظهار التهاون بالمسلمين وذلك بالمبالغة في
المظاهر الدنيوية .

(٢) يعني قدر رمية السهم .

(٣) يعني ضربه ضرباً خفيفاً .

أوضاعهم السيئة حيث قالوا : صدق والله العربي ، وكأنهم كانوا في سُبَات عميق وهم يَسْبَحُونَ بحمد آلهتهم من البشر من غير أن يشعروا بأنهم كان مستعبدين لهم حتى طرق أسماعهم كلام المغيرة بن شعبة وهو يُصَنِّف مجتمعهم الذي رآه إلى آلهة معبودين وعبيد مُستعبدين .

وشعر كبراؤهم بخطر هذا الكلام فلم يستطيعوا كتمان مشاعرهم بل صرحوا بما سيكون لهذا الكلام من أثر في استقلالية عبيدهم وشعورهم بإنسانيتهم وكرامتهم فقالوا: والله لقد رمى بكلام لايزال عبيدنا ينزعون إليه .

ولقد توصل المغيرة بهذا إلى نتيجة مهمة وهي تفاؤله بأن دولتهم ستضمحل لأن الملك لايمكن أن يستمر على الظلم والطغيان .

لقد بين لهم بلسان الحال أن أهم علامات قابلية الدولة للاستمرار أن لا يكون هدف الأمة هو تعظيم أمرائهم ورؤسائهم ، والتفنن في مظاهر الأبهة من الملابس والفرش والمراكب والقصور ، وتشكيل المجتمع إلى طبقات يخدم بعضها بعضا ويتذلل بعضها لبعض ، بحيث تكون الطبقة العليا معبودة من مختلف الطبقات ، ومن هم دون ذلك عابدون لمن هم فوقهم ، معبودون ممن هم دونهم ، لأن دولة هذه أوصافها تحمل أسباب فنائها من داخلها ، وهي وإن عُمِرت مدة من الزمن لايمكن أن يُكتب لها الاستمرار ، لأنه لا بد أن يأتي الوقت الذي يتنبه فيه العامة المُستَعْبَدُونَ ، ويدركون أنهم يعبدون بشراً مثلهم ، ليس لهم من المؤهلات إلا أنهم اتفقوا على الظلم والطغيان .

بل إن أهم علامات قابلية الدولة للبقاء والاستمرار أن يكون هناك شعور مشترك من الحاكمين والمحكومين بأنهم جميعاً يخدمون مبدءاً

سامياً، يعيشون جميعاً من أجله ، ويتفانون جميعاً في خدمته ، ومن كان أشدَّ بلاءً وأعظم تفانياً في خدمة هذا المبدأ كان أولى بالتقديم والرفعة .

وإن المبدأ السامي الذي كان الصحابة رضي الله عنهم يعيشون له ، ويتنافسون في خدمته هو الإسلام ، ومن أجل سلامتهم من عبادة البشر، وكونهم جميعاً حاكمين ومحكومين يعبدون رب البشر ، ومن أجل خدمتهم لدين الله عز وجل ، الذي أنزله لتنظيم حياة البشر ، نصرهم الله تعالى على ممالك ضخمة لم يكونوا في يوم من الأيام يحلمون بحياسة رقعة صغيرة من أراضيها .

وإنه مهما اتفق المفكرون على مبادئ من صنع البشر ومهما حاولوا إتقانها وعظموها ، وجعلوها وسيلة لإخضاع عامة الناس ، فإن هذه المبادئ لم تخرج من عبودية البشر للبشر ، لأنها من صنع البشر أنفسهم .

ولأجل فهم المسلمين الأوائل لعوامل انهيار الأمم وعوامل قيامها حكم المغيرة بن شعبة على دولة الفرس بالفناء ، لما عرف المبدأ الذي يتنافس فيه عامتهم ، وهو خدمة كبرائهم ، وتعظيمهم والخضوع لهم ، لأنه من السهولة بمكان أن يتنبه العامة ، وأن يقولوا : لسنا عبيداً للبشر، ولكن مما يشبه المستحيل أن يقول العامة في دولة الإسلام : لسنا عبيداً لرب البشر ، لأن العبودية لرب البشر جل جلاله هي منتهى العز والكرامة ، وغاية الفخر والجلال .

ولقد تنبه عقلاء الفرس إلى هذا الخطأ الكبير الذي بنوا عليه سياستهم ، كما سبق في محاوره رستم مع زهرة بن الحوية حيث قال رستم : صدقتني والله ، أما إن أهل فارس منذ ولي أردشير لم يدعوا

أحدا يخرج من عمله من السفلة ، كانوا يقولون : إذا خرجوا من أعمالهم تعدوا طورهم وعادوا أشرافهم .

قال أبو عثمان النهدي في سياق رواية الحوار بين المغيرة بن شعبة ورستم : فمأزحه رستم ليمحو ماصنع ، وقال له : يا عربي إن الحاشية قد تصنع ما لا يوافق الملك ، فيتراخى عنها مخافة أن يكسرهما عما ينبغي من ذلك ، فالأمر على ماتحب من الوفاء وقبول الحق ، ثم قال : ماهذه المغازل التي معك ؟^(١) قال : ماضر الجمرة أن لا تكون طويلة ، ثم راماهم ، وقال : مابال سيفك رثا ؟ قال : رث الكسوة ، حديد المضربة . ثم عاطاه سيفه .

لقد أدرك رستم خطورة هذا الكلام الذي ألقى به المغيرة وفي سط يضم كبراء الفرس إلى جانب خدامهم وتابعيهم ، فلم يراجع في هذا الكلام حتى يقطع الحوار حول هذا الموضوع خوفاً من أن يواصل المغيرة بيان هذا الموضوع ، فذكر أنه لا يوافق حاشيته على ما صنعوا من تعظيمه ، وهو مجرد اعتذار أراد به الخروج من هذا المأزق ، ثم لم يمهل المغيرة ليرد على ذلك بل عاجله بالسؤال عن سلاحه بأسلوب التهوين والاحتقار فكان جواب المغيرة على البديهة مسكتاً ، ومعلياً من شأن المخبر مهوناً من شأن المظهر .

ثم قال له رستم : تكلم أم اتكلم ؟ فقال المغيرة : أنت الذي بعثت إلينا فتكلم ، فتكلم رستم فعظم من شأن قومه وذكر محامدهم ، وصغر من شأن العرب وذكر معائبهم ، ثم عرض مساومة المسلمين بالمال ليرجعوا عنهم .

فتكلم المغيرة بن شعبة وحمد الله وأثنى عليه وقال : إن الله

(١) يعني بذلك السهام .

خالق كل شيء ورازقه ، فمن صنع شيئاً فإنما هو يصنعه والذي له (١) وأما الذي ذكرت نفسك وأهل بلادك من الظهور على الأعداء ، والتمكن في البلاد ، وعظم السلطان في الدنيا ، فنحن نعرفه ولسنا ننكره ، فالله صنعه لكم ووضعه فيكم ، وهوكه دونكم ، وأما الذي ذكرت فينا من سوء الحال ، وضيق المعيشة واختلاف القلوب ، فنحن نعرفه ولسنا ننكره ، والله ابتلانا بذلك وصيرنا إليه ، والدنيا دول ولم يزل أهل شدائدها يتوقعون الرخاء حتى يصيروا إليه ، ولم يزل أهل رخائها يتوقعون الشدائد حتى تنزل بهم ، ويصيروا إليها ، ولو كنتم فيما آتاكم الله ذوي شكر ، كان شكركم يقصر عما أوتيتهم ، وأسلمكم ضعف الشكر إلى تغير الحال ، ولو كنا فيما ابتلينا به أهل كفر ، كان عظيم ماتابع علينا مستجلبا من الله رحمة يُرفقه بها عنا ولكن الشأن غير ما تذهبون إليه ، أو كنتم تعرفوننا به ، إن الله تعالى بعث إلينا رسولا . . ثم ذكر مثل كلام من سبقه من الوفود إلى أن ذكر الجزية ، فاستشاط رستم غضبا ، ثم حلف بالشمس لا يرتفع لكم الصبح غداً حتى أقتلكم أجمعين .

وإن هذا الكلام الواضح الرصين من المغيرة لم يترك لرستم مجالاً للرد خاصة وأن الأيام الثلاثة التي فرضها عليه المسلمون قد انتهت فلم يعد هناك مجال لمحاولاته السياسية في الصلح أو تأخير موعد اللقاء . قال : فأنصرف المغيرة ، وخلص رستم تألفاً بأهل فارس وقال : أين هؤلاء منكم ؟ ما بعد هذا ؟ ألم يأتكم الأولان فحسبوا رستم واستحرجاكم ، ثم جاءكم هذا فلم يختلفوا ، وسلخوا طريقاً واحداً ،

(١) يعني فإن الله تعالى هو الذي يخلقه وما صنع .

ولزموا أمراً واحداً، هؤلاء والله الرجال صادقين كانوا أم كاذبين ،
والله لئن بلغ من إربهم وصونهم لسرهم أن لا يختلفوا ، فما قوم أبلغ
فيما أرادوا منهم، ولئن كانوا صادقين مايقوم لهؤلاء شيء ، فلعجوا
وتجلدوا ، وقال : والله إنني لأعلم أنكم تُصغون إلى ما أقول لكم ،
وأن هذا منكم رثاء ، فازدادوا لجاجة (١) .

وهذا اعتراف آخر من رستم بما عليه المسلمون من سُمُو في
الأخلاق وعُلُو في السياسة، وكان مثار دهشة رستم وعجبه من كون
وفود المسلمين يقولون كلاماً واحداً لا يختلفون فيه في المطالب التي
يعرضونها عليه، فاستنتج من ذلك إحدى نتيجتين : أن يكونوا كاذبين
في دعواهم الدينية فهم عظماء في صونهم الأسرار واتفاق كلمتهم
وتخلقهم بمكارم الأخلاق ، أو أن يكونوا صادقين في دعوتهم إلى
دينهم فإن هذا الدين السماوي هو الذي جبلهم على هذه السياسة
العظيمة ومكارم الأخلاق، وقد ترجحت لديه النتيجة الأخيرة حيث
ختم كلامه عن المسلمين بقوله : لئن كانوا صادقين مايقوم لهؤلاء شيء .
ومن هذا تتبين لنا منزلة اجتماع الكلمة واتفاق الرأي في الدعوة
إلى الإسلام ، وإظهار عظمة المسلمين ، وإيقاع الرعب والهيبة في
قلوب الأعداء .

فمتى يتنبه المسلمون للزوم هذا المبدأ الكريم الذي أنتج للمسلمين
الأوائل هذه النتائج الباهرة ، حتى يكونوا جسداً واحداً كما أمرهم
نبيهم صلى الله عليه وسلم ويداً واحدة على أعدائهم .
وقول رستم لكبار قاداته « والله إنني لأعلم أنكم تصغون إلى ما

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٥٢١ - ٥٢٤ .

أقول لكم وأن هذا منكم رثاء « يعني أنهم في قرارة أنفسهم مقتنعون برأي رستم في تفادي الحرب مع المسلمين بأي ثمن ولكنهم يصرون على الحرب مراءاةً لملك الفرس حيث إنه يصر على ذلك .

ورستم يشير بهذا إلى خطورة نتائج كتمان الرأي السديد من أهل الشورى مداراة لمن هم أعلى منهم في المسئولية ، وهو محق فيما ذهب إليه من ذلك ولكن قومه لم يسمعوا منه .

هذا ويبدو أن رستم كان معجبا بذكاء المغيرة بن شعبه الحاد وسرعة بديهته وإن كان قد استاء كثيراً من جرأته عليه وعلى قومه ، فلما ذهب المغيرة أراد رستم أن يرمي بآخر ما في جعبته ليغيظ المغيرة ، فقد جاء في رواية أخرجه الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن الرُّفيل الفارسي قال : فأرسل - يعني رستم - مع المغيرة رجلاً ، وقال له : إذا قطع القنطرة ووصل إلى أصحابه فنَاد : إن الملك كان منجماً قد حسب لك ، ونظر في أمرك فقال : إنك غدا تفقأ عينك ، ففعل الرسول : فقال المغيرة : بَشَرْتَنِي بخير وأجر ، ولولا أن أجاهد بعد اليوم أشباهكم من المشركين لتمنيت أن الأخرى ذهبت أيضاً ، فراحهم يضحكون ويتعجبون من بصيرته .

وهكذا فليكن الرجال ، ورضي الله عن عمر حينما أوصى سعداً بحسن اختيار الوفود وذكر له الصفات التي يجب أن تتوفر فيهم ، ورضي الله عن سعد حينما أحسن الاختيار ، فاختر من مثلاً إسلامهم وأمتهم أصدق تمثيل ، وأدخلوا الحيرة والرعب في قلوب أعدائهم .

ولقد بلغ هذا الكلام رستم فزاده رعباً وقلقاً ، وتمثل ذلك في

قوله لقومه ناصحاً لهم كما جاء في هذه الرواية : أطيعوني يا أهل فارس ، وإني لأرى لله فيكم نقمة لاتستطيعون ردّها عن أنفسكم (١) .

حوار رستم مع بقية وفد المسلمين :

هذا ولما رجع المغيرة وكان آخر الوفود أراد سعد أن يُعذر من أعدائه فأرسل لهم بقية من اختارهم للوفادة، كما جاء في رواية أخرى للطبري من طريق سيف بن عمر عن شيوخه أنهم قالوا : أرسل إليهم سعد بقية ذوي الرأي جميعاً وحبس الثلاثة (٢) فخرجوا حتى أتوه ليعظموا عليه استقباحاً (٣) فقالوا له : إن أميرنا يقول لك : إن الجوار يحفظ الولاة، وإني أدعوك إلى ما هو خير لنا ولك، العافية أن تقبل مادعاك الله إليه، ونرجع إلى أرضنا وترجع إلى أرضك، وبعضنا من بعض إلا أن داركم لكم، وأمركم فيكم، وما أصبتم مما وراءكم كان زيادة لكم دوننا، وكنا لكم عوناً على أحد إن أرادكم أو قوي عليكم، واتق الله يارستم، ولا يكونن هلاك قومك على يديك، فإنه ليس بينك وبين أن تُغَبَط به إلا أن تدخل فيه، وتطرد به الشيطان عنك .

وهذا كلام عظيم في غاية التنزل مع الأعداء ، ومحاولة تأليف قلوبهم ، وإنما يدل هذا الكلام على تجرد المسلمين من إرادة الدنيا ، حيث أبدوا استعدادهم الكامل بالرجوع إلى بلادهم إذا دخل الفرس في الإسلام وأن يتركوا لهم حكم بلادهم وماوراءها مما يتم على يدهم فتحه ، ثم يكونون عوناً لهم على أعدائهم .

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٢٤ .

(٢) يعني أبقي الثلاثة الأولين فلم يرسلهم .

(٣) يعني ليعظموا عليه صدوده عن الإسلام استقباحاً لرأيه ورأي قومه .

وإن في هذا التجرد عبرة لهم لو كان لهم عقول يبصرون بها .

ولقد كان رستم مقتنعاً بالإسلام كما تقدم ، ولكنه لم يستطع إقناع قومه ، ففضل البقاء معهم على عداة المسلمين ، وظهر أمام الوفد الإسلامي بما يجب أن يكون عليه في عرف دولته من تفخيم أمر أمته والتهوين من شأن العرب ، وقد تكلم بكلام طويل ضرب فيه عدة أمثال تدور حول بيان اغترار المسلمين بما حصلوا عليه من نصر سابق فشبههم بحيوانات أحسنت الدخول وطاب لها المقام ولم تحسن الخروج ، فأصيبت لسوء تقديرها النتائج ، وبين لهم ما ينتظرهم من مصير سيء على يد جيشه .

ولاشك أنه كان يتظاهر بغير ما يعتقد خضوعاً لما تلزمه به الأعراف الحربية حيث قد صرح قبل ذلك مراراً بتشاوره من قتال المسلمين وتخوفه من سوء العاقبة على قومه .

وقد رد عليه أعضاء الوفد الإسلامي بكلام بليغ شروحوا فيه دعوة الإسلام وواقع الفرس في كفرهم نعمة ربهم فقالوا : أما ما ذكرتم من سوء حالنا فيما مضى ، وانتشار أمرنا فلماً تبلغ كنهه ، يموت الميت منا إلى النار ، ويبقى الباقي منا في بؤس ، فبيننا نحن في أسوأ ذلك بعث الله فينا رسولاً من أنفسنا إلى الإنس والجن ، رحمة رحم الله بها من أراد رحمته ، ونعمة يتقم بها عن رد كرامته ، فبدأ بنا قبيلة قبيلة فلم يكن أحد أشد عليه ، ولا أشد انكاراً لما جاء ، ولا أجهد على قتله ورد الذي جاء به من قومه ، ثم الذين يلونهم ، حتى طابقناه على ذلك كلنا ، فنصبنا له جميعاً وهو وحده فرد ليس معه إلا

الله تعالى ، فأعطى الظفر علينا فدخل بعضنا طوعاً وبعضنا كرهاً ،
ثم عرفنا جميعاً الحق والصدق ، لَمَّا أتانا به من الآيات المعجزة ، وكان
مما أتانا به من عند ربنا جهاد الأدنى فالأدنى ، فسرنا بذلك فيما بيننا ،
نرى أن الذي قال لنا ووعدنا لا يُخرم عنه ولا يُنقض ، حتى اجتمعت
العرب على هذا ، وكانوا من اختلاف الرأي فيما لا يطبق الخلائق
تأليفهم ، ثم أتيناكم بأمر ربنا لمجاهد في سبيله وننفذ أمره وننجز
موعوده ، وندعوكم إلى الإسلام وحكمه ، فإن أحببتمونا تركناكم
ورجعنا ، وخلّفنا فيكم كتاب الله ، وإن أبيتم لم يحلّ لنا إلا أن
نعاطيكم القتال ، أو تفتدوا بالجزى فإن فعلتم وإلا فإن الله قد أورثنا
أرضكم وأبناءكم وأموالكم ، فاقبلوا نصيحتنا ، فوالله لإسلامكم
أحبُّ إلينا من غنائمكم ، ولقتالكم بعدُ أحبُّ إلينا من صلحكم .

وأما ما ذكرت من رثائنا وقتلتنا فإن أداتنا الطاعة ، وقتالنا الصبر ،
وأما ما ضربتم لنا من الأمثال فإنكم ضربتم للرجال والأمور الجسام
وللجد الهزل ، ولكننا سنضرب مثلكم إنما مثلكم مثل رجل غرس
أرضاً ، واختار لها الشجر والحبَّ وأجرى إليها الأنهار ، وزينها
بالقصور ، وأقام فيها فلاّحين يسكنون قصورها ، ويقومون على
جنتها ، فخلا الفلاحون في القصور على ما لا يُحبُّ ، وفي الجنان
بمثل ذلك ، فأطال نظرتهم^(١) . فلما لم يستحيوا من تلقاء أنفسهم ،
استعتبهم فكابروه ، فدعا إليها غيرهم ، وأخرجهم منها ، فإن ذهبوا
عنها تخطّفهم الناس ، وإن أقاموا فيها صاروا خولاً لهؤلاء يملكونهم ،
ولا يملكون عليهم ، فيسومونهم الخسف أبداً ، وو الله لو لم يكن

(١) يعني أسهلهم طويلاً .

مانقول لك حقا ، ولم يكن إلا الدنيا لما كان لنا عما ضَرِينَا به من لذيذ عيشكم ورأينا من زبرِجكم من صبر ، ولقَارَعْنَاكم حتى نغلبكم عليه (١) .

وبهذا البيان الرفيع ختم وفود جيش المسلمين لقاءاتهم وحوارهم مع قائد الفرس ، وقد اشتمل هذا البيان على أمور مهمة ، فإن هؤلاء ومن سبقهم من الوفود قد اتفقوا على موافقة رستم في التهوين من شأن العرب قبل الإسلام بل إنهم ذكروا من سوء حالهم ما لم يذكره رستم ، وكذلك ذكر جميع الوفود في فتوح المسلمين الأولى ، وهذا يدل على سلامتهم من لؤثة القومية العربية ، وتجردهم للدين الإسلامي ، وبذلك فوتوا على اعدائهم ثغرات واسعة للطعن فيهم .

فقد قالوا لرستم وغيره : إنا لسنا أولئك الذين حملتم عنهم هذه الصورة ، فإننا نتبرأ منهم ومن مناهجهم في الحياة ، ولكن الله تعالى بدّلنا أناسا آخرين ، لما اعتنقنا هذا الدين ، فاحكموا علينا من واقعنا الذي تُشاهدونه والذي يشرف كل صاحب عقل سليم ولا تحكموا علينا من تاريخنا الماضي قبل التحول بالإسلام .

ثم ذكروا أن تحوّلهم إلى الإسلام لم يتم لأن النبي صلى الله عليه وسلم عربي مثلهم ، بل إنهم قاوموه أشد المقاومة ، ولم ينصره حتى قومه وإنما حصل هذا التحول لما أُشربتْ قلوبهم حب هذا الدين لما يشتمل عليه من معجزات وآيات بينات ، لا تترك مجالا لصاحب العقل السليم إلا أن يُدعن له ويترك هواه ، وفي هذا تحريض للفرس وغيرهم كي يذعنوا للإسلام إذا فهموا سمو هذا الدين عن أن يكون دين قوم أو جنس .

(١) تاريخ الطبري ٥٢٥/٣ - ٥٢٩ .

ثم بينوا لرستم أن خروج المسلمين من بلادهم لقتالهم ليس استجابة لهوى أنفسهم ، وإنما هو تكليف من تكاليف هذا الدين الذي آمنوا به ، ولذلك كان دخول أعدائهم في الإسلام أحب إليهم من الصلح الذي يستفيدون منه جباية الجزية كل عام ، لما يترتب على إسلامهم من الأجر العظيم لمن يدعوهم إليه ، ودخولهم مع أعدائهم في القتال أحب إليهم من مصالحتهم بالجزية لما يترتب على الجهاد من أجر عظيم في مباشرة القتال وفي الاستشهاد في سبيل الله تعالى ، وكون الدخول في القتال ، وهو لا تؤمن عاقبته أحب إليهم من الصلح الذي تضمن عاقبته دليل واضح على أنهم لا يريدون الدنيا وإنما يريدون الآخرة ، وهذا يكفي في إقناع صاحب العقل السليم بالدخول في الإسلام ، ومؤاخاة هؤلاء الكرام الذين تجردوا من حظوظ أنفسهم وعاشوا لدينهم الذي ارتضاه لهم خالقهم جل وعلا .

وردوا على ما ذكره من قلة عددهم ، وراثثة مظهرهم بأن عدتهم الطاعة وقتالهم الصبر ، فالطاعة لله تعالى أولاً ثم للقائد في حدود طاعة الله تعالى ، وإن جيشاً يتصف بالطاعة الكاملة لقائده وذوي الرأي فيه ليعدل أضعافه من جيش ينقصه التفاهم والولاء للقيادة .

أما الصبر فإنه أهم عناصر النصر لأن أفراد الجيش قد يبذلون طاقة في القتال أول الأمر لكن قل من يصبر على هذا المستوى من الطاقة إلى نهاية المعركة .

ثم بينوا لرستم على سبيل التوبيخ أن ماضرب لهم من الأمثال حيث شبههم بالحيوانات لا يليق لأن الرجال والأمور الجسام لا يُمثَّل لها بالهزل من القول .

ثم ضربوا له مثلاً عاليًا نبَّهوا قومه فيه إلى أنهم قد ركبوا أهواءهم ، وعطلوا عقولهم التي منَّ الله بها عليهم في أهم أمر يجب أن يفكروا فيه وهو شكر الخالق جل وعلا وإخلاص العبادة له . وإن لم يفعلوا ذلك فإن الله تعالى يسلط عليهم أولياءه فينتقم بهم منهم . وهكذا أرسل سعد بن أبي وقاص عدة وفود إلى رستم ليدعوه وقومه إلى الإسلام ويقيم عليهم الحجة .

ولقد بين هؤلاء الوفود في حوارهم مع رستم أن الإسلام يقوم على إخلاص العبادة لله تعالى وحده ، وذلك يتضمن الكفر بجميع الطواغيت التي تُعبد من دون الله تعالى ، وأن المسلمين سواسية عنده جل وعلا ، لأفضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ، وأن المسلمين مأمورون بالدعوة إلى الله تعالى لإخراج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى وحده .

وهل كان العرب في جاهليتهم يعبدون العباد ؟ أم كانوا يعبدون الأشجار والأحجار ؟

في الظاهر كانوا يعبدون الأشجار والأصنام المنحوتة ونحو ذلك من الجمادات ولكن العبادة الحقيقية للأصنام الكبيرة كاللات والعزى ومناة لم تكن لذواتها وإنما كانت لمن كانوا وراءها من شياطين الإنس الذين كانوا يروّجون لها ، ومن شياطين الجن الذين كانوا يخاطبون عابديها .

فأما كون شياطين الإنس يروّجون لها ويدافعون عنها فهذا معروف ، ومن أبرز ما يتعلق بعبادة الإنس المتعلقة بعبادة الأصنام أنهم كانوا يشرعون للناس ما يُنظّمون به حياتهم باسم الأصنام وبموجب

ولأنهم وخدمتهم لها ، وهذا نوع من أنواع العبادة فلا يجوز صرفه لغير الخالق جل وعلا .

وأما كون شياطين الجن يخاطبون عابديها ويلبسون لهم ما يستطيعون من حوائجهم فهذا أيضاً مشهور وقد مر علينا في فتح مكة بعض ماكان من ظهور الجن عند هدم الأصنام .

أما في غير بلاد العرب فقد كانت عبادة العباد للعباد ظاهرة مكشوفة وقد لاحظ جنود الإسلام أمثلة منها في بلاط قادة الفرس والروم ، وماكان في بلاط كسرى وهرقل أعظم من ذلك ، فلذلك ركّز وفود المسلمين على محاربة هذه الطبقة التي تجعل الناس عابدين ومعبودين .

ولقد وُفّق الوفود إلى النطق بالصواب حينما بينوا لرستم حقيقة الواقع الذي آل إليه أمر العرب في جاهليتهم حيث بينوا له أنهم من السوء والانحطاط على حال هي أشد مما وصفهم به رستم ، ثم وُفّقوا حينما عَزَوْا ذلك إلى ماكانوا عليه من الشرك بالله ، حيث كانوا يعبدون العباد معه ، ثم وُفّقوا في بيان أن هذا التحول الكبير المفاجيء الذي لا يحتاج إلى بيان إنما كان بسبب دين التوحيد ، حيث أصبحوا بهداية النبي ﷺ يخلصون العبادة لله تعالى وحده .

وكان هذا التوحيد الخالص هو العامل المهم في انتصار المسلمين بما يشبه الخوارق .

إن العامل الرئيس في انهزام الأمة أن يتخذ بعضها بعضاً أرباباً من دون الله تعالى ، لأنه مادام الأرباب مساوين للمربوبين في الخلق فما

الذي يدفع المربوبين إلى الإخلاص في عبادة الأرباب والاستعداد للفناء من أجلهم ؟ !

وإذا كانوا يطيعونهم خوفا من بطشهم فما الذي يكفل لهم دوام الرقابة عليهم في كل أحوالهم ؟

إن كل إنسان يملك طاقة عظيمة مدخرة ، وهو ليس على استعداد لأن يبذلها إلا لمن يستحقها ، وهل يبذلها إلى حد الفناء ليستبقي بها حياة مخلوق مثله ؟ !

هذا ما لا يمكن أن يقع في حياة الناس ، إن كل جندي ممن لا يحملون عقيدة التوحيد الخالص يقاتل بجزء يسير من طاقته ، ويستبقي الجزء الكبير منها للدفاع عن نفسه لأنها أغلى شيء يملكه ، وليس على استعداد لأن يفدي بها غيره .

أما جنود التوحيد الذين لا يتخذون أرباباً من البشر فإنهم يبذلون كل طاقتهم من أجل نصره كلمة التوحيد ، ولن يقف أحد لمثل هؤلاء مهما بلغ عددهم وقويت عدتهم .

ولعل هذا من أسرار تكليف المسلم بالثبات أمام عشرة من الكفار ﴿ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (١) .

وإن من عدم فقههم كونهم يصرفون أعمالهم لغير الله تعالى . ولقد خفف الله تعالى عن المؤمنين لضعف بعضهم ، فجعل الحد الأدنى للثبات الواجب أن يواجهه المسلمون ضِعْفَهُمْ ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ

(١) سورة الأنفال / ٦٥ .

عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١﴾ .

والظاهر أن رستم وهو الخبير بمصائر الأمم وعوامل الانتصار والانهياء في الحروب قد أدرك سرَّ عظمة المسلمين ، حيث إنهم جميعاً بقادتهم وجنودهم يخدمون مبدأً واحداً سامياً يموتون جميعاً من أجله ، وفي سبيل إعزازه يحيون .

لقد أدرك ذلك ، وأدرك في مقابله أسباب انهيار دولتهم وأن السبب الرئيس في ذلك هو انقسام الناس فيها إلى عابد ومعبود ، وعدم توفر الأسباب المؤثرة التي تجعل الجندي يضحي بنفسه في سبيل أمته ، بينما رأى ذلك متمثلاً بوضوح في كلام الوفود من المسلمين ، وفي واقع حياة المسلمين وانتصاراتهم السريعة الباهرة .

لقد أدرك ذلك كله فداخله الرعب من المسلمين ، وهم بمصالحتهم ومهادنتهم لو وافقه ملك الفرس على ذلك .

عبور الفرس إلى المسلمين :

وفي نهاية الحوار مع رستم قال لوفد المسلمين : أتعبرون إلينا أم نعبر إليكم ؟ فقالوا : بل اعبروا إلينا .

ولما علم سعد بذلك أمر الجيش بالاستعداد ، وأرسل إلى الفرس : شأنكم والعبور ، فأرادوا العبور من القنطرة فأرسل إليهم : لا ولاكرامة . أما شيء قد غلبناكم عليه فلن نرده عليكم ، تكلّفوا معبراً غير القناطر فباتوا يردمون نهر العتيق حتى الصباح .

(١) سورة الأنفال / ٦٦ .

عودة إلى الرؤى المزعجة :

ورأى رستم من الليل أن ملكاً نزل من السماء فأخذ قسى أصحابه فختم عليها ، ثم صعد بها إلى السماء ، فاستيقظ مهموماً محزوناً ، فدعا خاصته فقصها عليهم ، وقال : إن الله ليعظنا لو أن فارس تركوني أتعظ ، أما ترون النصر قد رُفِعَ عنا ، وترون الريح مع عدونا ، وأنا لانتقم لهم في فعل ولا منطق ، ثم هم يريدون مغالبةً بالجبرية^(١) .

وهكذا عادت لرستم أحلامه المزعجة وهي نوع من الرعب الذي يلقيه الله في قلوب أعداء المسلمين .

استعداد المسلمين :

وقد أمر سعد رضي الله عنه بتعبئة الجيش استعداداً لبدء المعركة ، وكان مريضاً بعرق النسا ، وبه دمامل لا يستطيع الركوب ولا الجلوس فكان مكباً على صدره وتحتة وسادة ويشرف على الميدان من قصر قُدَيْس الذي كان في القادسية وقد أناب عنه في تبليغ أوامره خالد بن عرفطة . وقد أمر بأن ينادى في الجيش : ألا إن الحسد لا يحل إلا على الجهاد في أمر الله ، أيها الناس فتحاسدوا وتغايروا على الجهاد^(٢) .

وقبل بدء القتال حصل اختلاف على خالد بن عرفطة نائب سعد فقال سعد : احملوني وأشرفوا بي على الناس ، فارتقوا به فأكبَّ مطلعا عليهم والصف في أسفل حائط قصر قُدَيْس يأمر خالداً فيأمر

(١) تاريخ الطبري ٥٢٩/٣ .

(٢) تاريخ الطبري ٥٣٠/٣ .

خالد الناس ، وكان ممن شَغِبَ عليه وجوه من وجوه الناس فهمَّ بهم سعد وشمهم ، وقال : أما والله لو لا أن عدوكم بحضرتكم لجعلتكم نكالا لغيركم ، فحبسهم ، ومنهم أبو محجن الشقي ، وقبدهم في القصر .

وقال جرير بن عبد الله البجلي - مؤيداً طاعة الأمير - : أما إني بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن أسمع وأطيع لمن ولاه الله الأمر وإن كان عبداً حبشياً .

وقال سعد : والله لا يعود أحد بعدها يحبس المسلمين عن عدوهم ويشاغلهم وهم بإزائهم إلا سنَّتُ فيه سنة يُؤخذ بها من بعدي (١) .

لقد كان سعد رضي الله عنه رجل الموقف حقاً فقد حسم الداء في أول مراحلهِ ، وقضى على الفتنة وهي في مهدها ، وهو نوع من القوة والحزم لا يتوفر إلا في القليل من الناس ، وإذا صاحَبَ القوة حلم وحكمة وكرم اكتملت عناصر السيادة ، وهي متوفرة في سعد رضي الله عنه ، فلذلك استطاع أن يقود هذا الجيش الكبير المتزعزع من قبائل عديدة بينها إحنٌ وأحقاد في الجاهلية ، وقد كانوا يأنفون من سيادة بعضهم على بعض .

وقد قام فيهم سعد خطيباً بعد هذه الحادثة فقال بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه : إن الله هو الحق لا شريك له في الملك ، وليس لقوله خُلف ، قال الله جل ثناؤه ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ (٢) إن هذا ميراثكم وموعد

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٣١ .

(٢) سورة الانبياء / ١٠٥ .

ربكم ، وقد أباحها لكم منذ ثلاث حجج فأنتم تطعمون منها وتأكلون منها ، وتقتلون أهلها وتجبونها وتسبونهم إلى هذا اليوم بما نال منهم أصحاب الأيام منكم وقد جاءكم منهم هذا الجمع ، وأنتم وجوه العرب وأعيانهم وخيار كل قبيلة ، عز من وراءكم ، فإن ترهدوا في الدنيا وترغبوا في الآخرة جمع الله لكم الدنيا والآخرة ، ولا يقرب ذلك أحدا إلى أجله ، وإن تفشلوا وتهنوا وتضعفوا تذهب ربحكم وتوبقوا آخرتكم (١) .

وقام عاصم بن عمرو التميمي فقال : إن هذه البلاد قد أحل الله لكم أهلها ، وأنتم تنالون منهم منذ ثلاث سنين ما لا ينالون منكم ، وأنتم الأعلون والله معكم ، إن صبرتم وصدقتموهم الضرب والطعن فلکم أموالهم ونساؤهم وأبناؤهم وبلادهم ، وإن خرتم وفشلتم - والله لكم من ذلك جار وحافظ - لم يبق هذا الجمع منكم باقية ، مخافة أن تعودوا عليهم بعائدة هلاك ، الله الله اذكروا الأيام وما منحكم الله فيها ، ألا ترون أن الأرض وراءكم بسابس قفار ليس لها خمر ولا ورر يعقل إليه (٢) ولا يمتنع به ! اجعلوا همكم الآخرة (٣) .

وهذا كلام يدل على عمق في فهم التوحيد ورسوخ في الإيمان ، وإن صدور مثل هذا الكلام من عاصم بن عمرو الذي لم يدخل في الإسلام إلا في أواخر العهد النبوي لدليل على عمق الأثر الذي تركه الإسلام في نفوس العرب .

هذا وقد كتب سعد إلى أصحاب الرايات : إني قد استخلفت

(١) تاريخ الطبري ٥٣١/٣ .

(٢) أي ليس لكم غطاء ، ولا حصن تلجؤون إليه .

(٣) تاريخ الطبري ٥٣٢/٣ .

فيكم خالد بن عرفطة، وليس يمنعني أن أكون مكانه إلا وجعي الذي يعودني ومابي من الحبوب - يعني الدمامل - فأني مكبٌ على وجهي وشخصي لكم باد فاسمعوا له وأطيعوا فإنه إنما يأمركم بأمرى ويعمل برأىي، فقُرئ على الناس فزادهم خيراً، وانتهوا إلى رأيه وقبلوا منه وتحاثوا على السمع والطاعة، وأجمعوا على عذر سعد والرضى بما صنع.

ولقد كان في إصابة سعد بالمرض حكمة بالغة فقد ألزمه المرض البقاء في القصر وكان مشرفاً على ساحة المعركة ، فكان يرى تفاصيل سير المعركة فيوجه توجيهاته عن طريق نائبه ، ولو أنه كان سليماً واشترك بنفسه في القتال كالمعتاد لانغمس داخل الجيش ولم يستطع الإشراف على كل مايجري في الساحة ، وستأتي أمثلة تبين أنه أنقذ باطلاعه الدقيق على مايجري فئات من الجيش كاد العدو أن يفنيهم ، وقد ساعده على ذلك أنه كان حديد البصر .

وإن المعارك الكبيرة كهذه المعركة تحتاج إلى تفرغ القائد لإدارتها ولكن المسلمين الأوائل ألفوا أن يكون القائد بينهم وفي مقدمتهم .

ولا يمكن أن يُظنَّ بسعد رضي الله عنه أنه ترك المشاركة في القتال جبناً ولا رعاية لحظ النفس، فإن بقاءه فوق قصر غير محصن وبدون حراسة يعتبر غاية الثبات والتضحية ، وفي ذلك يقول عثمان بن رجاء السعدي: كان سعد بن مالك أجراً الناس وأشجعهم، إنه نزل قصرًا غير حصين بين الصفين، فأشرف منه على الناس ولو أعراه الصف فواق ناقة أخذ برُمته (١)، فوالله ما أكرثه هول تلك الأيام ولا أقلقه (٢).

(١) يعني لو انحسر عنه صف المسلمين وانكشف للعدو مقدار حلب ناقة لآخذه الأعداء .

(٢) تاريخ الطبري ٣ / ٥٨٠ .

رستم يفزع من الأذان :

بعدهما ردم الفرس نهر العتيق وعملوا لهم منه جسرا ظلوا يعبرون منه طوال الليل حتى وصلوا إلى ميدان المعركة .

ومن أخبارهم بعد العبور مارواه الإمام الطبري من طريق سيف ابن عمر عن ابن الزُّبَيْل ^(١) قال : لما نزل رستم النجف بعث منها عينا إلى عسكر المسلمين ، فانغمس فيهم بالقادسية كبعض من نداء منهم ، فرآهم يستأكون عند كل صلاة ثم يصلون ، فيفترقون إلى موافقهم ، فرجع إليه فأخبره بخبرهم وسيرتهم ، حتى سأله : ما طعامهم ؟ فقال : مكثت فيهم ليلة ، لا والله مارأيت أحداً منهم يأكل شيئاً إلا أن يمصوا عيداناً لهم حين يُمسون وحين ينامون وقبيل أن يصبحوا .

فلما سار فنزل بين الحصن والعتيق - يعني في القادسية - وافقهم وقد أذن مؤذن سعد الغداة فرآهم يتحشَّحشون - يعني يتهيئون للنهوض - فنادى في أهل فارس أن يركبوا ، فقبل له : ولم ؟ قال : أما ترون إلى عدوكم قد نودي فيهم فتحشَّحشوا لكم ! قال عينه ذلك : إنما تحشَّحشهم هذا للصلاة ، فقال بالفارسية وهذا تفسيره بالعربية : أتانى صوت عند الغداة ، وإنما هو عمر الذي يكلم الكلاب فيعلمهم العقل .

فلما عبروا تواقفوا وأذن مؤذن سعد للصلاة - يعني صلاة الظهر - فصلى سعد ، وقال رستم : أكل عمر كبدي ^(٢) .

وهكذا فزع رستم من سماع الأذان ، ومن منظر المسلمين وهم

(١) لعل الرواية عن أبيه كما في سائر الرويات .

(٢) تاريخ الطبري ٥٣٢/٣ - ٥٣٣ .

يستعدون جميعاً للصلاة بحيوية ونشاط ، ومن اجتماعهم جميعاً خلف قائدهم في الصلاة .

وكان المسئول الأعلى في المسلمين آنذاك هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فما كان من رستم إلا أن نسب إليه هذه الآثار التربوية العالية .

فكيف لو كانت هذه الحروب في عهد النبي ﷺ وسمع رستم عن معجزاته ، وحب المؤمنين وطاعتهم إياه وسياسته العالية في السلم والحرب بما لا مثيل له ، فماذا سيقول ؟

وماعمر بن الخطاب بمواهبه الفذة وسمعته العالية إلا قبس من ضوء رسول الله ﷺ .

ولو أنه تجرد من الهوى ، واستمع لإرشاد من أعجب بمنطقهم وأخلاقهم وصلاتهم لأدرك أن النقلة العظيمة التي انتقل العرب إليها في واقعهم المذهل لم تكن من نتاج البشر مهما بلغوا من الذكاء والتربية العالية ، وإنما هي وحي إلهي أنزله الله جل وعلا على خاتم الرسل ﷺ هداية للثقلين .

وإذا كان أحد تلامذة النبي ﷺ الذين رباهم على يديه قد أفرع قادة العالم آنذاك وملاً قلوبهم كمدا فبِمَ يوصف أثر النبي ﷺ ؟ إنه أمر عظيم يفوق حد الوصف ، ولقد ظل مفكرو العالم آنذاك متحيرين من تلك الآثار الضخمة للدعوة الإسلامية ، ولم يخرج من هذه الحيرة إلا من مسّت أنوار الإيمان شغاف قلبه فأعلن إسلامه وتبعيته للركب العظيم الذي ساد العالم وفرض عليه حضارته وعلومه .

وإنها لشهادة بيّنة من مفكر عالمي تُظهر ما للصلاة والأذان من أثر

بالغ في تقويم السلوك ، وإنه لمنظر عظيم حين يقوم جيش مكون من ثلاثين ألفا مستجيبين لنداء رجل واحد ، ويقفون للصلاة خلف إمام واحد ، ولكن الألف والعادة يُفقدان العمل الرائع روعته وجلاله إلا عند من رسخ الإيمان في قلوبهم ، فأصبح يتجدد لهم اليقين مع كل صلاة ، وإذا كان كثير من المسلمين يغفل عن مزايا الأذان وصلاة الجماعة ، فإن مفكري الأعداء قد شهدوا بذلك ، والحق ماشهدت به الأعداء .

ولقد كان من مظاهر حرص الصحابة رضي الله عنهم ومن اتبعهم بإحسان على الالتزام بالسنة أن حملوا معهم أعواد الأراك من الحجاز وظلوا يستاكون بها حتى كانت من ملازماتهم إياها من المظاهر المهمة التي لفتت نظر جاسوس رستم فأبلغه عنها ، وإن من عوامل النصر المهمة الالتزام بسنة رسول الله ﷺ حتى في الأمور الصغيرة فإن هذا الالتزام دليل على كمال الطاعة لله تعالى وذلك أن الصحابة رضي الله عنهم يؤثرون التكاليف الشرعية من الاهتمام بقدر منزلتها ، وإذا كانوا يهتمون هكذا بالسنن التي لا يعاقب تاركها فإن اهتمامهم بالواجبات من باب أولى ، والمسلم يثاب على حرصه على السنة ومحاسبته نفسه عن التقصير فيها .

مواعظ جهادية :

صدرت مواعظ بليغة من وجهاء المسلمين وقادتهم في بداية اليوم الأول من المعركة وكانت بأمر من سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لتقوية إيمان المسلمين وإثارة حماسهم ليبدلوا في سبيل الله كل طاقتهم ، فلقد جمعهم سعد وقال لهم : انطلقوا فقوموا في الناس بما

يحق عليكم ويحق لهم عند مواطن البأس ، فإنكم من العرب بالمكان الذي أنتم به ، وأنتم شعراء العرب وخطباؤهم ، وذووا رأيهم ونجدتهم وسادتهم ، فسيروا في الناس فذكروهم وحرصوهم على القتال ، فساروا فيهم .

فقال قيس بن هبيرة الأسدي : أيها الناس احمدا الله على ما هداكم له وأبلاكم يزدكم ، واذكروا آلاء الله ، وارغبوا إليه في عاداته ، فإن الجنة أو الغنمة أمامكم ، وإنه ليس وراء هذا القصر إلا العراء ، والأرض القفر ، والظراب الخشن ، والفلوات التي لا تقطعها الأدلة .

وقال غالب بن عبد الله الليثي : أيها الناس احمدا الله على ما أبلاكم وسلوه يزدكم ، وادعوه يجبكم ، يامعاشر معدّ ، ماعلتكم اليوم وأنت في حصونكم - يعني الخيل - ومعكم من لا يعصيكم - يعني السيوف - ؟ اذكروا حديث الناس في غد ، فإنه بكم غداً يبدأ عنده ، وبمن بعدكم يُثنى .

وقال ابن الهذيل الأسدي : يامعاشر معدّ ، اجعلوا حصونكم السيوف ، وكونوا عليهم كأسود الأجم ، وتربّدوا لهم تربّد النمر وادرعوا العجاج ، وثقوا بالله ، وغضوا الأبصار ، فإذا كلّت السيوف - فإنها مأمورة - فأرسلوا عليهم الجنادل ، فإنها يؤذن لها فيما لا يؤذن للحديد فيه .

وقال بُسر بن أبي رهم الجهني : احمدا الله وصدقوا قولكم بفعل ، فقد حمدتم الله على ما هداكم له ، ووحدتموه ولا إله غيره ، وكبرتموه ، وآمنتم بنبيه ورسله ، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ،

ولا يكونَنَّ شيءٌ بأهون عليكم من الدنيا ، فإنها تأتي من تهاون بها ،
ولا تميلوا إليها فتهرب منكم لتميل بكم ، انصروا الله ينصركم .

وقال عاصم بن عمرو : يامعاشر العرب إنكم أعيان العرب ،
وقد صمدتم لأعيان من العجم ، وإنما تخاطرون بالجنة ، ويخاطرون
بالدنيا ، فلا يكونَنَّ على دنياهم أحوط منكم على آخرتكم ، لا تحدثوا
اليوم أمراً تكونوا شيئاً على العرب غدا .

وقال ربيع بن البلاد السعدي : يامعاشر العرب قاتلوا للدين
والدنيا ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ
أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) وإن عظم الشيطان عليكم الأمر فاذكروا الأخبار
عنكم بالمواسم مادام للأخبار أهل .

وقال رباعي بن عامر : إن الله قد هداكم للإسلام ، وجمعكم به ،
وأراكم الزيادة ، وفي الصبر راحة ، فعودوا أنفسكم الصبر تعتادوه ،
ولا تعودوها الجزع فتعتادوه .

ذكر ذلك الإمام الطبري وقال : وقام كلهم بنحو هذا الكلام ،
وتوافق الناس وتعاهدوا ، واحتاجوا لكل ما كان ينبغي لهم (٢) .

أقول : وإن في بعض هذا الكلام ذكراً للدنيا مع الآخرة ، وإنما
أرادوا بذلك تحريض من لم يرسخ الإيمان في قلوبهم وهم قليل .
يوم أرمات :

في اليوم الأول من أيام القادسية ويسمى « يوم أرمات » وجه

(١) سورة آل عمران / ١٣٣ .

(٢) تاريخ الطبري ٣ / ٥٣٣ - ٥٣٤ .

سعد رضي الله عنه بيانه إلى الجيش قائلاً : الزموا مواقفكم لا تحركوا شيئاً حتى تصلُّوا الظهر ، فإذا صليتم الظهر فإني مكبرٌ تكبيرة فكبروا واستعدوا ، واعلموا أن التكبير لم يُعطه أحد قبلكم ، واعلموا أنما أُعطيتموه تأييداً لكم ، ثم إذا سمعتم الثانية فكبروا ، ولتُسْتَمَّ عُدَّتكم ، ثم إذا كبرت الثالثة فكبروا ، ولينشط فرسانكم الناس ليبرزوا وليطاردوا ، فإذا كبرت الرابعة فازحفوا جميعاً حتى تخالطوا عدوكم ، قولوا : لاحول ولا قوة إلا بالله^(١) .

وهذا نموذج من البيانات الحربية التي يلقيها القادة قبل بدء المعركة لرسم خطة بدايتها ، ومن مزايا التخطيط الحربي لدى المسلمين أن التوقيت وإصدار الأوامر للقتال يكون بالتكبير ، وفي ذلك أبلغ التذكير بمعية الله سبحانه لأوليائه بالنصر والتأييد ، وحينما يذكر المسلم ربه جل وعلا وهو متهيئ لخوض المعركة فإن إيمانه يقوى ، ويكون الله سبحانه بين عينيه واللجنة محط تفكيره ، وتتضاءل الدنيا بكل ما فيها عنده ، وحينما يظل مصطحباً ذكر الله تعالى فإنه يأتي بالعجائب ولا يقف له شيء ، ومن أجل أن يكبر المسلمون بقلوبهم مع ألسنتهم وأن يظلوا مصطحبين لذكر الله تعالى ، فإن سعداً قال لهم : واعلموا أن التكبير لم يُعطه أحد قبلكم ، واعلموا أنكم إنما أُعطيتموه تأييداً لكم .

فأله أكبر تعني أنه أكبر من الأعداء وإن كانوا في نظر الناس أقوىاء ، وأنه تعالى أكبر من كل شيء ، فالذي يقولها من قلبه وهو يفقه معناها يستصغر قوة الأعداء مهما عظمت ، ويحتقر مظاهر الدنيا

(١) تاريخ الطبري ٥٣٥/٣ .

وإن كانت هيمنتها على نفسه كبيرة فيُقدم على قتال الأعداء بطاقته الكاملة ، ولذلك كان التكبير تأييداً للمسلمين من الله تعالى .

ثم يختم سعد بيانه بتوجيه أصحابه إلى قول « لا حول ولا قوة إلا بالله » عند الزحف على الأعداء ، وهو توجيه آخر لربط المسلمين بربهم جل وعلا ، فلا تحول للمؤمن من حال القلق والاضطراب إلى حال السكينة والطمأنينة ، ومن حال الترقب والخوف من سوء العاقبة إلى العاقبة الحميدة إلا بالله جلا وعلا ، ولا قوة للمؤمن على مواجهة الشدائد والمصائب إلا بالله تعالى ، ولذلك كان هذا التوجيه في نهاية البيان في غاية المناسبة .

وهذه الكلمة العظيمة تُؤتي مفعولها في تقوية قلب المؤمن ، ومعونته على تحمل الشدائد إذا نطق بها وهو مدرك لمعناها ، مستحضر لعظمة الله تعالى ، وأن كل شيء بيده يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وأن يكون في حال الرخاء من المتقين لله جل وعلا ، ولذلك كان الربانيون من أمثال عمر رضي الله عنه يخشون على جنود الإسلام من المعاصي أكثر من خشيتهم عليهم من الأعداء .

ولما صلى سعد الظهر أمر الغلام الذي كان ألزمه إياه عمر - وكان من القراء - أن يقرأ سورة الجهاد [يعني سورة الأنفال] وكان المسلمون يتعلمونها كلهم ، فقرأ على الكتيبة الذين يلونه سورة الجهاد، فقرئت في كل كتيبة ، فهشت قلوب الناس وعيونهم وعرفوا السكينة مع قراءتها^(١) .

وهكذا يتزود المسلمون المتقون بالقرآن ، ويجعلون من كلام الله

(١) تاريخ الطبري ٥٣٦/٣ .

تعالى مادة لحماسهم وإقدامهم على القتال ، فأين منهم الذين يرددون
الشعارات الجاهلية ؟ ! وماهي النتائج المرتقبة للاتجاهين في الدنيا
والآخرة؟

ولما فرغ القراء كبر سعد ، فكبر الذين يلونه بتكبيره ، وكبر بعض
الناس بتكبير بعض ، فتحشش الناس [يعني تحركوا] ثم ثنى فاستم
الناس ، ثم ثلث فبرز أهل النجدات فأنشبوا القتال ، وخرج من أهل
فارس أمثالهم ، فاعتوروا الطعن والضرب (١) .

وكان لأبطال المسلمين من أمثال غالب بن عبد الله الأسدي ،
وعاصم بن عمرو التميمي وعمرو بن معد يكرب الزبيدي وطليحة بن
خويلد الأسدي أثر ظاهر في النكاية بالعدو حيث قتلوا وأسروا عدداً
من أبطالهم ولم يقتل من المسلمين أحد فيما ذكر أثناء المباراة ،
والمبارزة فن عسير من فنون الحرب لا يتقنه إلا الأبطال من الرجال ،
وهي ترفع من شأن المنتصرين وتزيد في حماسهم ، وتخفض من شأن
المنهزمين وتحط من معنوياتهم ، والمسلمون الأوائل متفوقون في هذا
الفن على غيرهم دائماً ، ولذلك فإنهم هم المستفيدون من المباراة .

وبينما الناس ينتظرون التكبير الرابعة إذ قام صاحب رجالة بني
نهد قيس بن جذيمة بن جرثومة ، فقال : يا بني نهد انههدوا فإنما
سميتم نهذا لتفعلوا ، فبعث إليه خالد بن عرفطة ، والله لتكفن أو
لأولين عملك غيرك ، فكف (٢) .

وهذه نظرة حزم وانضباط من خالد بن عرفطة ، فإن سعداً لم

(١) تاريخ الطبري ٥٣٦/٣ .

(٢) المرجع السابق ٥٣٧/٣ .

يؤخر التكبيرة الرابعة إلا لحكمة يقتضيها الموقف ، ولعل من ذلك أن تتكشف نقاط الضعف في جيش الأعداء ، ولعل من ذلك أيضاً أن يبرز دور أبطال المسلمين في مبارزة الأعداء ، ومطاردتهم وفي ذلك تنشيط للمسلمين وتخذيّل للكافرين وإذا التحم المسلمون بأجمعهم مع الأعداء لم تظهر هذه البطولات إلا لعدد محدود من الناس .

وهذا الهدف جاء التصريح به في كلام سعد السابق حيث يقول : «ولينشّط فرسانكم الناس ليبرزوا وليطاردوا » وقد برزوا وطاردوا وكانت الغلبة لهم ، وظهر فشل الفرس في مجالي المبارزة والمطاردة ، وهذا ماكان الفرس يتحاشونه في قتالهم مع المسلمين في كل لقاء .

ولما رأى رستم تفوق المسلمين لم يمهّلهم حتى يكملوا خطة قائدهم في المزيد من حرب المطاردة والمبارزة ، بل أمر جانباً من قواته بأن تهجم هجوماً عاماً على جانب جيش المسلمين الذي فيه قبيلة بجيلة ومن لفّ معهم ، وكان الهجوم ملفتاً للنظر لأن الفرس وجهوا ما يقرب من نصف الجيش إلى قطاع لا يمثل إلا نسبة قليلة من الجيش الإسلامي ، وهذا يدل على محاولتهم المستميتة لقطع حرب المبارزة والمطاردة التي فشلوا فيها .

وهكذا هجم الفرس على أحد جناحي جيش المسلمين بثلاثة عشر فيلاً وكل فيل يصحبه حسب تنظيم جيشهم أربعة آلاف مقاتل من المشاة والفرسان ، ففرقت الفيلة بين كتائب المسلمين وكان الهجوم مركزاً على بجيلة ومن حولهم وثبت المشاة من أهل المواقف لهجوم الفرس .

وأبصرهم سعد فأرسل إلى بني أسد يقول لهم : ذبّوا عن بجيلة

ومن لاقَها من الناس ، فخرج طليحة بن خويلد وحمَّال بن مالك وغالب ابن عبد الله والرَّبِيع بن عمرو في كتابتهم ، يقول المعروف بن سويد وشقيق : فشَدُّوا والله عليهم فمزالوا يطعنونهم ويضربونهم حتى حبسنا الفيلة عنهم ، فأخَّرت وخرج إلى طليحة عظيم منهم فبارزه ، فما لبَّثه طليحة أن قتله .

ذكر ذلك الإمام الطبري ^(١) وذكر في رواية أخرى أن فارس لما رأوا ما تلقى الفيلة من كتيبة أسد رموهم بحدِّهم ، وبدر المسلمين الشدَّة عليهم ذو الحاجب والجالنوس [وهما قائدان من قادة الفرس] والمسلمون ينتظرون التكبيرة الرابعة من سعد ، فاجتمعت حلبة فارس على أسد ومعهم تلك الفيلة ، وقد ثبتوا لهم ، وقد كبر سعد الرابعة ، فزحف إليهم المسلمون ورحى الحرب تدور على أسد .

وحملت الفيول من الميمنة والميسرة على خيول المسلمين ، فكانت الخيول تحجم عنها وتحيد ، وتلح فرسانهم على المشاة ليدفعوا بالخيول لتُقدَّم على الفيلة .

فأرسل سعد إلى عاصم بن عمرو فقال : يامعشر بني تميم أَلستم أصحاب الإبل والخيول ؟ أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة ؟ قالوا : بلى والله ، ثم نادى في رجال من قومه رماة ، وآخرين لهم ثقافة [يعني حذق وخفة حركة] فقال لهم : يامعشر الرماة ذبوا ركبان الفيلة عنهم بالنبل ، وقال : يامعشر أهل الثقافة استدبروا الفيلة فقطَّعوا وُصْنُها [يعني آحزمتها لتسقط توابيتها التي تحمل المقاتلين] وخرج يحميهم ، والرحى تدور على أسد ، وقد جالت الميمنة والميسرة غير بعيد ،

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٣٨ - ٥٣٩ .

وأقبل أصحاب عاصم على الفيلة فأخذوا بأذنانها وذبابذ توابيتها
 [يعني ما يعلق بها] فقطعوا وُضنها وارتفع عواء الفيلة فما بقي لهم
 يومئذ فيلٌ إلا أُعْريَ، وقُتل أصحابها ، وتقابل الناس ونُفُس عن
 أسد، وردوا فارس عنهم إلى مواقفهم فاقتتلوا حتى غربت الشمس ،
 ثم حتى ذهبت هداة من الليل ، ثم رجع هؤلاء وهؤلاء ، وأُصيبَ
 من أسد تلك العشية خمسمائة ، وكانوا رداءً للناس ، وكان عاصم
 [يعني وبني تميم] عادية الناس وحاميتهم ، وهذا يومها الأول وهو
 يوم أرمات^(١) .

وهكذا انتهى اليوم الأول بما فيه من شدائد ومفاجآت ، وكانت
 فيه مواقف تذكر لأبطال المسلمين ، ومواقف تذكر لقادتهم .

فمما ذُكر لقائد المسلمين سعد رضي الله عنه أنه كان يقظاً متنبهاً
 لما يجري في ساحة المعركة ، وأنه كان يتصرف في الوقت المناسب بما
 يناسب المقام ، وكان لموقعه المُشرف من القصر ما يساعد على رؤية
 ما يجري بوضوح ، ولئن كان الذي أقعده عن المشاركة في القتال هو
 المرض فإني أعتبر أن هذا المرض رحمة من الله تعالى بذلك الجيش
 ليتم إشراف القائد عليه وهو يرى كل جزئية فيه ، ولقد كان هذا
 الوضع هو المفترض حتى لو كان سعد صحيحاً في مثل هذه المعركة
 الكبيرة والجيش المترامي الأطراف ، فإنه لو قادهم من الميدان لم يدرك
 كل ما يجري ولفاتت أمور تحتاج إلى علاج فوري ، ومن هذه الأمور
 ما قام به الفرس من توجيه ثلاثة عشر فيلاً بصحبته اثنان وخمسون
 ألف مقاتل إلى قبيلة بجيلة التي يبلغ عددها ألفين ومن معها من

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٣٩ - ٥٤٠ .

القبائل الصغيرة ، فلولا ما ألهم الله به سعداً من تصرف حكيم لأبید هذا الجزء من الجيش ، ولكن سعداً أبصر ذلك فأمر قبيلة أسد بالدفاع عن بجيلة وصد الفرس ، ولقد كان بإمكان قبيلة أسد أن تساند بجيلة لكن لن تفعل ذلك بالمستوى الذي قامت به لما أمرها القائد العام .

ومما يدل على مبلغ تأثير أمر سعد على بني أسد ماكان من زعيمهم طليحة بن خويلد فقد قال لقومه يومئذ : يا عشيرتاه إن المنه باسمه الموثوق به ، وإن هذا لو علم أن أحداً أحق بإغاثة هؤلاء منكم استغاثهم ، ابتدؤوهم الشدة ، وأقدموا عليهم إقدام الليوث الحربة فإنما سُميت أسداً لتفعلوا فعله شدوا ولا تصدوا ، وكروا ولا تفروا ، لله در ربعة أي فرّ يفرّون ، وأي قرن يغنون ، هل يوصل إلى مواقفهم ! فأغنوا عن مواقفكم أغناكم الله ، شدوا عليهم باسم الله (١) .

ولقد كان لهذا الكلام مفعول عجيب في نفوس قومه حيث تحولوا إلى طاقات فعالة ، وتحملوا وحدهم وحى المعركة إلى أن ساندتهم بنو تميم ، وقدموا في هذا اليوم خمسمائة شهيد .

ثم لما استحکم الأمر وادلهم على بني أسد ، ووجه إليهم الفرس قائدهم بهمن جاذويه ومعه خمسة أفيال وعشرين ألف مقاتل ، لم يتركهم سعد بل وجه إلى عاصم بن عمرو زعيم بني تميم ليثير فيه مسئولية تحمل الدفاع عن بني أسد ومحاولة تعطيل سلاح الفيلة ، وكان لهذه الثقة الكبيرة التي أولاه إياها سعد أثر بالغ فيما جرى من النتائج المحمودة لأن شعور الإنسان بأنه المسئول الأول عن القضية يجعله يفكر فيها بما لا يفكر به الآخرون ، ومع الاعتصام بالله تعالى

(١) تاريخ الطبري ٥٣٨/٣ - ٥٣٩ .

أولاً والتعمق في التفكير ثانياً يتفتق الذهن عادة عن الحلول المناسبة للمشكلة ، وهذا ما حصل لعاصم حيث ابتكر الطريقة السالفة الذكر لتعطيل الفيلة وقضى هو وقومه على راكبيها .

مواقف بطولية في اليوم الأول :

لقد جرت في اليوم الأول من أيام معركة القادسية مواقف بطولية .

فمن ذلك موقف الأبطال من قبيلة بجيلة ومن معهم من النخع وكندة وغيرهم حيث رامهم الفرس بشقلهم ففرت خيلهم من الفيلة وثبت المشاة في وجه الفرس حتى ساندتهم قبيلة أسد .

ثم مواقف الأبطال من قبيلة أسد فقد وجهوا ثقلهم لحرب الفيلة ومن عليها وصمدوا لها صموداً مذهلاً يدل على شجاعة عالية وإيمان قوي ، ولم يثن من عزائمهم سقوط المئات من الشهداء بين أرجلهم ، وإن ثبات رجال هذه القبائل وعدم فرارهم مع هذا الوضع الهائل الذي صبه عليهم الفرس لدليل على عظمة المسلمين الصادقين ، وأنهم هم رجال المواقف حقاً .

ثم ما قام به بنو تميم بقيادة عاصم بن عمرو من التصدي للفيلة بقطع أحزماتها وإلقاء التواييت من فوقها التي كانت مملوءة بالمقاتلين والقضاء عليهم ، وإن الوصول إلى الفيلة بحد ذاته مطلب عسير ، ومزلق خطير ، فمع ما عرف عن الفيلة من مقدرة على القتال ، وصعوبة بالغة في إصابة مقاتليها فإن كل فيل حوله أربعة آلاف مقاتل من الفرسان والمشاة ، فإذا علمنا أن عدد الفيلة التي سيواجهها بنو تميم بعد انضمام بهممن جاذويه إلى الهجوم ثمانية عشر ، وأن عدد المقاتلين

حولها اثنان وسبعون ألفاً فإننا نعلم ضخامة المهمة التي توجه لها عاصم بن عمرو ومن انتخبهم من قومه من الرماة الذين كانت مهمتهم مشاغلة المقاتلين حول الفيلة ومن الذين اختارهم من الشجعان الحاذقين للوصول إلى مؤخرة الفيلة لتنفيذ المهمة ، ولعله قام بهذه المهمة باختراق هذه المجموعات واحدة بعد الأخرى لأن مهمته التي تولاها هي حماية المجموعة التي تتولى الهجوم على مؤخرة الفيلة وهي مهمة أصعب من مهمتهم ، فله درهم من أبطال مغاوير ! ما أعظم جسارتهم ! وما أبعد أثرهم !

لقد ولّت الفيلة هاربة ولها عواء ، وانشغل الفرس بإصلاح توابعها ليلة ويوماً ، واستراح منها المسلمون في اليوم الثاني من أيام المعركة .

وانتهى اليوم الأول ، فماذا كان عمل المسلمين في الليل ؟ لقد كان من رحمة الله بهم أن توقفت المعركة ليتفرغوا لنقل شهدائهم ودفنهم ، ونقل الجرحى إلى مستشفى الحرب ، وأين موقع هذا المستشفى ؟ إنه في «العُدَيْب» حيث تقيم نساء المجاهدين الصابرات المحتسبات ، فيتلقين الجرحى ويتولّين علاجهم وتمريضهم إلى أن يتم قضاء الله فيهم ، ومع ذلك فإن لهن مهمة أعجب من ذلك يشترك معهن فيها الصبيان ألا وهي حفر قبور الشهداء ، ولئن كان تطيب الجرحى وتمريضهم من المهمات القريبة المنال للنساء فإن حفر الأرض من المهمات الخشنة ، ولكن الرجال كانوا مشغولين بالجهاد ، فلتقّم النساء بمهمتهم عند الضرورة ، وهنّ أهلّ لذلك لما يتصفن به من الإيمان والصبر .

وتم نقل الشهداء إلى وادي مشرق بين العذيب وعين الشمس في
جانبه جميعاً (١) .

وكان التحايز بين المسلمين وأعدائهم تلك الليلة فرصة لزيارة
بعض المجاهدين لأهلهم في العذيب .

ومما ذكر من الأخبار في ذلك مما فيه عبرة ما أخرجه الإمام
الطبري بإسناده عن الشعبي قال : كانت امرأة من النخع لها بنون أربعة
شهدوا القادسية ، فقالت لبنها : إنكم أسلمتم فلم تبدلوا ،
وهاجرتم فلم تشبوا (٢) ، ولم تنب بكم البلاد (٣) ، ولم تُحسبكم
السنة (٤) ، ثم جئتم بأمكم عجوز كبيرة فوضعتموها بين يدي أهل
فارس ، انطلقوا فاشهدوا أول القتال وآخره ، فأقبلوا يشتدون ، فلما
غابوا عنها رفعت يديها إلى السماء وهي تقول : اللهم ادفع عن بني ،
فرجعوا إليها وقد أحسنوا القتال ما كُلم (٥) منهم رجل كلما (٦) .

وهكذا تكون المؤمنات ، فهذه المرأة تحب بنها حباً ملاً جوانحها ،
ولكن حبها لبنها لم يحملها على منع الخير عنهم ، فالخير كل الخير
في أن يجاهدوا في سبيل الله تعالى لمصلحتهم الخاصة في رفع
درجاتهم ، ولمصلحة الأمة الإسلامية إذا أضيف إلى مجاهديها أربعة
ليوث ، يدافعون عن حرمتها وينشرون دين الإسلام في الأرض ،

(١) الطبري ٥٤٢/٣ - ٥٥٠ .

(٢) يعني فلم ترجعوا عن هجرتكم .

(٣) يعني ولم يستقلكم الناس .

(٤) أي ولم يضعفكم القحط والجوع .

(٥) يعني لم يجرح .

(٦) تاريخ الطبري ٥٤٤/٣ .

ولكن كيف تجمع بين حبها المفرط لبنيتها وحبها الخير لهم ولامتهم ؟
إن السبيل هو ماسلكته من دفع بنيتها إلى الجهاد ، والتضرع إلى
الله تعالى في نفس الوقت بأن يدفع عن بنيتها ويردّهم إليها سالمين .
ولقد علم الله سبحانه صدق نيتهما في حب الأمرين فجمعهما
لها ، وهو سبحانه القريب إلى عباده المتقين .

ويشبه خبر هذه المرأة ماجرى للخنساء مع بنيتها الأربعة في دفعهم
إلى الجهاد ، فقد زارها بنوها تلك الليلة فقوت من عزائمهم وحثتهم
على التعرض للباس الشديد من القتال ، وكان مما قالت لهم : فإن
أصبحتم غداً إن شاء الله سالمين ، فاغدوا إلى قتال عدوكم
مستبصرين ، وبالله على أعدائه مستنصرين ، فإذا رأيتم الحرب قد
شمّرت عن ساقها ، واضطربت لظي سيقها وحلّلت ناراً على أرواقها
[جوانبها] فتيّموا وطيسها [وسطها] وجالدوا رئيسها عند احتدام
خميسها [جيشها] تظفروا بالغنم والكرامة ، في دار الخلد والمقامة^(١) .

وإنها لكلمات بليغة جمعت بين عمق المعنى ومتانة المبنى ، ولا
عجب في ذلك فإن الخنساء شاعرة مجيدة .

ولقد ضربت بهذا السلوك مثلاً عالياً للأم المؤمنة ، فلقد دفعت
ببنيتها إلى مواطن الشهادة وهي أحوج ما تكون إليهم لكبر سنّها ،
ولكنها لرسوخ إيمانها تشعر بأن ما تنتظره عند الله تعالى في دار كرامته
أعظم وأبقى .

وهكذا فلتكن النساء المؤمنات ، فإن لم يبلغن هذا الحد من

(١) الاستيعاب ٢٨٩/٤ .

التضحية فليكن كالمراة النخعية السالفة الذكر ، التي دفعت بينها إلى الجهاد وسألت الله عز وجل أن يحفظهم لها .

ولئن خُلد التاريخ ذكر هاتين المرأتين فَلَكُمْ حَوَتْ مضارب النساء في العذيب من نساء مؤمنات مضحيات مرييات ، وإن ماقدمنه من المجاهدين الذين ملثوا ساحات القادسية بذلا وتضحية ، وأصبحوا مثلاً عالية لمن جاء بعدهم . . إن ماقدمنه من ذلك لدليل على صدق الإيمان وسمو التربية لديهن .

ولئن سكت التاريخ عن تسطير مآثرهن ومآثر كثير من أبطال الإسلام ، فإن ذلك كله مسجل في تاريخ الخلود ، وسيجدونه في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .
يوم أغواث :

كان يوم أغواث هو اليوم الثاني من أيام القادسية . وفي ليلة هذا اليوم قدمت طليعة جيش الشام يقودهم القعقاع بن عمرو التميمي .
وقد كان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه قد أمر أمير الشام أباعبدة بإعادة جيش خالد بن الوليد إلى العراق مدداً للمسلمين في القادسية ، فأعادهم وأبقى خالدًا عنده لحاجته إليه ، وولّى على هذا الجيش هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ابن أخي سعد وكان هذا الجيش تسعة آلاف حين قدم من العراق إلى الشام بقيادة خالد وعاد منهم إلى العراق ستة آلاف ، وقد ولّى هاشم بن عتبة القعقاع بن عمرو على المقدمة وعددهم ألف مجاهد ، فأسرع القعقاع حتى قدم بهم على جيش القادسية صبيحة يوم أغواث ، وكان أثناء قدومه قد فكر بعمل يرفع به من معنوية المسلمين فقسم جيشه إلى مائة قسم كل قسم مكون من عشرة ، وأمرهم بأن يقدموا تباعاً كلما

غاب منهم عشرة عن مدى إدراك البصر سرّحوا خلفهم عشرة ، فقدم هو في العشرة الأوائل وصاروا يقدمون تباعاً كلما سرّح القعقاع بصره في الأفق فأبصر طائفة منهم كبر فكبر المسلمون ونشطوا في قتال أعدائهم ، وهذه خطة حربية ناجحة لرفع معنوية المقاتلين ، فإن وصول ألف لايعني مدداً كبيراً لجيش يبلغ ثلاثين ألفاً ، ولكن هذا الابتكار الذي هدى الله القعقاع إليه قد عوض نقص هذا المدد بما قوى به عزيمة المسلمين .

وقد بشرهم بقدوم الجنود بقوله : يا أيها الناس إني قد جئتكم في قوم والله إن لو كانوا بمكانكم ثم أحسوكم حسدوكم حظوتها وحاولوا أن يطيروا بها دونكم ، فاصنعوا كما أصنع ، فتقدم ثم نادى : من يبارز؟ فقالوا فيه بقول أبي بكر : لايهزم جيش فيهم مثل هذا ، وسكنوا إليه ، فخرج إليه ذو الحجاب [وهو قائد كبير من قادة الفرس وأبطالهم وهو الذي أصاب المسلمين يوم الجسر] فقال له القعقاع : من أنت ؟ [وكان لايعرفه لأن القعقاع يوم الجسر كان في الشام] فقال : أنا بهمن جاذويه .

وهنا تذكر القعقاع مصيبة المسلمين الكبرى يوم الجسر على يد هذا القائد فأخذته حميته الإسلامية فنادى وقال : يالآثارات أبي عبيد وسلّيط وأصحاب الجسر ، ولا بد أن هذا القائد الفارسي بالرغم مما اشتهر به من الشجاعة قد انخلع قلبه من هذا النداء ، فلقد قال أبو بكر رضي الله عنه عن القعقاع « لَصَوْتُ القعقاع في الجيش خير من ألف رجل » فكيف سيثبت له رجل واحد مهما كان في الشجاعة وثبات القلب ؟ ولذلك لم يمهل القعقاع أن أوقعه أمام جنده قتيلاً فكان لقتله بهذه

الصورة أثر كبير في زعزعة الفرس ورفع معنوية المسلمين لأنه كان قائداً لعشرين ألف مقاتل من الفرس .

ثم نادى القعقاع مرة أخرى : من يبارز ؟ فخرج إليه رجلان ، أحدهما البيروزان والآخر البندوان ، فانضم إلى القعقاع الحارث بن ظبيان ابن الحارث أخو بني تيم اللات ، فبارز القعقاع بيروزان [وهو قائد مؤخرة الفرس ويتبعه أربعة وعشرون ألف مقاتل] فقتله القعقاع ، وبارز ابن ظبيان بندوان وهو من أبطال الفرس فقتله ابن ظبيان .

وهكذا قضى القعقاع في أول النهار على قائدين من قادة الفرس الخمسة ، ولاشك أن ذلك قد أوقع أربعة وأربعين ألف مقاتل من الفرس في الحيرة والاضطراب لفقد قائديهم إلى جانب إنكسار معنوية بقية الجيش الفارسي .

والتحم الفرسان من الفريقين ، وجعل القعقاع يقول : يامعاشر المسلمين بأشروهم بالسيوف فإنما يُحصَدُ الناس بها ، فتواصى الناس ، وأسرعوا إليهم بذلك فاجتلدوا بها حتى المساء .

وذكر الرواة أن القعقاع حمل يومئذ ثلاثين حملة ، كلما طلعت قطعة حمل حملة وأصاب فيها وجعل يرتجز ويقول :

أُرْعِجْهُمْ عَمْدًا بِهَا إِرْعَاجَا أَطْعَنَ طَعْنًا صَائِبًا ثَجَّاجَا

أرجو به من جنة أفواجا

وكان آخر من قُتِلَ بُزْرَجَمَهْرُ الهمداني وقال في ذلك القعقاع :
حبوته جِيَّاشَةً بالنفس هَدَّارَةً مثل شعاع الشمس
في يوم أغواث فَلَئِلُ الفرس أنخس بالقوم أشد النخس
حتى تفيض مَعَشَرِي ونفسي (١)

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٥٤٢ - ٥٤٧ .

وهكذا رأينا هذا البطل العظيم يطوي الأرض طياً بين الشام والعراق ليمد الجيش الإسلامي بنفسه ومن معه ، فيواصل الليل مع النهار ، حتى إذا وصل وشاهد ما يكابده المسلمون من قتال أعدائهم بادر إلى أشد نوع من القتال وهو المبارزة ، في الوقت الذي كان بحاجة إلى أن يأخذ قسطاً من الراحة بعد سفر شاقّ طويل ، ولكن أنى له أن يستريح وهو يملك قلباً كبيراً يحمل همّ الأمة الإسلامية ومستقبل الإسلام .

ولله در أبي بكر رضي الله عنه حينما اكتشف في وقت مبكر عظمة هذا الرجل ومقدرته الحربية فبعثه وحده مدداً لخالد بن الوليد في العراق وقال عنه « لا يُهزم جيش فيهم مثل هذا » وقال عنه « لَصَوْتُ القَعْقَاعِ فِي الجَيْشِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ رَجُلٍ » ، ولقد أثبتت الأيام صدق فِرَاسَةِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كَمَا فِي هَذِهِ المَعْرَكَةِ وَمَا سَبَقَهَا مِنْ مَعَارِكٍ .

إن القَعْقَاعَ بْنَ عَمْرٍو وَأَصْحَابَهُ بِمَا قَدَّمُوا ذَلِكَ الْيَوْمَ لِأَصْدَقِ دَلِيلٍ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَوْدَعَ فِي الْجِسْمِ الْإِنْسَانِيِّ طَاقَةَ ضَخْمَةٍ وَلَكِنْ الْإِنْسَانُ الْعَادِيٌّ لَا يَبْذُلُ إِلَّا جِزْءاً مِنْ طَاقَتِهِ ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَوْجِدَ مِنْ يَبْذُلُ طَاقَتَهُ الْكَامِلَةَ فِي الْقِتَالِ إِلَّا الْمُسْلِمُونَ الَّذِينَ صَدَقُوا مَعَ إِسْلَامِهِمْ ، لِأَنَّهُمْ يَنْسُونَ أَنْفُسَهُمْ تَمَاماً فِي سَبِيلِ الدِّفَاعِ عَنْ دِينِهِمْ وَأَمْتِهِمُ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَهَؤُلَاءِ يَتَفَاوَتُونَ فِي بَذْلِ الطَّاقَةِ حَسَبَ قُوَّةِ إِيْمَانِهِمْ .

وهذا بطبيعة الحال لا يكفي عن التدريب البدني الطويل المتواصل ، ولكن هذا التدريب متوفر لدى العرب منذ الجاهلية لكثرة ما يقوم بينهم من الحروب ، وجاء الإسلام فحث المسلمين على ركوب الخيل والرمية والسباحة وغير ذلك من إعداد القوة البدنية ، مع مارسخ في

قلوبهم من العقيدة الإيمانية التي تجعل هدف المسلم الأعلى ابتغاء
رضوان الله تعالى والسعادة الآخروية ، فتجردوا لله تعالى ونسوا
ذواتهم في سبيله جل وعلا ، فأتوا بالعجائب ودوخوا الأمم وأقاموا
دولة الإسلام العظمى ، لأنهم بلغوا الغاية في الأمرين : التدريب
البدني ، والقوة الروحية .

فأما حين يحصل الضعف والخلل في الأمرين أو أحدهما فإن
الإنسان لا يبذل إلا جزءاً من طاقته ويهدر بقيتها لضعف الدوافع التي
تدفعه لإبراز الطاقة المدخرة .

بطولات أخرى في هذا اليوم :

إضافة إلى بطولات القعقاع بن عمرو التميمي المذكورة فقد برزت
في هذا اليوم مواقف بطولية تستحق الذكر والثناء ، فلقد جاء في
تاريخ الطبري من رواية سيف بن عمر عن شيوخه أن رجلاً من
الفرس خرج ينادي : من يبارز ؟ فبرز له « علباء بن جحش العجلي »
فنفحه علباء فأسحره [يعني أصابه في رثته] ونفحه الآخر فأمعاه
[يعني أصابه في أمعائه] وخرّاً ، فأما الفارسي فمات من ساعته ،
وأما الآخر فانتثرت أمعاؤه فلم يستطع القيام ، فعالج إدخالها فلم
يتأت له حتى مر به رجل من المسلمين فقال : يا هذا أعني على بطني ،
فأدخله له ، فأخذ بصفاقيه [يعني جلد بطنه] ثم زحف نحو صف
فارس مايلتفت إلى المسلمين ، فأدركه الموت على رأس ثلاثين ذراعاً
من مصرعه إلى صف فارس وقال :

أرجو بها من ربنا ثواباً قد كنت ممن أحسن الضرباً (١)

(١) تاريخ الطبري ٥٤٦/٣ .

فهذا الفارس الصريع يزحف إلى جيش الأعداء وهو ممسك بطنه حتى لا يخرج أمعاؤه مرة أخرى ، وكأنه يعطي من نفسه نموذجاً لبذل آخر ما في الوسع والطاقة في قتال الأعداء ، وهو في أثناء زحفه يحتسب هذه الخطوات عند الله تعالى ، وهو منظر مهيب مذهل لمن شاهده من الأعداء ، فإنه لم يزحف نحو المسلمين ، ولو فعل لم يكن ملوماً فقد بذل ما يجب عليه وأصبح عاجزاً عن القتال ، ولكنه رحف نحو الأعداء إمعاناً منه في تحديهم والنكاية بهم ، وتقرباً إلى الله تعالى بتلك الخطوات ، وتقوية لعزائم المسلمين الذين مارلوا بكامل قواهم ، وهذا نموذج من السمو الذي كانت الأمة الإسلامية تتمتع به في عصورها الزاهرة .

ومثل آخر يبين لنا ما كان يتمتع به أولئك الأعلام من مقدرة فائقة في القتال والخروج من الأزمات ، فقد روى الإمام الطبري من طريق سيف ابن عمر عن شيوخه : أن رجلاً من أهل فارس خرج فنادى : من يبارز؟ فبرز له " الأعراف بن الأعلم العُقيلي " فقتله ، ثم برز له آخر فقتله ، وأحاطت به فوارس منهم فصرعوه ، ونذر سلاحه عنه فأخذوه ، فغبر في وجوههم بالتراب حتى رجع إلى أصحابه (١) .

فهذا البطل المقدم حينما سقط سلاحه واجتمع عليه عصابة من أهل الكفر حول تراب الأرض سلاحاً فصار يغبر في وجوه الأعداء وهو يتراجع إلى الوراء حتى لحق بأصحابه ، وهذا بقدر ما يظهر أبطال المسلمين بمظهر الجمع بين الشجاعة النادرة والرأي الحصيف فإنه يظهر جنود الكفر بمظهر التخاذل والاشتغال بوقاية النفس حتى من غبارٍ نادر ، وذلك يظهر الفرق الشاسع بين جنود الإسلام وجنود الكفر .

(١) تاريخ الطبري ٥٤٦/٣ .

وكان لأبناء الخنساء الأربعة مواقف فدائية في ذلك اليوم وسبق أن ذكرنا وصيتها لأولادها في ليلة ذلك اليوم بأن يقصدوا مواطن البأس الشديد في القتال ، فلما غَدُوا ذلك اليوم اندفعوا إلى القتال بحماس وقال كل واحد منهم شعراً حماسياً يقوِّي به نفسه وإخوانه فقال أولهم:

يا إخوتي إن العجوز الناصحة قد نصحتنا إذ دعتنا البارحة
مقالة ذات بيان واضحة فباكروا الحرب الضروس الكالحة
وإنما تلقون عند الصائحة من آل ساسان الكلاب النابحة
قد أيقنوا منكم بوقع الجائحة وأنتم بين حياة وحياة صالحة
أو مיתה تُورث غُماً رابحة

وتقدم فقاتل حتى قتل ، فحمل الثاني وهو يقول :

إن العجوز ذات حزم وجَلَدٍ والنَّظَرُ الأوفق والرأي السَّدَد
قد أمرتنا بالسداد والرشد نصيحة منها وبراً بالولد
فباكروا الحرب حماة في العدد إما لفوز بارد على الكبد
أو مיתה تورثكم عزَّ الأبد في جنة الفردوس والعيش الرغد

وقاتل حتى استشهد ، وحمل الثالث وهو يقول :

والله لانعصي العجوز حرفاً قد أمرتنا حذباً وعطفا
نصحا وبراً صادقاً ولطفاً فبادروا الحرب الضروس زحفا
حتى تَلْفُؤُوا آل كسرى لَفًّا أو يكشفوكم عن حماكم كشفا
إننا نرى التقصير منكم ضعفاً والقتل فيكم نجدة وزلفى

وقاتل حتى استشهد ، وحمل الرابع وهو يقول :

لست لخنساء ولا للأخرم ولا لعمر وذي السناء الأقدم
إن لم أرِدْ في الجيش جيش الأعجم ماض على الهول خِضَمٌ خضرم
إما لفوز عاجل ومغنم أو لوفاة في السبيل الأكرم
وقاتل حتى استشهد ، فبلغ الخنساء خبر بنيتها الأربعة ، فقالت :
الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في
مستقر رحمته^(١) .

هذه المرأة العظيمة التي بكت أخاها صخرًا ورثته بالأشعار المبكية
دهراً طويلاً في الجاهلية نجدها في الإسلام تدفع بنيتها جميعاً إلى حِمَامِ
الموت ، ثم تقول هذا الكلام الإيماني الرفيع بعد استشهادهم ، وهذا
شاهد من الشواهد الكثيرة التي تدلنا على التحول الكبير الذي طرأ
على حياة الأمة الإسلامية بعدما دخلوا في الإسلام .

وفي هذا اليوم قام القعقاع بن عمرو وبنو عمه من تميم بمكيدة
بالغة التأثير على الفرس ، وذلك أنه لما علم بما فعلته القبيلة في اليوم
الأول بخيول المسلمين قام هو وقومه - بتوفيق من الله تعالى - بتهيئة
الإبل لتظهر في مظهر مخيف يُنْفِرُ الخيول فألبسوها وجللّوها ووضعوا
لها البراقع في وجوهها ، وحملوا عليها المشاة وأحاطوها بالخيول
لحمايتها ، وهجموا بها على خيول الفرس ، ففعلوا بهم يوم أغواث
كما فعلوا بالمسلمين يوم أرمات ، فجعلت تلك الإبل لاتصمد لقليل
ولالكثير إلا نفرت بهم خيلهم وركبتهم خيول المسلمين ، فلما رأى

(١) الاستيعاب ٢٨٩/٤ .

ذلك الناس استنوا بهم، فلقى الفرس من الإبل يوم أغواث أعظم مما لقي المسلمون من الفيلة يوم أرماث (١) .

وهكذا نجد أن المسلمين الأوائل يتفوقون على أعدائهم في الابتكار الحربي، فالفرس أنهكوا المسلمين في اليوم الأول بسبب استخدام الفيلة، ومادام المسلمون لا يملكون الفيلة فليخترعوا مما يملكون من الإبل ما يكيّدون به الأعداء فكانت هذه الحيلة الحربية الممتازة التي أخافت خيول الأعداء فنفرت بمن عليها من الفرسان ، وهكذا يجب أن يكون المسلمون متفوقين في مجال الإعداد المادي بعد تفوقهم في الإعداد الروحي .

ليلة السواد :

مازلنا مع يوم « أغواث » وقد استمر القتال فيه إلى منتصف الليل، وسميت تلك الليلة ليلة السواد ، ثم وقف القتال بعد أن تحاجز الفريقان، وكان لوقف القتال منفعة كبيرة للمسلمين ، حيث كانوا ينقلون شهداءهم إلى مقر دفنهم في وادي « مُشَرَّق » ، وينقلون الجرحى إلى « العُدَيْب » حيث تقوم النساء بتمريضهم .

ولقد شارك في القتال في هذه الليلة لأول مرة أبو محجن الثقفي .

قال ابن جرير الطبري فيما يرويه عن شيوخه : فقالوا : ولما اشتد القتال بالسواد (٢) ، وكان أبو محجن قد حبس وقيد ، فهو في القصر ، فصعد حين أمسى إلى سعد يستعفيه ويستقيله ، فزبره وردّه ، فنزل

(١) تاريخ الطبري ٥٤٥/٣ .

(٢) أي ليلة السواد .

فأتى سلمى بنت خَصَفَة ، فقال : ياسلمى يابنت آل خَصَفَة ، هل لك إلى خير؟ قالت : وماذاك ؟ قال : تخلّين عنيّ وتُعيرينني البلقاء ، فله عليّ إن سلّمني الله أن أرجع إليك حتى أضع رجلي في قيدي ، فقالت : وماأنا وذاك ! فرجع يرسف في قيوده ، ويقول :

كَفَى حَزَنًا أَنْ تَرَدِّيَ الْخَيْلُ بِالْقَنَا (١) وَأَتَرَكَ مَشْدُودًا عَلَيَّ وَثَاقِيَا
إِذَا قُمْتُ عَنَّا نِي الْحَدِيدُ وَأَغْلَقْتُ . مَصَارِيْعُ دُونِي قَدْ تُصِمُّ الْمُنَادِيَا
وَقَدْ كُنْتُ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ وَإِخْوَةَ فَقَدْ تَرَكُونِي وَاحِدًا لَا أَخَا لِيَا
وَلِلَّهِ عَهْدٌ لَا أَحْيَسُ بَعْدَهُ لَنْ فُرِجَتْ أَلَّا أُرَوِّرَ الْحَوَانِيَا

فقالت سلمى : إنّي استخرتُ الله ورضيتُ بعهدك ، فأطلقتَه .
وقالت : أمّا الفَرَسُ فلا أعيرها ، ورجعتُ إلى بيتها ، فاقتادها فأخرجها من باب القصر الذي يلي الخندق فركبها ، ثم دبّ عليها ، حتى إذا كان بحيال الميمنة كبر ، ثم حمل على ميسرة القوم يلعب برمحه وسلاحه بين الصّفيّين ، فقالوا : بسرّجها ، وقال سعيد والقاسم : عُرِيّا ، ثم رجع من خلف المسلمين إلى الميسرة فكبّر وحمل على ميمنة القوم يلعب بين الصّفيّين برمحه وسلاحه ، ثم رجع من خلف المسلمين إلى القلب فنذر أمام النَّاسِ ، فحمل على القوم يلعب بين الصّفيّين برمحه وسلاحه ، وكان يقصف النَّاسَ ليلتئذ قصفاً منكراً وتعجب النَّاسُ منه وهم لا يعرفونه ولم يروه من النَّهار ، فقال بعضهم : أوائل أصحاب هاشم أو هاشم نفسه وجعل سعد يقول وهو مُشْرِفٌ عَلَى النَّاسِ مُكَبٌِّّ مِنْ فَوْقِ الْقَصْرِ : واللّه لولا مُحْبِسُ أَبِي مُحَجَّنٍ لَقُلْتُ : هذا أبو مُحَجَّنٍ وهذه البلقاء ! وقال بعض النَّاسِ : إن

(١) يعني الرماح .

كان الخَضِر يشهد الحروب فنظنَّ صاحب البلقاء الخَضِر ، وقال بعضهم : لولا أنَّ الملائكة لا تُبَاشِر القتال لقلنا : مَلَكٌ يَثبُتُنا ، ولا يذكره الناس ولا يَأبَهُون له ، لأنَّه بات في محبسه ، فلما انتصف الليل حاجز أهل فارس ، وتراجع المسلمون ، وأقبل أبو مُحَجَّن حتى دخل من حيث خرج ، ووضع عن نفسه وعن دابته ، وأعاد رجلَيْه في قيديه ، وقال :

لقد علَمتُ ثَقِيفٌ غيرَ فَخْرٍ بأنَّنا نحن أكرمُهم سيِّوفاً
وأكثرُهم دُرُوعاً سابِغاتٍ وأصبرُهم إذا كَرِهوا الوقُوفاً
وأنا وفَدُّهم في كل يومٍ فإنَّ عَمِيوا فَسَلْ بهم عَرِيفاً
وليلةً قَاسٍ لم يَشْعُرُوا بي ولم أَشْعُرْ بِمَخْرَجي الزُّحُوفاً
فإنَّ أَحْبَسَ فذلَّكمُ بلاتِي وإنَّ أَتَرَكَ أَذِيقُهمُ الحُتُوفاً
فقالَتْ له سلمى : يا أبا مُحَجَّن ، في أيِّ شيءٍ حبسَكَ هذا
الرجل ؟ قال : أما والله ما حَسِنِي بِحرامٍ أَكلته ولا شَرِبْتَه ، ولكنِّي
كُنْتُ صابِحَ شرابٍ في الجاهليَّةِ ، وأنا امرؤٌ شاعرٌ يدبُّ الشعرُ على
لساني ، يبعثه على شفتي أحياناً ، فُسيءٌ لذلك ثنائي ، ولذلك حبسني ،
قلت :

إذا مَتُّ فادْفَنِي إلى أصلِ كَرَمَةٍ تُروِّي عظامي بعد موتي عُرُوقها
ولا تَدْفِنِي بالفَلَاةِ فإنِّي أخافُ إذا ما مَتُّ ألا أذوقها
وتُروى بِخمرِ الحَصِّ لَحدي فإنِّي أسيرُ لها من بعد ما قد أسوقها
فلما أَصَبَحْتُ سلمى أَخبرتْ سعد بن أبي وقاصٍ عن خبرها
وخبر أبي مُحَجَّن ، فدعا به فأطلقه ، وقال : اذهب فما أنا مؤاخذك

بشيء تقوله حتى تفعله ، قال : لا جرم لا أجيب لسانى إلى صفة قبيح
أبدًا (١) .

فهذا موقف يذكر لأبى محجن الثقفي في الشجاعة وحسن الطراد
وسرعة الحركة في الهجوم على الأعداء ، وقد شفع له جهده الكبير
الذي بذله في الجهاد ، ووفاءه حيث عاد وأدخل رجليه في القيد ،
فعفا عنه سعد ، وأطلقه ليكمل دوره الجيد في الجهاد ، وقد أفاد من
هذا العفو وقابله بالحسنى حيث وعد بأن لا يستجيب للسانه في قوله ما
لا يليق من الشعر .

وموقف لسعد بن أبى وقاص رضي الله عنه يدل على بصره
النافذ في الحرب ، فحينما رأى ذلك الفارس يتقلب بين الصفوف
قال : والله لولا محبس أبى محجن لقلت هذا أبو محجن وهذه
البلقاء ، وفي رواية أنه قال : الطراد طراد أبى محجن والضبح ضبح
البلقاء ، وهذه نباهة عالية وإدراك حربي رفيع ، مع أن سعداً لم
يشاهد أباً محجن في الحروب إلا قليلاً .

وموقف آخر لسعد حينما عفا عن أبى محجن عما كان من تجاوز
لسانه الذي وازن بينه وبين بلائه الكبير في الجهاد وحفظ العهد فرجح
عمله الصالح ورجا من الله أن يعفو عنه بجهاده وأخلاقه .

أما نصف ليلة السواد الأخير فإن من أبرز ما جرى فيه أن القعقاع
بن عمرو اغتتم الفرصة في التخطيط لخطة يرفع بها من معنوية
المسلمين في يومهم القادم ، فلقد أمر أتباعه بأن يتسللوا سرّاً ثم
يقدموا في النهار تبعاً على فرق كل فرقة مائة مقاتل ، وقال لهم :

(١) تاريخ الطبري ٥٤٨/٣ - ٥٥٠ .

إذا طلعت لكم الشمس فأقبلوا مائة مائة ، كلما توارى عنكم مائة فليتبّعها مائة ، فإن جاء هاشم فذاك ، وإلا جدّتم للناس رجاء وجداً .

فلما ذرّ قرن الشمس والقعقاع يلاحظ الخيل وطلعت نواصيها كبر وكبر الناس وقالوا : جاء المدد .

وقد تأسى به أخوه عاصم بن عمرو فأمر قومه أن يصنعوا مثل ذلك فأقبلوا من جهة « خفّان » .

فما جاء آخر أصحاب القعقاع حتى انتهى إليهم هاشم بن عتبة في سبعمائة من جيش الشام ، فأخبروه برأي القعقاع وما صنع في يوميه ، فعبّى أصحابه سبعين سبعين ، فلما جاء آخر أصحاب القعقاع خرج هاشم في سبعين معه^(١) .

وهنا نقف قليلاً لنشيد بموقف هاشم بن عتبة بن أبي وقاص فلقد قبل الأخذ بالرأي الأمثل في التخطيط الحربي فصنع بتفريق جيشه كما صنع القعقاع بن عمرو ، ولم يمنعه اعتبار النفس والمنصب من أن يأخذ برأي قائد من قواده ، بل كان رجلاً من الرجال الذين تخرجوا في مدرسة التربية النبوية ، فأصبحوا يُلغون ذواتهم ومصالحهم الخاصة في سبيل مصلحة الإسلام ومصلحة المسلمين العامة ، وهذا من أهم أسباب نجاحهم في إقامة الدولة الإسلامية الكبرى ، والقضاء على قوى العالم آنذاك .

أما الفرس فإنهم باتوا يعالجون توابيت الفيلة التي تحطمت في اليوم الأول ، وبسبب ذلك غابت الفيلة في اليوم الثاني ، فكان غيابها

(١) تاريخ الطبري ٥٥١/٣ .

مع قدوم القعقاع بن عمرو ومآقام به من شجاعة وابتكارات حربية
سبباً في تفوق المسلمين في اليوم الثاني .

يوم عمّاس :

أما اليوم الثالث وهو يوم « عمّاس » فقد قدّم الفرس فيه فيلتهم
بتخطيط جديد تلافوا به ما كان في اليوم الأول من قطع حبالهم ،
فجعلوا مع كل فيل رجالاً يحمونه ومع الرجال فرسانٌ يحمونهم .
وظل المسلمون يقامون الفيلة والمقاتلين من فوقها وحولها ، ولقوا
منها عتناً شديداً .

ولما رأى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ما يلاقي المسلمون
منها أرسل إلى مسلمي الفرس الذين كانوا مع جيش المسلمين يسألهم
عن الفيلة هل لها مقاتل ؟ فقالوا : نعم المشافر والعيون لا ينتفع بها
بعدها ، فأرسل إلى القعقاع وعاصم بنّي عمرو وقال لهما : اكفياني
الفيل الأبيض - وكانت كلها ألفة له وكان بإزائهما - وأرسل إلى حمّال
ابن مالك والرّبيّل بن عمرو الأسديين فقال : اكفياني الفيل الأجرّب ،
وكانت ألفة له كلها وكان بإزائهما ، فأخذ القعقاع وعاصم رُمحيهما
ودبّا إليه في كتيبة من الفرسان والرجال ، فقالا لمن معهما : اكنفوه
لتحيروه فأصبح الفيل ينظر يمّنة ويسرة متحيراً من حوله ، ودنا منه
القعقاع وعاصم فحملا عليه وهو متشاغل بمن حوله فوضعا رُمحيهما
معاً في عيني الفيل الأبيض ، ونفض رأسه فطرح سائسه ، ودلّى
مشفره ، فنفضه القعقاع بسيفه فرمى به ، ووقع لجنبه فقتلوا من كان
عليه .

وحمل حمّال بن مالك وقال للرّبيّل بن عمرو : اختر إما أن

تضرب المشفر وأطعن في عينه أو تطعن في عينه وأضرب مشفره ،
فاختار الضرب ، فحمل عليه حمال وهو متشاغل بملاحظة من اكتنفه .
لا يخاف سائسه إلا على بطانه [وذلك لأن المسلمين قطعوا ذلك منها
في اليوم الأول] فانفرد به أولئك فطعنه حمال في عينه فأقعى على
خلفه ، ثم استوى ، ونفحه الرييل بن عمرو فأبان مشفره ، وبصر به
سائسه فضرب جبينه وأنفه بحديده كانت معه وأفلت منها الرييل
وحمال .

وصاح الفيلان صياح الخنزير ، وكانت الفيلة تابعة لهما فرجعت
على الفرس ورجعت معها الفيلة تطأ جيش الفرس حتى قطعت نهر
العتيق وولّت نحو المدائن وهلك من كان عليها (١) .

وهكذا أنقذ الله المسلمين بهؤلاء الأربعة الأبطال ومن كان معهم
من المساعدين لهم ، وردّ الله كيد الفرس للمرة الثانية ، وأبطل
مفعول سلاحهم الأكبر ، سلاح الفيلة ، هذه المخلوقات العظيمة التي
هي أشبه ما تكون بالجبال المتحركة .

ولاشك أن الفضل - بعد الله تعالى - يعود إلى قائد المسلمين
سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه حيث أبصر البلاء الذي وقع على
المسلمين من الفيلة فسأل مسلمي الفرس عن مقاتلها ، كما أنه أدرك
ببصره الحادّ وبصيرته النافذة أن جميع الفيلة تتبع اثنين منها ، فكلّف
أربعة من أبطال المسلمين بالقضاء عليهما ، وتم ما أراد فكانت الفيلة
وبالاً على الفرس بعدما كانت سلاحاً فتاكاً في أيديهم .

ولما خلا الميدان من الفيلة زحف الناس بعضهم على بعض واشتد

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٥٢ - ٥٥٦ .

القتال بينهم ، وكان لدى الفرس جيش احتياطي من أهل النجدات
والبأس ، فكلما وقع خلل في جيشهم ، أبلغوا "يزدجرد" فأرسل
لهم من هؤلاء .

قال الرواة : فلولا الذي صنع الله للمسلمين بالذي ألهم القعقاع
في اليومين وأتاح لهم بها شِم^(١) كسر ذلك المسلمين ، وقد انتهى
ذلك اليوم والمسلمون وأعداؤهم على السواء^(٢) .
بطولات أخرى جرت في هذا اليوم :

وجرت في هذا اليوم بطولات ومغامرات ، فمن ذلك ما ذكره
الطبري بإسناده عن الشعبي قال : قال عمرو بن معد يكرب : إني
حامل على الفيل ومن حوله - لفيل بإزائهم - فلا تدعوني أكثر من
جزر جزور [يعني نحر الناقة] فإن تأخرتم عني فقدتم أبائور ، فأني
لكم مثل أبي ثور! فإن ادركتموني وجدتموني وفي يدي السيف ،
فحمل فما انتنى حتى ضرب فيهم ، وستره الغبار ، فقال أصحابه :
ما تنتظرون ؟ ما أنتم بخلقاء أن تدركوه ، وإن فقدتموه فقد المسلمون
فارسهم ، فحملوا حملة فأفرج المشركون عنه بعدما صرعوه وطعنوه ،
وإن سيفه لفي يده يضاربهم وقد طعن فرسه ، فلما رأى أصحابه
وانفرج عنه أهل فارس أخذ برجل فرس رجل من أهل فارس ،
فحركه الفارسي فاضطرب الفرس فالتفت الفارسي إلى عمرو ، فهم
به وأبصره المسلمون ، فغشوه ، فنزل عنه الفارسي ، وحاضر [يعني
أسرع] إلى أصحابه ، فقال عمرو : أمكنوني من لجامه ، فأمكنوه
منه فركبه^(٣) .

(١) يعني بوصول هاشم بن عتبة وجيشه .

(٢) تاريخ الطبري ٥٥٢/٣ .

(٣) المرجع السابق ٥٥٤/٣ .

وهذا نموذج رفيع من نماذج الشجاعة والثبات حيث ظل يقاوم مجموعة من الأعداء حتى بعدما فقد فرسه وأصيب في بدنه .

ومن البطولات التي جرت من المسلمين في اليوم الثالث من أيام القادسية مارواه الإمام ابن جرير من طريق سيف بن عمر عن شيوخه قالوا: لما كان يوم « عمّاس » خرج رجل من العجم حتى إذا كان بين الصفين هدر وشقشق ونادى : من يبارز ؟ فخرج رجل منا يقال له شُبْر ابن علقمة - وكان قصيراً قليلاً دميماً - فقال : يامعشر المسلمين قد أنصفكم الرجل ، فلم يجبه أحد ولم يخرج إليه أحد فقال : أما والله لولا أن تزدروني لخرجت إليه ، فلما رأى أنه لا يمنع أخذ سيفه وحجفته [يعني ترسه] وتقدم ، فلما رآه الفارسي هدر ، ثم نزل إليه فاحتمله فجلس على صدره ، ثم أخذ سيفه ليذبحه ، ومقود فرسه مشدود بمنطقته ، فلما استل السيف حاص الفرس حيصة فجذبه المقود فقلبه عنه ، فأقبل عليه وهو يُسحب فافترشه ، فجعل أصحابه يصيحون به ، فقال : صيحوا مابدا لكم ، فوالله لا أفارقه حتى أقتله وأسلمه ، فذبحه وسلمه^(١).

وهكذا رأينا هذا الرجل المؤمن الذي تضاءلت فيه عناصر الكفاءة الحربية المادية فهو قصير ضعيف الجسم ، ومن كانت هذه حاله لا يدخل مجالات الحرب الشاقة كالمبارزة حيث تتطلب هذه المجالات أجساماً قوية طويلة ، ولكنه لما رأى خلو ذلك المكان من أبطال المسلمين دفعه إيمانه إلى التصدي لذلك المبارز الفارسي مع معرفته سلفاً

(١) تاريخ الطبري ٥٥٤/٣ .

بنقص كفاءته في هذا الميدان ، ولكن عزَّ عليه أن يتبخر ذلك الفارسي بين الصفين ولا يبرز له أحد ، وفي ذلك تقوية لموقف الأعداء وتوهين لموقف المسلمين ، فبرز له ثقة بالله تعالى وتوكلا عليه ، وحمل معه ما يستطيعه من الأسباب المادية ، وفوض ما ينقص منها لمولاه جل وعلا ، فنصره تعالى بجنود لا يراهم وإن كان يؤمن بهم ، فنفرت الفرس بأمر الله تعالى وسحبت صاحبها إلى حتفه المنتظر ، وكان في ذلك إنقاذ لهذا المؤمن وتمكين له ليقضي على عدوه .

وهكذا فإن الله تعالى دائماً مع أوليائه المؤمنين إذا صدقوا معه ، فإن هذا الخبر فيه أبلغ الدلالة على ذلك ، ولا يخطر بالبال أن هذا الأمر جرى بشكل طبيعي وأسباب لأعلاقة لها بنصر الله تعالى لأوليائه ، فإنه لو كان هذا الأمر معتاداً ويجري في حياة الناس لأعد ذلك الفارسي للأمر عدته ولم يفرط في أمر يكون سبباً في هلاكه .

واستمر القتال في اليوم الثالث إلى الليل ، ثم حجز بينهم صوت طليحة بن خويلد الأسدي ، وكان قد التف من وراء جيش الفرس ، ففزع لذلك الفرس وتعجب المسلمون ، فكف بعضهم عن بعض للنظر في ذلك ، وكان سعد رضي الله عنه قد بعثه مع أناس لحراسة مكان يحتمل منه الخطر على المسلمين ، فتجاوز مهمته ، ودار من خلف الفرس وكبر ثلاث تكبيرات (١) .

ولقد أفادت حركته هذه حيث توقفت الحرب وكان هناك فرصة لإعادة الصفوف والاستعداد لقتال الليل .

(١) تاريخ الطبري ٥٥٨/٣ - ٥٥٩ .

ليلة الهرير :

بدأ القتال ليلة اليوم الرابع : وقد بدأ المسلمون على عادتهم بالمطاردة ، وانبعث لذلك أبطال المسلمين من أمثال القعقاع وعاصم بن عمرو ، ومسعود بن مالك الأسدي وابن ذي البردّين الهلالي وقيس ابن هُبيرة الأسدي ، ولكن الفرس في هذه الليلة قد غيروا طريقتهم في القتال ، فقد أدرك رستم أن جيشه لا يصل إلى مستوى فرسان المسلمين في المطاردة ولا يقاربهم ، فعزم على أن يكون القتال زحفاً بجميع الجيش حتى يتفادى الانتكاسات السابقة التي سببت تحطيم معنوية جيشه ، فلم يخرج أحد من الفرس ، وإنما قدموا جيشهم وجعلوه ثلاثة عشر صفاً في القلب والمجنبتين .

وبدأ القعقاع بن عمرو القتال وتبعه أهل النجدة والشجاعة قبل أن يكبر سعد ، فسمح لهم بذلك واستغفر لهم ، فلما كبر ثلاثاً زحف القادة وسائر الجيش ، وكانوا ثلاثة صفوف ، صفّاً فيه الرماة ووصفاً فيه الفرسان ووصفاً فيه المشاة .

وكان القتال في تلك الليلة عنيقاً ، وقد اجتلدوا من أول الليل حتى الصباح لا ينطقون ، كلامهم الهرير ، فسميت ليلة الهرير .

وقد أوصى المسلمون بعضهم بعضاً على بذل الجهد في القتال لما يتوقعونه من عنف الصراع ، ومما رُوي من الأقوال في ذلك ما ذكر الإمام الطبري عن دريد بن كعب النخعي أنه قال لقومه : إن المسلمين تهيئوا للمزاحفة فاسبقوا المسلمين الليلة إلى الله والجهاد ، فإنه لا يسبق الليلة أحد إلا كان ثوابه على قدر سبقه ، نافسوهم في الشهادة وطبوا

بالموت نفساً ، فإنه أنجى من الموت إن كنتم تريدون الحياة ، وإلا فالآخرة ما أردتم .

وقال الأشعث بن قيس : يامعشر العرب إنه لا ينبغي أن يكون هؤلاء القوم أجراً على الموت ولا أسخى أنفساً عن الدنيا ، تنافسوا الأزواج والأولاد ، ولا تجزعوا من القتل فإنه أمانى الكرام ومنايا الشهداء .

وكان بإزاء قبيلة « جُعْفَى » ليلة الهرير كتيبة من كتائب العجم عليهم السلاح التام ، فازدلفوا لهم فجالدوهم بالسيوف ، فرأوا أن السيوف لا تعمل في الحديد فارتدعوا ، فقال حميضة بن النعمان البارقي : مالكم؟ قالوا : لا يجوز فيهم السلاح ، قال : كما أنتم حتى أريكم ، انظروا ، فحمل على رجل منهم فاستدار من خلفه فدق ظهره بالرمح ، ثم التفت إلى أصحابه فقال : ما أراهم إلا يموتون دونكم ، فحملوا عليهم فأزالوهم إلى صفهم .

وكان بإزاء قبيلة كندة تُرك الطبري [أحد قادة الفرس] فقال الأشعث بن قيس الكندي : يا قوم ازحفوا لهم ، فزحف لهم في سبعمئة فأزالهم وقتل قائدهم .

وكان القتال في تلك الليلة شديداً متواصلاً .

وقام زعماء القبائل يحثون قبائلهم على الثبات والصبر .

ومما يبين عنف القتال في تلك الليلة ما أخرجه الإمام الطبري عن أنس بن الحليس قال : شهدت ليلة الهرير فكان صليل الحديد فيها كصوت القيون ليلتهم حتى الصباح ، أفرغ عليهم الصبر إفراغاً وبات سعد بليلة لم يبت بمثلها ، ورأى العرب والعجم أمراً لم يروا مثله

قط ، وانقطعت الأصوات والأخبار عن رستم وسعد ، وأقبل سعد على الدعاء حتى إذا كان وجه الصبح انتمى الناس - يعني المسلمين - فاستدل بذلك على أنهم الأعلون وأن الغلبة لهم^(١).

وأخرج ابن جرير الطبري من خبر أبي الأعور بن بنان المنقري قال: أول شيء سمعه سعد ليلئذ مما يستدل به على الفتح في نصف الليل الباقي صوت القعقاع بن عمرو وهو يقول :

نحن قتلنا معشراً وزائداً أربعة وخمسة وواحد

نحسب فوق اللبد الأسود^(٢) حتى إذا ماتوا دعوت جاهداً

الله ربي واحتززت عامداً^(٣)

وهكذا بات سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يدعو الله تعالى تلك الليلة ويستنزل نصره ، ومما ينبغي الإشارة إليه أن سعداً كان مستجاب الدعوة ، روى ابن الأثير بإسناده عن قيس بن أبي حازم أن رسول الله ﷺ قال : اللهم استجب لسعد إذا دعاك ، وكان لا يدعو إلا استجيب له ، وكان الناس يعلمون ذلك منه ويخافون دعاءه^(٤).

ولاشك أن دعاء سعد وأمثاله أمضى في الأعداء من السيوف القواطع ، والسهم المسددة .

وقاتل المسلمون أعداءهم تلك الليلة حتى الصباح .

(١) تاريخ الطبري ٥٥٩/٣ - ٥٦٣ .

(٢) اللبد سرج الفرس ، والأسود الحيات ، يعني كنا نظن أن فوق خيول الفرس رجالاً شجعاناً .

(٣) تاريخ الطبري ٥٦٢/٣ .

(٤) أسد الغابه ٢٩١/٢ .

يوم القادسية :

أصبح المسلمون في اليوم الرابع وهم يقاتلون ، فصار القعقاع بن عمرو في الناس فقال: إن الدِّبْرَةَ بعد ساعة لمن بدأ القوم ، فاصبروا ساعة واحملوا ، فإن النصر مع الصبر ، فآثروا الصبر على الجزع ، فاجتمع إليه جماعة من الرؤساء ، وصمدوا لرستم حتى خالطوا الذين دونه مع الصبح .

ولما رأت ذلك القبائل قام فيها رجال ، فقام قيس بن عبد يغوث والأشعث بن قيس ، وعمرو بن معد يكرب وابن ذي السَّهْمَيْن الحثعمي وابن ذي البُرْدَيْن الهلالي ، فقالوا : لا يكون هؤلاء [يعني السابقين] أجدر في أمر الله منكم ، ولا يكون هؤلاء [يعني أهل فارس] أجراً على الموت منكم ، ولا أسخى أنفساً عن الدنيا .

وقام في ربيعة رجال فقالوا : أنتم أعلم الناس بفارس وأجرؤهم عليهم فيما مضى ، فما يمنعكم اليوم أن تكونوا أجراً مما كنتم^(١) .

وهكذا يضيف القعقاع بن عمرو ماثرة جديدة من مآثره الكثيرة فقد جمع الله له بين الشجاعة النادرة ، والرأي السديد وقوة الإيمان ، فسخر ذلك كله لنصرة الإسلام والمسلمين ، وكان قدومه في هذه المعركة فتحاً للمسلمين .

لقد أدرك القعقاع أن الأعداء قد نفذ صبرهم بعد قتال استمر يوماً وليلة دون انقطاع ، وقبل ذلك لمدة يومين مع راحة قليلة ، وعرف بثاقب فكره وطول تجربته - بعد ملاحظة التوجيهات الإلهية - أن عاقبة المعركة مع من صبر بعد هذا الإجهاد الطويل .

(١) تاريخ الطبري ٥٦٣/٣ .

ولاشك أن الأعداء يدركون شيئاً من ذلك بحكم خبرتهم الطويلة في الحروب الكبيرة ، ولكنهم لا يملكون الطاقة التي يملكها المسلمون لما تقدم بيانه من المزايا القتالية التي لا تتوفر في غير المسلمين .

وقد استجاب له جماعة من القادة الأبطال ثم تتابع على ذلك سائر القادة وأفراد الجيش ، واستطاع القعقاع ومن معه من الأبطال أن يفتحوا ثغرة عميقة في قلب الجيش الفارسي حتى وصلوا قريباً من رستم مع الظهيرة ، وهنا تنزل نصر الله تعالى ، وأمد أوليائه بجنود من عنده فهبّ ريح عاصف وهي الدبور ، فاقتلعت طيارة رستم عن سريريه ، وألقتها في نهر العتيق ، ومال الغبار على الفرس فعاقهم عن الدفاع .

وهكذا نجد أن نصر الله تعالى يتنزل على أوليائه في اللحظات الحاسمة بعد أن يبذل المسلمون كلما في وسعهم من طاقة وقوة ، وإن اقتلاع سقف السرير الضخم الذي قد صنع ورُكّب باحكام شديد ليدلنا على أن تلك الرياح لم تكن عادية وإنما كانت موجهة من الله تعالى لإنهاء المعركة لصالح المسلمين ، فالفرس أمة محاربة منذ عشرات السنين وهم يدركون تأثير عوامل الجو ، وقد أعدوا لهذه المعركة مالم يعدوه لغيرها ، ولا شك أنهم قد حصنوا ذلك المكان الذي يشرف منه رستم على قيادة المعركة بحيث لا تصل إليه الأيدي ولا السهام ولا عوامل الجو المعتادة ، ولكن الله تعالى فوق تدبيرهم وفوق كل شيء وهو جل وعلا مع أوليائه المؤمنين إذا صدقوا معه ، وقد صدق معه أولئك المؤمنون فسخر لهم الرياح العاصف لتقلب موازين المعركة ، فأتى الله تعالى أعداء دينه من حيث لم يحتسبوا .

وتقدم القعقاع ومن معه حتى عثروا بسرير رستم وهم لا يرونه من الغبار ، وكان رستم قد تركه واستظل ببغل من البغال المحملة ، وضرب هلال بن عُلْفَة (١) أحد عدلَى البغل فوق عِلى رستم وهو لا يشعر به فأزال من ظهره فقاراً ، وهرب رستم نحو نهر العتيق لينجو بنفسه ولكن هلالاً أدركه فأمسك برجله وسحبه ثم قتله ، وصعد السرير ثم نادى : قتلت رستم ورب الكعبة ، إليّ ، فأطافوا به ومايرون السرير وكبروا وتنادوا ، وانهزم قلب الفرس .

أما بقية قادة المسلمين فإنهم تقدموا أيضاً فيمن يقابلهم وتقهر الفرس أمامهم ، ولما علم الجالانوس بمقتل رستم قام على الرِّدَم المُقام على النهر ونادى أهل فارس إلى العبور فراراً من القتل فعبروا ، أما المقترون بالسلاسل وعددهم ثلاثون ألفاً فإنهم تهافتوا في نهر العتيق فوخزهم المسلمون برماحهم ، فما أفلت منهم أحد (٢) .

وهكذا تحطمت معنوية الفرس ولاذوا بالفرار لما قُتل قائدهم ، واعتبروا أن المعركة انتهت لغير صالحهم بينما كانوا ثابتين في الأيام الثلاثة الأولى ، حتى بعد هزيمة الفيلة وفرارها ، وقد كانوا يعتمدون عليها في حروبهم الكبيرة .

أما المسلمون فإن معنويتهم لا تتحطم بقتل قادتهم ولا يلجؤون إلى الفرار بل يثبتون أمام الأعداء ، وقد يختارون قائداً لهم من أبطالهم كما في غزوة مؤتة لما استشهد قادتهم الثلاثة .

وهذا يدل على أن هناك فرقاً جوهرياً بين جيش المسلمين وجيش

(١) هو من نيم الرباب .

(٢) تاريخ الطبري ٥٦٣/٣ - ٥٦٤ .

الكفار، فالمسلمون لا يقاتلون من أجل البشر ، وإن كانوا قادتهم وزعماءهم ، وإنما يقاتلون من أجل رب البشر جل وعلا، وهذا من لوازم فهمهم الصحيح لمعنى كلمة التوحيد ، وتطبيقهم مقتضاها .

فكل واحد منهم يبذل طاقته حرصاً منه على أن لا يؤتى المسلمون من قبله ، وليس للقائد مزية إلا بالتنظيم وتوجيه المعركة ، ويبقى كل فرد في الجيش الإسلامي له حرية التصرف في النكاية بالأعداء من غير تهور ينقلب إساءة إلى المسلمين ، بينما تحوّل عبادة العباد عند الكفار دون بذل الطاقة وحسن التصرف عند فقد القيادة أو بعدها عن مكان المعركة ، ولذلك نرى نجاح المسلمين في هذه المعركة وغيرها مع بعد المسافة بينهم وبين القائد الأعلى في المدينة المنورة لعدم حاجتهم إليه في كل التفاصيل ، بينما يحتاج أعداؤهم إلى اتصالات متكررة لمعرفة رأي من يعملون لهم .

نهاية المعركة :

تبين لنا أن المعركة انتهت بتوفيق الله تعالى ، ثم بجهود أبطال المسلمين وحكمة قادتهم ، وكانت معركة عنيفة قاسية ثبت فيها الأعداء للمسلمين ثلاثة أيام حتى هزمهم الله في اليوم الرابع ، بينما كان المسلمون يهزمون أعداءهم غالباً في يوم واحد ، وكان من أسباب هذا الثبات أن الفرس كانوا يعتبرون هذه المعركة معركة مصير ، فإما أن تبقى دولتهم مع الانتصار ، وإما أن تزول دولتهم مع الهزيمة ولا تنقوم لهم قائمة ، كما أن من أسباب ثباتهم وجود أكبر قادتهم « رستم » على رأس القيادة ، وهو قائد له تاريخ حافل بالانتصارات على أعدائهم إضافة إلى تفوق الفرس في العدد والعدد ، حيث كان عدد الفرس

عشرين ومائة ألف من المقاتلين من غير الأتباع ، مع من كانوا يبعثهم
يزدجرد مدداً كل يوم ، بينما كان عدد المسلمين بضعة وثلاثين ألفاً ،
كما ذكر الإمام الطبري (١) .

ومع ذلك كله انتصر المسلمون عليهم بعد أن قدموا خمسمائة
وثمانية آلاف من الشهداء (٢) .

وهذا العدد من الشهداء هو أكبر عدد قدمه المسلمون في معاركهم
في الفتوح الإسلامية الأولى ، وكونهم قدموا هذا العدد من الشهداء
دليل على عنف المعركة وعلى استبسال المسلمين وتعرضهم للشهادة
رضي الله عنهم ورحمهم أجمعين .

وأمر سعد رضي الله عنه بمطاردة فلول المنهزمين فوكل القعقاع
ابن عمرو وشرحبيل بن السمط الكندي بمطاردة المنهزمين يميناً وشمالاً
دون نهر العتيق ، وأمر زهرة بن الحوية بمطاردة الذين عبروا النهر مع
قادتهم ، وكان الفرس قد بثقوا النهر في الرِّدْم حتى لا يستطيع المسلمون
متابعتهم فاستطاع زهرة وثلاثمائة فارس أن يتجاوزوا بخيولهم وأمر من
لم يستطع بموافاتهم من طريق القنطرة ، وكان أبعد قليلاً ، ثم أدركوا
القوم وكان الجالينوس وهو أحد قادتهم الكبار يسير في ساقية القوم
يحميهم ، فأدركه زهرة فنارله فاختلفا ضربتين فقتله زهرة وأخذ سلبه ،
وطاردوا الفرس وقتلوا منهم ، ثم أمسوا في القادسية مع المسلمين (٣) .
وفي ذلك اليوم حدث أمر عجيب يدل على مقدار اهتمام

(١) تاريخ الطبري ٤٨٦/٣ - ٥٣٥ .

(٢) تاريخ الطبري ٥٦٤ .

(٣) تاريخ الطبري ٥٦٥/٣ / ٥٦٦ .

المسلمين الأوائل بأمور دينهم وما يُقَرِّبهم إلى الله تعالى ، فقد قُتل مؤذن المسلمين في ذلك اليوم وحضر وقت الصلاة ، فتنافس المسلمون على الأذان حتى كادوا أن يقتتلوا بالسيوف ، فأقرع بينهم سعد ، فخرج سهم رجل فأذن^(١) .

وإن التنافس على هذا العمل الصالح ليدل على قوة الإيمان ، فإن الأذان ليس من ورائه مكاسب دنيوية ولا جاه وشهرة ، وإنما دفعهم إلى التنافس عليه تذكّر ما أعدّه الله تعالى للمؤذنين يوم القيامة من أجر عظيم ، وإن قومًا تنافسوا على الأذان سيتنافسون بطريق الأولى على ماهو أعظم من ذلك ، وهذا من أسرار نجاحهم في الجهاد في سبيل الله تعالى والدعوة إلى الإسلام .

كتاب من سعد إلى عمر :

وكتب سعد إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنهما يخبره بالفتح مع سعد بن عُمَيْلَةَ الفزاري وجاء في كتابه : أما بعد فإن الله نصرنا على أهل فارس ، ومنحهم سنن من كانوا قبلهم من أهل دينهم ، بعد قتال طويل ، وزلزال شديد ، وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراؤون مثل زهائها [يعني مقدارها] فلم ينفعهم الله بذلك ، بل سلبهموه ونقله عنهم إلى المسلمين ، واتبعهم المسلمون على الأنهار وعلى طفوف الآجام ، وفي الفجاج ، وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارئ وفلان وفلان ، ورجال من المسلمين لانعلمهم ، الله بهم عالم ، كانوا يُدَوُّون بالقرآن إذا جنّ عليهم الليل دوي النحل ، وهم آساد

(١) تاريخ الطبري ٥٦٦/٣ .

الناس لا يشبههم الأسود ، ولم يُفْضَلْ من مضى منهم من بقي إلا بفضل الشهادة إذ لم تكتب لهم^(١) .

وإننا حينما نتأمل هذا الكتاب نجد أنه قد تحلى بتوحيد الله تعالى وتعظيمه والبراءة من حول النفوس وقوتها ، فالنصر على الأعداء إنما هو من الله تعالى وحده وليس بقوة المسلمين ، بالرغم مما بذلوه من الجهاد المضني والتضحية العالية .

وقوة الأعداء الضخمة ، ليس بقاؤها أو سلبها للبشر ، بل ذلك كله لله تعالى ، فهو الذي حَرَّمَ الأعداء من الانتفاع بقوتهم ، وهو الذي منحها للمسلمين ، وإنما البشر مجرد وسائط يجري الله النفع والضرر على أيديهم ، وهو وحده الذي يستطيع دفع الضرر وجلب المنفعة سبحانه وتعالى .

وهكذا يكون الموحدون ، وهم الذين يستحقون النصر من الله جل وعلا .

ونجد سعداً يصف الصحابة رضي الله عنهم ومن معهم من التابعين بالتفوق في العبادة والشجاعة ، فهم عباد في الليل لهم أصوات مدوية بالقرآن كأصوات النحل لا تكل ولا تمل ، وفرسان في النهار لا تصل الأسود الضارية إلى مستواهم في الإقدام والثبات .

وحسبنا هذه الشهادة في بيان فضل من حضر تلك المعركة من استشهد ومن بقي ، وهم بضعة وثلاثون ألفاً ، لأنها شهادة صادرة من رجل شهد له رسول الله ﷺ بالجنة ودعا له وأثنى عليه كثيراً .

(١) تاريخ الطبري ٥٨٣/٣ .

أما أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فقد زاد همه لما نزل رستم بالقادسية خوفاً على المسلمين ، جاء في تاريخ الطبري من طريق سيف ابن عمر عن مجالد بن سعيد قال : لما أتى عمر بن الخطاب نزول رستم القادسية كان يستخبر الركبان عن أهل القادسية من حين يصبح إلى انتصاف النهار ، ثم يرجع إلى أهله ومنزله قال : فلما لقي البشير سأله من أين ؟ فأخبره ، قال : يا عبد الله حدثني قال : هزم الله العدو ، وعمر يخبُّ معه - يعني يسرع - ويستخبره ، والآخر على ناقته ولا يعرفه ، حتى دخل المدينة فإذا الناس يسلمون عليه بإمرة المؤمنين فقال : فهلاً أخبرتني رحمك الله أنك أمير المؤمنين ! وجعل عمر يقول : لا عليك يا أخي (١) .

وإن لنا أمام هذا النص وقفتين : الأولى أمام هذا الاهتمام الكبير من عمر رضي الله عنه الذي دفعه إلى أن يخرج إلى البرية كل يوم لعله يجد الركبان القادمين من العراق فيسألهم عن خبر المسلمين مع أعدائهم ، وقد كان بإمكانه أن يوكل بهذه المهمة غيره ممن يأتيه بالخبر ولكن الهم الكبير الذي كان يحمله للمسلمين لا يتيح له أن يفعل ذلك ، وهذا منتهى الرحمة والشعور بالمسئولية .

والوقفة الثانية أمام هذا التواضع الجمُّ من عمر رضي الله عنه ، فقد ظل يسير ماشياً مع الراكب ، ويطلب منه خبر المعركة ، وذلك الرسول لا يريد أن يخبره بالتفاصيل حتى يصل إلى أمير المؤمنين ، ولا يدري أنه الذي يخاطبه ويعدو معه ، حتى عرف ذلك من الناس في المدينة .

(١) تاريخ الطبري ٥٨٣/٣ .

وهذه أخلاق عالية يحق للمسلمين أن يفاخروا بها العالم في تاريخهم الطويل ، وأن يستدلوا بها على عظمة هذا الدين الذي أنجب رجالاً مثل عمر في عدله ورحمته وحزمه وتواضعه .
خطبة لعمر بعد الفتح :

ولما أتى عمر رضي الله عنه خبر الفتح قام في الناس فقراً عليهم الفتح وقال : إني حريص على أن لا أدع حاجة إلا سدتها ما اتسع بعضنا لبعض ، فإذا عجز ذلك منا تأسينا في عيشنا حتى نستوي في الكفاف ، ولوددت أنكم علمتم من نفسي مثل الذي وقع فيها لكم ، ولست معلّمكم إلا بالعمل ، إني والله ما أنا بملك فأستعبدكم ، وإنما أنا عبد الله عرض عليّ الأمانة ، فإن أبيتها [يعني أعففت نفسي من أموال الرعية] ورددتها عليكم واتّبعتكم حتى تشبعوا في بيوتكم وترووا سعدت ، وإن أنا حملتها واستتبعتها إلي بيتي شقيت ، ففرحت قليلاً وحزنت طويلاً ، وبقيت لا أقلل ولا أزد فأستعَب^(١) .

وهذه الخطبة تعتبر من النماذج العالية للحاكم العادل والمؤمن الورع ، فقد ذكر عمر رضي الله عنه في هذه الخطبة أنه عبد من عباد الله تعالى لا يزيد عن رعيته بشيء إلا أنه تحمّل هذه الأمانة العظيمة .

فهو ليس بملك مستبد يستعبد الناس ويستذلهم ، ومعنى استعباد الناس أن يحاول الهيمنة على أفكارهم ومشاعرهم ، فيجعلهم يفكرون كما يفكر ، يحبون ما يحب ويبغضون ما يبغض من غير نظر إلى الحق والباطل ، فهذه هي الطاغوتية التي تزعمها فرعون حينما قال

(١) تاريخ الطبري ٥٨٤ / ٣ .

لقومه فيما حكاه الله تعالى عنه ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ (١).

أما الحاكم المسلم فإنه يفكر كما يريد الله تعالى ويأمر رعيته بأن يستخروا أفكارهم وسلوكهم لبلوغ مراد الله سبحانه .

ثم ذكر المسئولية العظمى في تصريف أموال الدولة ، وأنه لو أثر نفسه بشيء من هذه الأموال فإنه قد يعيش بشيء من السعادة المؤقتة ، ولكن يعقب ذلك الحزن الطويل ، في حياة أبدية لا ينفع فيها الندم ، ولا يُقال فيها المذنب إذا طلب الإقالة ، ولا يُردُّ لحياة العمل فيحسن من سيرته وسلوكه .

أما إن أعف نفسه عن أموال الرعية ، وأسهر ليله في تفقد أحوالهم واجتهد في العدل بينهم حتى يراهم سعداء ، فإنه يسعد في آخره برضوان الله تعالى والدرجات العلى في الجنة ، ويعيش في دنياه بسعادة نفسية على أمل حظوته بالسعادة الأخروية .

كتاب من سعد إلى عمر ومن عمر إلى سعد :

هذا وقد كتب سعد إلى أمير المؤمنين رضي الله عنهما كتابا آخر ، يطلب فيه أمره في أهل الذمة من عرب العراق الذين نقضوا عهدهم في حال ضعف المسلمين فقام عمر رضي الله عنه في الناس فقال : إنه من يعمل بالهوى والمعصية يسقط حظه ولا يضر إلا نفسه ، ومن يتبع السنة ويتتبع إلى الشرائع ويلزم السبيل النهج ابتغاء ما عند الله لأهل الطاعة أصاب أمره وظفر بحظه ، وذلك بأن الله عز وجل يقول

(١) سورة غافر / ٢٩ .

﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف : ٤٩] .

وقد ظفر أهل الأيام والقوادر بما يليهم ، وجلاً أهله ، وأتاهم من أقام على عهدهم ، فما رأيكم فيمن زعم أنه استكره وحُشِرَ وفيمن لم يدع ذلك ولم يُقَمْ وجلاً ، وفيمن أقام ولم يدع شيئاً ولم يَجُلْ ، وفيمن استسلم ؟ فأجمعوا على أن الوفاء لمن أقام وكفَّ لم يزد غلبه إلا خيراً ، وأن من ادعى فصديق أو وقى فبمنزلتهم ، وإن كُذِّبَ بُذِلَ إليهم وأعادوا صلحهم ، وأن يُجعل أمر من جلا إليهم فإن شاقوا وادعوهم وكانوا لهم ذمة ، وإن شاقوا تموا على منعهم من أرضهم ولم يعطوهم إلا القتال ، وأن يُخَيَّرُوا من أقام واستسلم الجزاء أو الجلاء وكذلك الفلاحين (١) .

هذا وإن لنا أمام هذه الخطبة وقفتين : الأولى عند تطبيق عمر رضي الله عنه مبدأ الشورى حيث كان يستشير أهل الرأي في كل أموره المهمة بالرغم مما عرف عنه من غزارة العلم وسداد الرأي ، وإن هذا السلوك الرفيع كان من أسباب نجاحه الكبير في سياسة الأمة .

الثانية : الاستفادة من هذه المقدمة التي قدمها عمر رضي الله عنه بين يدي استشارته حيث ذكّر الصحابة رضي الله عنهم بلزوم التجرد من الهوى وإخلاص النية لله عز وجل ، والاستقامة على المنهج القويم الذي سنه رسول الله ﷺ ، فمن فعل ذلك عصم من الزلل في الحكم وأصاب الحق وظفر بثواب الله تعالى .

وقد لخص عمر رضي الله عنه هذه المشورة بخطاب وجهه إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه جاء فيه : أما بعد فإن الله جل

(١) تاريخ الطبري ٥٨٥/٣ .

وعلا أنزل في كل شيء رخصة في بعض الحالات إلا في أمرين :
العدل في السيرة والذكر ، فأما الذكر فلا رخصة فيه في حالة ، ولم
يرض منه إلا بالكثير ، وأما العدل فلا رخصة فيه في قريب ولا بعيد ،
ولا في شدة ولا رخاء ، والعدل - وإن رُئيَ لِينًا - فهو أقوى وأطفأ
للعجور ، وأقمع للباطل من الجور ، وإن رُئيَ شديدًا فهو أنكش
للكفر ، فمن تم على عهده من أهل السواد - يعني عرب العراق -
ولم يُعَنَ عليكم بشيء فلهم الذمة وعليهم الجزية ، وأما من ادعى أنه
استكره ممن لم يخالفهم إليكم أو يذهب في الأرض فلا تصدقوهم
بذلك إلا أن تشاؤوا ، وإن لم تشاؤوا فانبذوا إليهم ، وأبلغوهم
مأمنهم^(١) .

ونجد أن عمر رضي الله عنه قبل أن يوجه الجيش الإسلامي إلى
ما يجب عمله تجاه أهل العهد يتحفظهم بشيء مما علّمه الله حيث بين
لهم أن الله عز وجل قد يسر على عباده شريعته ، فجعل فيها رخصا
يعلمها أهل العلم والاجتهاد ، ومن ذلك الاجتهاد في معاملة الكفار
بما يحقق مصلحة الإسلام والمسلمين ، واستثنى من ذلك أمرين :
العدل في السيرة والذكر ، فالعدل في الحكم لارخصة فيه وإن كان
ذلك مع الكفار ، لأن العدل في الحكم هو الدعامة الكبرى لبقاء حكم
الإسلام وسيادته وانتشار الأمن والرخاء في بلاد المسلمين ، هذا في
الدنيا وأما في الآخرة فلا مفر من العقاب للظالمين ، لأن حقوق الله
تعالى قد يغفرها لعبده ويتجاوز عنه ، أما حقوق الناس فإن الله تعالى
يوقف الظالمين والمظلومين يوم القيامة فيقتصر لبعضهم من بعض .

(١) تاريخ الطبري ٥٨٥/٣ .

وأما ذكر الله تعالى فلا بد أن يسود حياة المسلم في قلبه ولسانه وجوارحه ، فيكون تفكيره خالصا لله تعالى ، ومنطقه فيما يرضيه وعمله من أجله ، ويكون همه الأكبر إقامة ذكر الله جل وعلا في الأرض قولاً وعملاً واعتقاداً ، فإذا كان كذلك عصمه الله سبحانه من فتنة الشبهات والشهوات .

وقد أخذ سعد ومن معه من المسلمين بتوجيهات أمير المؤمنين فعرضوا على من حولهم ممن جلا عن بلاده أن يرجعوا ولهم الذمة وعليهم الجزية .

وهكذا نجد أمامنا نموذجاً من نماذج الرحمة وتأليف القلوب فهؤلاء الذين نقضوا العهد قد كلفوا المسلمين حروباً دامت سنة كاملة بقيادة خالد ابن الوليد رضي الله عنه ، فلما آنسوا من المسلمين قلة واجتمع شمل الفرس نقضوا عهدهم مع المسلمين وأظهروا ولاءهم للفرس ، ومع ذلك عفا عنهم المسلمون لما انتصروا على الفرس ، وجاء بعض هؤلاء مستسلمين للمسلمين ، وبعضهم ظل بعيداً ينتظر ما يفعله المسلمون بالقربيين منهم .

وهذه المعاملة الكريمة حَبَّتْ المسلمين والإسلام لهؤلاء الناكثين فدخلوا بعد ذلك على فترات في الإسلام وأصبحوا من جنوده الأقوياء .

تاريخ المعركة :

وقبل أن تنتقل إلى مواقف ما بعد القادسية نشير إلى تاريخ وقوع هذه المعركة الكبرى التي كانت فاصلة بين المسلمين والفرس ، وقد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخها ، وللاستاذ أحمد عادل كمال

تحقيق جيد في ذلك توصل فيه إلى أنها في شهر شعبان من العام الخامس عشر للهجرة^(١)، وهذا القول هو الذي تؤيده أحداث العراق والشام آنذاك .

وعلى هذا فإنها تكون هي ومعركة اليرموك في عام واحد ، وقد سبقتها اليرموك حيث إن جيش العراق الذي سبق توجيهه إلى الشام مع خالد رضي الله عنه عاد إلى العراق بقيادة هاشم بن عتبة بتوجيه من أبي عبيدة بن الجراح وبناء على أمر أمير المؤمنين عمر رضي الله عنهم بعد أن شهدوا اليرموك فشهدوا القادسية .

فهل كان اتفاق المعركتين الكبَّريَّين في عام واحد وفي وقت متقارب مقصوداً للأعداء ليربكوا المسلمين ويحاولوا القضاء عليهم؟

الواقع أن التخطيط لمعركة القادسية كان قبل ذلك بعام وشهور سواء من قبل الفرس أو من قبل المسلمين ، وذلك لأن الفرس اجتمع أمرهم على ملكهم " يزدجرد " بعد فرقة ونزاع فعزموا على بعث جيش كبير لغزو المسلمين ، وأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وقادته أدركوا ذلك فأعدوا للمعركة الحاسمة من بداية العام الرابع عشر وصارت الإمدادات تُبعث من دار الخلافة في هذا العام وبداية العام الخامس عشر إلى العراق .

واكتفى الخليفة بما في الشام من الجند نظراً لأن المسلمين هناك قد تغلبوا على الروم في معاركهم الأولى واستولوا على أكثر مدنها الكبرى مثل دمشق وحمص ، ولكن الروم فاجئوا المسلمين بجموع لم يحسبوا لها حساباً ووجهوها بسرعة كبيرة كما تقدم ، والظاهر أنهم

(١) القادسية / ٢٢٦ .

اغتنموا فرصة انشغال أمير المؤمنين بالإعداد للمعركة الفاصلة مع
الفرس فوجهوا حشودهم الضخمة للقضاء على المسلمين في الشام
حيث كانوا يعرفون أن إمدادهم من دار الخلافة أقرب إلى المستحيل ،
ولكن الله سلّم فانتصر المسلمون عليهم في اليرموك انتصاراً حاسماً .

لقد تعرضت الأمة الإسلامية الناشئة لغزو منظم من دولتين
تمتلكان العالم آنذاك ، وكل دولة منهما قد حشدت كل ما في طاقتها
للقضاء على دولة الإسلام ، ولكن هذه الأمة الناشئة استطاعت أن
تقف بصلابة وعزم أمام تلك القوتين حتى قضت عليهما ، وإن هذا
وحده يكفي دليلاً على عظمة المسلمين الصادقين وعلى عظمة هذا
الدين الذي دفعهم إلى هذه التضحيات العالية وأنه حق من عند الله
تعالى الذي وعد بنصر دينه وأوليائه المؤمنين .

*

*

*

فهرس الجزأين الأول والثاني

الموضوع	الصفحة
- مواقف وعبر في خلافة أبي بكر الصديق	٥
- المقدمة	٧
- مواقف وعبر في جهاد المرتدين	١٥
- موقف لأبي بكر بعد وفاة النبي ﷺ	١٧
- بيعة سقيفة بني ساعدة	٢١
- إنفاذ أبي بكر جيش أسامة	٣٠
- أبو بكر وجهاد المرتدين والمتمردين	٣٤
- جهاد المرتدين والمتمردين حول المدينة	٤١
- مخاطبة المرتدين والمتمردين وعقد الألوية لقتالهم	٤٩
- جهاد تجمع طليحة الأسدي	٥٦
- جهاد تجمع أم رمل بنت مالك	٦٨
- خبر بني تميم وموقف خالد بن الوليد منهم	٧٠
- معركة اليمامة ونهاية مسيلمة الكذاب	٧٥
- جهاد المرتدين في منطقة مكة	٩١
- جهاد المرتدين من عكّ والأشعرين	٩٣
- جهاد المرتدين في منطقة الطائف	٩٥
- جهاد المرتدين في البحرين	٩٦
- جهاد المرتدين في عمان	١١٢
- جهاد المرتدين في مهرة	١١٦
- جهاد المرتدين والمتمردين في اليمن	١١٨

الموضوع	الصفحة
- نتائج حروب الردة	١٢٢
مواقف وعبر في فتوح العراق الأولى	١٢٧
- مسير خالد بن الوليد إلى العراق	١٢٩
- معركة كاظمة	١٣٢
- معركة المذار	١٣٤
- معركة الوجلة	١٣٦
- معركة أليس	١٤٠
- معركة أمغيشيا	١٤٤
- معركة الحيرة	١٤٥
- فتح الأنبار	١٥٥
- فتح عين التمر	١٦٠
- فتح دومة الجندل	١٦٢
- معركة الحُصَيْد	١٦٥
- معركة المصِيخ	١٦٧
- معركة الثَّني والزُّمَيْل	١٦٩
- معركة الفراض	١٧١
مواقف وعبر في فتوح الشام الأولى	١٧٥
- عزم أبي بكر ورؤيا شرحبيل	١٧٧
- مشورة أبي بكر في جهاد الروم	١٨١
- مسير يزيد بن أبي سفيان ووصية أبي بكر	١٩١
- مسير شرحبيل بن حسنة	١٩٩

- ٢٠١ مسير أبي عبيدة بن الجراح -
- ٢٠١ ثناء وموعظة من معاذ لأبي بكر
- ٢٠٣ موقف لخالد بن سعيد بن العاص
- ٢٠٤ قدوم مدد من طئ
- ٢٠٤ وصيتان من أبي بكر
- ٢٠٧ سير الجيوش الإسلامية وموقف هرقل -
- ٢١٢ مكاتبات بين أبي بكر وبعض قادته -
- ٢١٦ خروج هاشم بن عتبة إلى الشام -
- ٢١٩ خروج سعيد بن عامر بن حذيم إلى الشام -
- ٢٢٢ مسير حمزة بن مالك الهمداني إلى الشام -
- ٢٢٥ موقعتا العرب والدائنة -
- ٢٢٦ مسير عمرو بن العاص إلى الشام -
- ٢٢٨ توجيه خالد بن الوليد إلى الشام -
- ٢٣٢ مسير خالد إلى الشام -
- ٢٣٧ حروب خالد في مسيره إلى الشام -
- ٢٤٣ معركة أجنادين -
- ٢٥٤ حصار دمشق ومعركة الصفراء -
- ٢٥٨ وفاة أبي بكر واستخلاف عمر رضي الله عنهما
- ٢٦٩ مواقف وعبر في خلافة أمير المؤمنين عمر
- ٢٧١ مكاتبات بين عمر وأبي عبيدة ومعاذ -
- ٢٨٣ مواقف وعبر في فتوح الشام الثانية (ما قبل اليرموك)
- ٢٨٥ معركة فحل -

الموضوع	الصفحة
بين يدي المعركة	٢٨٦
محاورة معاذ مع زعماء الروم	٢٨٩
وصف المعركة	٣٠١
مواقف جهادية	٣٠٦
كتاب من أبي عبيدة لعمر	٣٠٩
- حصار دمشق وفتحها	٣١٢
- فتح حمص	٣٢٠
- خبر قيصر حين بلغه فتح الشام	٣٢٣
مواقف وعبر في فتوح العراق الثانية (ما قبل القادسية)	٣٢٧
- معركة النمارق ، معركة كسكر ، معركة باقسيانا	٣٣٣
- معركة الجسر الأولى	٣٣٨
- معركة البويب	٣٤٨
مواقف وعبر في معركة القادسية	٣٥٣
- الاستعداد للمعركة	٣٥٥
- وصية من أمير المؤمنين عمر لسعد بن أبي وقاص	٣٦٣
- خطبة لأمر المؤمنين عمر	٣٦٦
- مسير سعد إلى زرود	٣٦٩
- موقف جهادي للمعنى بن حارثة	٣٧١
- مسير سعد إلى العراق	٣٧٢
- الاستعانة بالتائبين	٣٧٥
- كتاب من أمير المؤمنين عمر	٣٧٦

- ٣٧٩ كتابان بين سعد وعمر -
- ٣٨١ موقف جهادي لزهرة ابن الخوية التميمي -
- ٣٨٣ حروب خاطفة ومكاتبات بين سعد وعمر -
- ٣٨٧ بعث وفد المسلمين إلى كسرى -
- ٣٩٦ حوار بين ملك الفرس وقائده -
- ٣٩٧ رؤى مزعجة لرستم -
- ٣٩٩ حوار بين رستم وأحد المجاهدين -
- ٤٠٢ تقارب بين الجيشين -
- ٤٠٤ مغامرة من طليحة الأسدي -
- ٤٠٨ حوار رستم مع زهرة التميمي -
- ٤١١ حوار رستم مع ربعي بن عامر -
- ٤١٦ حوار رستم مع حذيفة بن محصن -
- ٤١٧ حوار رستم مع المغيرة بن شعبة -
- ٤٢٥ حوار رستم مع بقية وفد المسلمين -
- ٤٣٣ عبور الفرس إلى المسلمين -
- ٤٣٤ عودة إلى الرؤى المزعجة -
- ٤٣٤ استعداد المسلمين -
- ٤٣٨ رستم يفرع من الأذان -
- ٤٤٠ مواعظ جهادية -
- ٤٤٢ يوم أرمات -
- ٤٥٠ مواقف بطولية في اليوم الأول -
- ٤٥٤ يوم أغواث -

الموضوع	الصفحة
بطولات أخرى في هذا اليوم	٤٥٨
- ليلة السواد	٤٦٢
- يوم عماس	٤٦٧
- بطولات أخرى في هذا اليوم	٤٦٩
- ليلة الهرير	٤٧٢
- يوم القادسية	٤٧٥
- نهاية المعركة	٤٧٨
- كتاب من سعد إلى عمر	٤٨٠
- خطبة لعمر بعد الفتح	٤٨٣
- كتابان بين سعد وعمر	٤٨٤
- تاريخ المعركة	٤٨٧



دار الأمين للطباعة

٨ ش أبو الهيثم (الجمهورية) - القاهرة - ت/فكس: ٣٥٣١٩١

١ ش صهاج من ش القاهره - الهرم - ت/فكس: ٤٦٤١٩٩